



Barbarossa بَارْبَارُوسَا

مصطفى سليمان



الطبعة

٢



Barbarossa بَارْبَارُوسَا

- بم سنحلم؟
- سنحلم بالأندلس.
- لم يعد في يد الزمن - على الأرجح - أي شيء.

خلف مكتبه يغمس الريشة في المحبرة، مدونًا...
"تلك وصية خير الدين بن يعقوب بن يوسف
ثمانمائة عبد من العبيد للسلطان سليمان القانوني، ماننا عبد للصدر الأعظم
رستم باشا، ثلاثون ألف ليرة ذهبية لبناء جامع وقبر في بشكتاش بإستانبول.
عشرة آلاف ليرة لابن أخي مصطفى بن إسحاق. ألف جارية وألف عبد وسرايا
في إستانبول لولدي حسن و..... و.....".
منح المنات من رجاله نقودًا وأملًا، ولم ينسَ الماما و(بلانكو) الأندلسي
وبناته.

مسح خير الدين وجهه براحتيه، فرك عينيه، فكر قليلًا ثم حدث نفسه:
- ولم لا.

يغمس الريشة في المحبرة، يكتب السطور الأولى بيد واهنة، في الركن يجلس
(بلانكو)، يضع التبغ بيد واهنة في البايب، على مهل يسعل وينفث الدخان،
يغمض الرئيس خير الدين عينيه، ويقول:
سأكتب سيرتي....

دار غراب للشعر والتوزيع



978-977-786-025-3

بارباروسا



الطبعة الثانية

٢٠١٦هـ - ١٤٣٧م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: بارباروسا
اسم المؤلف	: مصطفى سليمان
الغلاف	: إيمان صلاح
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الثانية
رقم الإبداع	: ٢٠١٥ / ٢٢٦٢٦
التقييم الدولي	: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-٠٢٥-٣

٨ عبارات الواحة - قطعة ١٠ - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

ghorabpublishing@hotmail.com

بارباروسا

مصطفى سليمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١)

قارب وحيد، ألف صدفة يسكبها البحر في أذن ظلّ عابر، يتحرك
(بلانكو) من خلف الأشجار مُنحدرًا، قدمه وقدم الزمن سواء، أنفاسه
تتلاحق، تلتفح نسمات الليل جسده المستور بقميصٍ ممزق ونصف
سروال، يرتطم الهواء البارد بصدرة، تغوص قدماه في الرمال، ينخلع
حذاؤه فلا يُبالي، يختبئ خلف قارب، الماء يُبلل قدميه، بصعوبة يُراقب
جنديين متجهين بعيدًا، يغيبان في الظلام، يعقد (بلانكو) العزم على
خطوته الأخيرة، يدفع القارب صوب الماء، تنفر عروقه، يلهث تعبًا.

"هيا.. هيا..".

يُجفف العرق عن عينيه، أخيرًا يتأرجح القارب على صفحة البحر،
يأبى الالتفات خشية أن يراه أحدٌ، يسبح وحبل القارب في فمه،
الشاطئ يغيب ويظهر على اهتزاز الموج، يقفز إلى باطن القارب، يحذف
وجسده يرتجف من البلل، يصصره التعب في حلبة واسعة للوهن.

توقظه شمس الصباح، منذ متى لم يرَ الشمس؟ الماء حوله في كل صوب.

"أين أنت؟ وإلى أين..؟"

سيكتشف زياد هروبه، سيقراً الرسالة:

"مين (بلانكو) إلى زعيم الثوار:.. هَرَبْتُ بحثاً عن (ماري)".

سفينة تلوح في الأفق، يُجَدَّفُ بعيداً عنها، تخور قواها، "لا بُدَّ أنها لهم، جاءوا لأجلي"، تقترب السفينة، يُلقى بنفسه في المياه.

.. زياد وآخرون يرهفون السمع لـ (بلانكو) المستلقي على بطنه، يد تمسح على جروح ظهره بمطهرٍ، يحكي مُغمض العينين:
- قالوا.. أياماً وتخرج.

حجرة مُغمّمة، ضوء شمعة، صوت وحيد، مع مرور الزمن، يتمدد التعب بخيوطه في كل جسدي، ألف سؤال، تطرق به رأسي، أفيق لأجد نفسي بين آخرين، جلبة تترَدَّدُ بين الجدران الصماء كعملة عتيقة.
- تحرّكوا.. تحرّكوا..

نسير في دهليز ممتد ومتعرج، امتص الدهليز من الجنود الظلمة والرطوبة، نهبط دَرَجاً إلى طابقٍ سفليٍّ، رائحة أرضه تُخبرنا، أنها لم تَرِ

الشمس يوماً، ننزوي في مقبرة واحدة، رطبة تصول الحشرات والجردان فيها، العرق محتجز في قمصاننا وعُرانا على السواء، أخذيتنا تبللها مياه راكدة.

تلكزنا أيادٍ، من الظلام كحيات سوداء تنهش وتعود لجُحرها، يدفعوننا بقسوة إلى مكانٍ أوسع، بعد وقتٍ ثقيلٍ يفكون العُصابات عن العيون، بصعوبةٍ تُبصر قنديلاً باهتَ الضوء، الصراخ من حولنا لا يتوقف، الجنود يضعون على رءوسهم خوذات كأنهم يُحاربون في معركةٍ طاحنةٍ، يَسحلون واحداً إلى جلاٍ، وآخر يضعونه في دولاٍبٍ من الحديد السميكة به أسلحة ثم يغلقونه ببطء ولذّة. ينفلت الصراخ متقطعاً وأحياناً مُتصلاً وأحياناً صرخة قوية بعدها صمتٌ ينفُثُ له الخلق، ثم يواصلون عملهم. تنساب الدماء على وجه الدولاٍب في خيوطٍ مديدة، ثم تنتهي بقطرات، تَكُونُ بِرَكاٍ لزجة وحمراء تخوض فيها الجردان. يُجْرِجُرُونِي ثم يعلقونني، يمزق أحدهم قميصي، تتقدم جثة هائلة في يدها سوط من جلد معقود على الرصاص، من الضربة الأولى صرخت وصورتا ابنتي وزوجتي تارجحتا أمام عيني، مع الضربة الثانية دارت بي الأرض، وغابت العيون المبتسمة، الأصفاة تجرح أطرافي، دمايني تسيل دافئة، ضربة ثالثة أفقد بعدها الوعي، وأفيق على جروح لا أذكر متى حدثت.

.. رائحة ننته تركم أنفي، يجرُونِي إلى كومةٍ من الأجساد ينبعث منها أنينٌ خافتٌ، بين الوعي وعدمه أرى على ضوء مشاعل معلقة في

الأركان عضاضة لحم تعض نهدي امرأة.. حذاءً حديدياً شديداً
الاحمرار، يحملونه بِسَاقٍ من حديد طويلة، يدسُّون فيها قدمي رجل،
أشم رائحة احتراق لحمه مخلوطاً بصراخ هائل..



.. أفاق على سطح السفينة.

- يا ريس عروج.. يا ريس.

يطل وجه عروج على (بلانكو)، ندبات كثيرة على وجهه والجزء
الظاهر من صدره، كفه اليمنى ليس فيها سوى ثلاث أصابع.

- أنت هارب؟

يسترد وعيه للحظة، يتحسس حزاماً حول وسطه مُردداً:

"(ماري).. (ماري)..".

ينظر للوجوه المحيطة به، جسده المنهك يقشعرُ قليلاً، يُرخي جفونه
كأنها يستسلم للموت.



.. يهمس الطبيب:

- ليس أمامك إلا العفو من الكرسي الرسولي.

في الزنزانة تخضبت وجنتا (بلانكو) بالدموع، شاكرًا الله على نجاته

من عقوبة الكفر الصريح، أنهم بذنبٍ هو نفسه يجهله فكانت العقوبة مصادرة كل أملاكه والحبس لعام.

كان العام ثقيلَ السير، عابسَ الوجه، موسيقاه أنين مسجونين وصراخاً، للبيت رائحة تسكن صدره، يحلم أن يشم هذه الرائحة مرة أخرى، يرجع لابتته وزوجته.

قبل أن تمتد يده لفتح الباب يقبضون عليه مرة أخرى، فزع.

- ماذا حدث؟ أين زوجتي و(ماري)؟

زجَّ الجنود به إلى الزنزانة ذاتها، تحدث قسّ:

- خرجت خطأ، يا (بلانكو).

تذكر قول الطبيب:

- "ليس أمامك إلا العفو من الكرسي الرسولي".

يَرشُّ الجنود لإحضار شمعة وصحيفة وريشة ومخبرة، بأنامله المرحشة يكتب العفو، تفوح من الشمع المنصهر رائحة العفن ذاتها.

تحدث القسّ الجالسُ خلف مكتبه:

- أنت تعرف، يا (بلانكو)، أن الديوانَ المقدسَ لا يقبض على أحد دون أدلة كافية، إننا نطارد الكفر والزيف، وذلك للمحافظة على سلامة العقيدة الكاثوليكية ونقائنها.

يُقَلِّبُ القسُّ أوراقًا بين يديه:

- أنت قدمت طعنًا بطريق الاستئناف أمام (السوبريما)

يزفر القسُّ، ويردف:

- للأسف رُفُضَ، ثم قَدِّمَتِ التماسًا بالعفو من الكرسي الرسولي،
ألا تعرف كم سيكلفك هذا العفو؟

- سأقدم كل ما أملك.

- للأسف صُودِرَتْ كل أملاكك.

يقشعر بدن (بلانكو) من صرير الريشة فوق الصحيفة.

في قمرة الرئيس عروج، نظر الرئيس لأخيه الأصغر إلياس:

- الأسطول الإسباني أقوى أسطول في البحر.

أجاب إلياس:

- أن تسمع عن العذاب غير أن تراه، الاندفاع وراء العواطف، قد
يوقعنا في عواقب وخيمة.

عَبَسَ إلياس قليلًا، ساد صمتٌ طويلٌ، عروج يُقَلِّبُ الأمر في
رأسه.

تتوقف السفينة بعيداً عن شاطئ مدينة بلنسية.

- لا تحركوا إلى البحر حتى تسمعوا إشارتي أو آتي إليكم مع الصبح.

قالها عروج.

يستقل (بلانكو) وعروج وثلاثة بحارة قارباً إلى الشاطئ ليلاً، يسرون إلى الجبل عبر طريق وعر، حتى بداية مدق يؤدي إلى أحد الجبال، يستوقفهم رجل، يرد (بلانكو):

- أنا (بلانكو).. (بلانكو)..

يقرب الرجل في حذرٍ حاملاً في يده اليمنى شعلة، يحدّق في وجهه (بلانكو):

- لماذا عدت؟

قالها الرجل وهو يفسح الطريق لهما، يندهمس زياد لعودة (بلانكو).

في خيمة قائد الثوار، على ضوء المصباح القابع على منضدة خشبية، يروي (بلانكو) ما جرى، يُرحّب زياد بالريس عروج.

- لديّ بعض الصغار والعجائز، لا يتجاوزون العشرين فرداً، في قرية قريبة سيصطحبك (بلانكو) وعدد قليل من الرجال إليها، لا تقلق فهي آمنة..

تساءل عروج:

- هل يتعاون معك أحد؟

- على فترات متباعدة.. الرئيس سنان.. الرئيس صالح.. الرئيس
أيدن.

يسط عروج يده لزياد قائلاً:

- وعروج أيضاً.

مع تبشير اليوم التالي تغادر السفينة شاطئ الأندلس.

لم يتوقف (بلانكو) عن الحكى، يحكى لكل الرجال، في الظهيرة
يستلقي على ظهره ويحكى، في الليل يستلقي على ظهره مُحدّقاً إلى القمر
ويحكى، حتى وهو نائم يحكى، وهو يخبط الماء بأصابعه المقطوعة يحكى،
ينظر لصورة (ماري) ويحكى... يقول: "امنحوني عوداً"، يحرك أصابعه
ويحكى.

(٢)

دقت يد الباب، وكل من فيه يشرب من كأس النوم ما يكفي
للصباح، غادر خير الدين بأعوامه الثمانية عشر فراشه مشاقلاً، يتناول
ثيابه، يهبط إلى الطابق السفلي من الدار وهو يرتدي المعطف، هابطاً على
بصيص ضوء خافت من المصابيح المعلقة على مسافات متباعدة، لم تكف
اليدين إلا على صوته متسائلاً عن الطارق، الذي أجاب:

- عروج في الحانة.

قفز خير الدين باقي الدرج ثم صرخ بكل صوته:

- أبي، عاد عروج، سأذهب إليه.

ارتفع صرير الباب والشيخ يعقوب بأعوامه الثمانين يفرك عينيه،
سار إلى نافذة حجرته، يبصر أصغر أبنائه، يجري في عمق الشارع المظلم

إلى آخره منادياً على أكبر إخوته: "عروج.. عروج.. عروج" غير مبالٍ
بزخات المطر المتساقط، متجنباً الحفر المختبئة تحت تجمعات المياه، يدلف
من شارعٍ إلى آخر.

عروج علّمه المبارزة بالسيف، أول من ركب معه البحر، إلى مصر
والشام وإستانبول وتونس، حتى العام الماضي، استدعاه:

- يمكنك أن تبهر وحدك، سأهبك سفينة والأخرى ستكون لي أنا
وإلياس.

فكّر أن يسأل أخاه:

"لماذا لم تهب إلياس سفينة وأبقى معك؟".

ابتلع سؤاله، استعداد لرحلته الأولى، كانت حبيبة تتلأل على الشاطئ
بجسدها الممشوق، وشعرها الأسود مُسترسلاً، يداعبه الهواء، لوّحت
مبتسمة، صوت عروج يخترق لحظات العشق:

- أتحب أن يأتي معك إلياس؟ أم تأتي معي؟

تساءل بـمٍ يجيب؟ سكت للحظات ثم أجاب:

- وإلياس؟!

أكمل عروج:

- إلياس حنون، رقيق المشاعر أما أنت فقائد.

لحظتها علم أنه كان تحت عينيّ الرئيس عروج.

رائحة اليود متمزجة برائحة السمك وعرق الرجال في الميناء تصل إليه قبل صخب الأمواج الذي يزداد كلما سار صوب الميناء، بالقرب منها توجد ثلاث حانات متفرقة، يقف ليلتقط أنفاسه، يجفف العرق المتصبب على وجهه، قطرات المطر تحجب الرؤية، يمسح وجهه مرتين، يواصل الجري في محاذاة الشاطئ، أضواء شاحبة تسلك من نوافذ كالحة، يرسم ابتسامة على وجهه، عيناه حددتا موقع حانة (البرتو)، أمام بابها تمثال لرجل روماني على يمينه مصباح وعلى يساره مصباح، ضلقتا الباب ملتصقتان، يدفعهما داخلاً في عمر لا يجاوز نصف المتر، خشب الأرضية يئنُّ خافتاً، كل من في الحانة يلتفون في دائرة أسفل القنديل المعلق في وسط السقف، يرهفون السمع لصوت خافت، يخطو بحذر خشية أن ينفرط عقد الجالسين، تلتفت إليه (جومانة) تلك المرأة التي يعرفها أهل الجزيرة، تتمتع ببداية مفرطة، وعينين واسعتين، فإذا تملكها الغضب يزداد اتساعهما، تنظر إليه نظرة عتاب ولوم، ينزع المعطف المبتل عن جسده. الزجاجات والأكواب متناثرة على المناضد، البعض يجلسون بالقرب من الدائرة، يرهفون السمع، عيناه تبحثان عن عروج، سؤال يَطِينُ في رأسه:

"لماذا كل هذا الصمت؟"

ثم سؤال آخر:

"أين صخب العائدين؟ وغناء جومانة بصوتها القويّ وعزف زوجها "ألبرتو" يلتصق بالدائرة، الوجوه نصفها مضيء والآخر مُعتم، تفسح له الأجساد مكانًا، الكل يحملي في رجلٍ تجاوز الأربعين، يرتشف الآن جرعات من الماء، عظام الوجه بارزة، نحيل الجسد، طويل القامة، بجواره عروج وإلياس، أردف (بلانكو) حديثه بصوتٍ آتٍ من بعيد:

- يطوف المنادون المدن على بغالهم، يقرعون الطبول من مدينة إلى أخرى ومن قرية إلى أخرى، يُعلنون قرارًا وراء الآخر:

"محظورُ البيع لشخصٍ من أصلٍ عربيّ".

"محظور الاحتفاظ بأي مخطوطٍ أو كتاب".

"محظور امتلاك سلاح أو حمله".

"محظور إيواء أو حماية المخربين".

يتدخلون في كل شيء، حتى حياكة الثياب، اعتدتُ المحظورات وتجنبتها خوفًا على ابنتي الوحيدة وزوجتي، رجعت في منتصف النهار ليأخذني القشتاليون إلى التحقيق..

عينا (بلانكو) تحدقان في شيء ما، ربما الجالسين هناك في ركنٍ بعيد، على منضدتهم شمعة انصهرت تقريبًا، يسترون بالظلام، يصغون إليه، يجفف وجهه من العرق، أردف:

- لا تسألوني كيف قفزتُ مع رجلٍ آخر من عربة تجرّها الخيول إلى الغابة، دلفنا من مكان إلى ثانٍ وثالثٍ، حذّرني الرجل:

- ستر بصون بيوتنا.. تعالَ معي..

بكيْتُ وأنا أنظر لكفي.. سرقوا إصبعين.. متى...؟ لا أعرف، ربما وهم يضعون حول رأس رجل إكليلاً من الحديد بمسامير حادة ناتئة من الداخل يدور بلولب حتى ينغرس المسمار في الرأس فتخرج آهته حادة، عيناه تشبثان بوجهي تتوسلان إغاثة، ربما وهم يستلون لسان امرأة فتندفع الدماء من فمها الأخرس،.. عشت مع الشوار شهوَرًا، لا أفكر إلا في زوجتي و(ماري)، حتى جاءني رجلٌ: "زوجتك ماتت من التعذيب.. ابتك لا يعرف أحدٌ عنها شيئًا، ربما يبعثُ، وربما في أحد السجون وربما..".

يفك (بلانكو) من خصره حزامًا أسودَ، يسطه على المنضدة، ويخرج منه رقعة من الجلد ملفوفة برباط أسود، يفك الرباط بحرصٍ شديد، في داخل الرقعة صورة رُسِمَت بالرصاص لفتاة رقيقة الملامح، يشير إليها:

- هذه ابنتي اسمها (ماري).. احفظوا شكلها.. (ماري بلانكو).. إذا رأيتموها في أي مكان أخبروني، سأبقى معكم هنا في الجزيرة.. اسألوا أصدقاءكم في الموانئ الأخرى، سأرسم لكم صورًا لمن يطلب ليسأل عنها في أي مكان..

توقَّف عن الحكّي، الوجوه يعترها الحزن، يحمدون الله في سرائرهم أن الظلام يُوارِي انتكاس الرءوس، تبدل جومانة قدح الماء بآخر، يجرعه

الرجل دفعة واحدة، يتسم شاكرًا، يتكئ على ساعد عروج، الذي انبعث صوته أول مرة:

- طابت ليلتكم يا رجال.

يعانق خير الدين عروجًا ثم إلياس.

خطواتهم ساكنة، صخبُ الموج يخفت تدريجيًّا كلما اتجهوا إلى دار يعقوب، بضع خطوات ويقفون ليلتقط (بلانكو) أنفاسه ثم يواصلون السير من جديد.

كانت الحركة والصخب يملآن دار يعقوب فرحًا بعودة عروج، من النافذة عرف من في البيت أن هناك شيئًا ما، سألت سهيلة زوجها إسحاق عن الشخص الرابع، هزَّ كتفه متجاهلاً، نزلت الدرج، تنادي على الجارية، التي انهمكت في إعداد الطعام، يعانقون الأب، بهمة عتاب، قال يعقوب:

- تأخرت هذه المرة، يا عروج.

يحتضن إلياس أخاه إسحاق، يشاركهم (بلانكو) العشاء، على أضواء الشموع، يحكي عروج كثيرًا وكثيرًا. الجارية تملأ الصُحُف كلما فرغت، يرحب يعقوب بالضيف كلما أمكن، استأذن الضيف:

- إنني في حاجة إلى النوم.

اصطحبه عروج إلى الطابق العلوي، تمدد (بلانكو) على الفراش.

- آه، منذ زمن بعيد لم أستلقِ على فراش يا ريس عروج.

- نم ولا تقلق أبدًا.

بين غطيط نومه تنبعثُ آهاتٌ، كلمات متقطعة، بين وقتٍ وآخر يرتجف الجسد، يهبط عروج إلى الطابق السفلي.

بينما النوم يريح جسد (بلانكو) الواهن، كان إلياس يقصُّ عليهم قصة (بلانكو) كلمة.. كلمة، فترسمُ الكلمات بحروفها على صفحة الليل العديد من صور العذاب، وهم على هذا البُعد المكاني يسمعون الصراخ المتواصل، صرير السلاسل، حركة الأصفاد، أنين الأبواب الصدئة، خطوات القشتاليين، يدكون الأرض بأرجلهم، خلف الجدران الغليظة لزنزانات تحت الأرض يقف حراس يقظون يذهبون ويعودون، يلتفتون يمينًا ويسارًا، يحدقون في كل شيء حتى الأسلحة التي بين أيديهم ومع هذا وصل إلى هذه الجزيرة بكاء المورييسكيين ورائحة موتهم.

تحدّث إلياس:

- شيثان يتقنها (بلانكو): الحكى والرسم، حتى جوانب السفينة تزينت بصور (ماري).

تساءل إسحاق:

- يا خضير أنت تعرف عددًا من اللغات، قل لي: ماذا تعني مورييسكيون؟

- هو لفظٌ قشتاليٌّ، يعني النَّصارى الجدد أو الصغار.

غادر عروج الدار دون أن ينتظر أيَّ تعليق أو رد، واصل السير في الطرقات إلى دار العصافير، هذا اللفظ أطلقه البحارة على بيتٍ للغواني، يقرب البيت من الميناء وفي مأمنٍ من العواصف، يسير عروج في بهوٍ واسعٍ خافت الضوء، تنطلق من خلف الحجرات الموصدة ضحكات خليعة، تعترض صاحبة البيت سيره بثوبها، الذي يخبره أن هناك من ينتظرها في الداخل.

- جئتَ لتبحث عنه.

- أين هو؟

تشير بيدها إلى حجرة بعينها:

- إنه هناك.

تردد عروج بعض الشيء، أردفت:

- آه، وحيداً، لا تقلق.

يتجه للحجرة، يدفع الباب، يعتدل (يسي) مندهشاً:

- الرئيس عروج!!

كان (يسي) نصفَ عارٍ، وقف مُحمّلاً في الرئيس.

- لا تُغادر السفينة دون إذنٍ مِنِّي.

أوصد عروج الباب، دون انتظار إجابة من (يسي)، الذي جلس على الفراش مذهولاً:

"عروج..عروج بنفسه جاء إليّ، يتحدث بغلظة كأنه يملكني.. الرحلة الأخيرة لم أخرج فيها معه عمداً، ماذا يقصد بهذا الحضور؟ الاستخفاف، دنو المواجهة..".

عاد عروج إلى البيت وعقد العائلة ينفرط، استأذن إسحاق ودلف غرفته.

في الفراش تتمدد سهلة بثوبٍ خفيف يللملم جسدها القصير، كما يحيط شعرها الأشقر بوجهها، تخفف من ثيابه قائلاً:

- أن تسمعي قصصاً عن الموريسكيين شيءٌ، وأن تسمعي منهم شيءٌ آخر.

- يقولون إن أسوأ ما فعله الملك عبد الله بن محمد هو تنازله عن غرناطة.

- قالت أمّه عائشة له بعد توقيعه على التنازل ورحيله من الأندلس: فلتبك كالنساء مُلكاً لم تَسْتَطِع أن تدافع عنه كالرجال..

- سمعتُ من أبيك أن هناك أرضاً جديدة اكتشفها رجل يُدعى.. يُدعى..

- آه تقصدين كريستوفر كولومبس (يبتسم) سمعنا أنه وصل إلى الأندلس مُكبَّلاً بالأصفاد وسيغادرها إلى الأرض الجديدة.

- أتعرف أين هي...؟

- لم يفكر أحدٌ إلى الآن في الإبحار إليها..

تُقبِّل شفّتيه.. تهمس بصوت خافت:

- أوحشتني.

يمسّد شعرها الطويل المنساب على جانبي وجهها:

- وأنتِ.

ربما لم تمنحها الحياة أولادًا من هذا الرجل، الذي تنعم بين ساعديه،
عيناه تُخبرانها بذلك الحب الذي لا يهدأ أو يخجو يومًا، فجذوره هناك في
أيام الصبا، قبلته الأولى هناك فوق كومة القش قال: "أحبك..
أحبك.." قالها بعد القبلّة، التي لها مذاق القبلات ذاتها التي يغمرها بها
الآن.

(٣)

ضوءٌ خفيفٌ يتسلل من خلف الستائر المسدلة إلى مخدع الملكة
(إيزابيلا)، المستلقية في مخدعها بعينيها الزرقاوين، وشعرٍ كستنائيٍّ جميلٍ
يميل إلى الحمرة، وقوام متوسط.

أعلى حافة الفراش تجلس ابنتها الوحيدة جوانا، الحزينة لحدِّ
الكآبة، فمُنذ دقائق دخلت وصيفتها مخدعها وأخبرتها:

- سيدتي، مولاتي الملكة (إيزابيلا) تلح في طلب حضورك.

للمرة السابعة أو الثامنة تكرر الوصيعة قولها، كل ما تفعله جوانا
هو الالتفات إليها، ثم تواصل النظر من النافذة، بعد مغادرة زوجها
(فيليب) لحياتها وهجر معيشتها زهدت في كل شيء إلا رغبةً واحدةً
تسكن صدرها، عودة (فيليب) إليها ليرتمي بين ساعديها عاشقاً ولها،
جلست خلف النافذة تأبى التحرك، أمام هذا الإلحاح المستمر، غادرت
مكانها بمللٍ وخطت بتلكِ صَوْبَ مخدع أمها، تتأملها.. مغمضة
عينيها.. شاحبة الوجه، تفتح عينيها، تنظر حولها تبتسم لرؤية ابنتها.

- أريد.. (إكسيمنس).

قالت (إيزابيلا) كلمتها ورأسها يرجع إلى تلك الليلة البعيدة، التي ركعت فيها في خشوع أمام تمثال السيدة العذراء، الشموع تُلقِي ضوءاً خافتاً، تضوي الدموع في عيني (إيزابيلا)، التي عقدت يديها على صدرها، يرتجف جسدها من شدة الخوف، ذلك الكائن البشع، أحمر العينين، غليظ الشفتين، شديد السواد، هكذا رسمته في عقلها، أحسَّت بوطء قدميه الثقيلتين وأما تحتضر بين يديها، منذ ذلك الحين تعاهد مع (إيزابيلا)، في كل عام يخطف من بين ساعديها طفلاً وراء آخر، حتى أحب بناتها، التي تزوجت وأمسَّت ملكة البرتغال، استطاع بضربة خاطفة أن يسقطها صريعة المرض ثم يحملها خلفه على حصانه ليهرع بها نحو غاباته السوداء الممتدة إلى ما لا نهاية، فلم يبق إلا جوانا، التي رُقَّت إلى (فيليب) الجميل دوق برجندي وأكرمها الرب بشارل الخامس، فتضرَّعت (إيزابيلا) وتهلل لسانها بالدعاء أن يحفظ الرب وحيدتها جوانا. وهي تُضيء شمعة جديدة، سمعت حفيف ثوب لشخصٍ يقترب، يمس كتفها بأصابعه، دون أن تلتفت واصلت إضاءة شمعة أخرى، جاءها صوت (فرديناندو):

- منذ زمن وأنت زاهدة في صحبة الشعراء والفلاسفة وآثرت صحبة القساوسة.

تغادر الكنيسة يتبعها (فرديناندو)، الذي أردف:

- أعرف ما يدور في رأسك.. ليس هناك أفضل من (خنميس إكسيمنس)، شخصية إيجابية من أسرة نبيلة وإن كانت رقيقة الحال، عالم في القانون المدني والكنسي ومع هذا ينام على التراب والأرض الصلبة، يكثر من الصوم، يضرب نفسه بالسياط، يرتدي قميصاً من الشعر على جلده.

بالفعل ما كان يشغل رأسها في هذه اللحظة بالتحديد لمن تعترف.. لمن تعترف.. لمن تعترف بعد وفاة القس (توماس ودي تركيادا)، رئيس الدومينكان في سانتا كرون ببشقوية، وذلك القس الذي تعهدت أمامه ويدها على الكتاب المقدس قبل أن تعتلي العرش أن تُكرّس حياتها لسحق الكفر وحماية الكشلكة.

تفيق (إيزابيلا) من غيوبتها، ترتشف رشقات من الماء وتعود إلى الغيوبة من جديد.



تجتاز بهو القصر وعلى بعد خطوات منها (إكسيمنس)، وجهها مشرق لتوقيع عبد الله بن محمد لمعاهدة الأندلس، تكلم (إكسيمنس):

- سوف أستدعي يا مولاتي فقهاء المدن الإسلامية مثل غرناطة، قرطبة، مالقة، وغيرهم وأدعوهم إلى دخول حظيرة الرب.

- وإن لم..

يقاطعها:

- أغدق عليهم بالتحف والهدايا.

يقرأ السؤال ذاته في عينيها؛ يردف:

- وإن لم يكن فالوعد والوعد.

- يذعنون ظاهرياً ويحتفظون بدينهم سرّاً.

- هنا يأتي دور ديوان التحقيق بقيادة الدون (ديجو ديسا)

(ييتسم).. يجب أن يعودوا إلى حظيرة الرب.

تواصل سيرها منشرة الصدر..

تقيق من غيوبتها مرددة:

- (إكسيمنس) :

تحس مس يده ليدها، بصوت خافت:

- مولاتي.

- مولاتي.

قالها في الماضي كثيراً، قالها مُبتَهجاً وهو يشير من إحدى شرفات

القصر.

- مولاتي.. انظري.. هناك.

دخانٌ كثيفٌ ينبعث من مكانٍ على مرمى البصر، تُخَمِّنُ (إيزابيلا):

- أظنُّ أن هناك حريقًا في ميدان الرملة.

يبتسم قبل أن يخبرها:

- ثمانون ألف كتاب شاملة كل نسخ كتب الهرطقة، لم أستثن منها إلا ثلاثمائة كتاب في العلوم، حُمِلَتْ إلى قلعة عبد السلام، وأرجو من جلالتك الموافقة على استبدال قلعة النهر باسمها.

ظَلَّت النار مستعرة أيامًا وليالي، من صهدها يتعد المارة عن ميدان الرملة، تلتوَّى النار كتنينٍ اختلط سواده باحمراره، يتلعب في جوفه ملايين الكلمات والحروف، خيوط الدخان تجوب انشوارع، تعشش في أركان الديار، يلفظها الكبار والصغار في سعالهم واحمرار عيونهم..

ترجع من غيبوبتها قائلة:

- آلاف من الكتب التي أغضبت الرب، حرقتها.

أجاب (إكسيمنس):

- سيباركك الرب يا مولاتي، الآلاف رجعوا إلى حظيرته.

تدير رأسها لتبصر زوجها (فرديناندو) فتسأله:

- ماذا فعلت مع ملك فرنسا؟

يتقدم للأمام يقبل يدها، ينظر في عينيها:

- يشكو يا مولاتي أنني خدعته مرتين، إنه يكذب، ذلك الغبي خدعته أكثر من عشر مرات.

يشير (إكسيمنس) للجميع بالخروج فقد آن وقت اعتراف الملكة،
قالت (إيزابيلا):

- أوصي أن يُوزَّع مالي على الفقراء، وأن أُدْفَنَ في دير فرنسيسكاني داخل الحمراء.. وإذا رأى مولاي الملك أن يكون جسده في مكانٍ آخر، فوصيتي أن ينقل جثثاني إلى جواره.

تشرد من جديد.

الملك فرناندو، الذي عارض أخوها هنري الرابع اقترانها به،
صارخًا في وجهها:

- لا وازع له، يحتاج إلى القدرة، يستغل الفُرَصَ يلتمس الوسائل
المختلفة لتحقيق أغراضه.

أجابت:

- أعرف، ولكنه قائدٌ حربيٌّ جيدٌ.

- لن يتم هذا الزواج.

- سأتزوجه.

أبت الزواج من كل الملوك والأمراء، الذين قدمهم لها أخوها
ونجحت بصبرها في الزواج من فرناندو، استلقت أمامه في مخدعها
ليشم عبيرها، بينما يجول في صدرها ذلك الحب لزواج يخدم اتحاد شبه
جزيرة إيبيريا؛ فها هي تقدم جسدها فداءً لتقوية شوكة الكاثوليك
لتواصل بهذا القائد الحربي كسر شوكة المهرطقين وطردهم من إسبانيا،
تساءل:

"من سيكون أسعد حالاً منها، لن يكون فرناندو الذي لا يخلو
مخدعه من النساء.. من سيكون الأسعد حالاً.. آه.. لن يكون إلا عمها
"خوان الثاني" كفيف البصر، الذي احتسى هذه الليلة الكثير من الخمر
معبراً عن سعادته، لشم يدها قائلاً:

- كنت أودُّ أن يرتدَّ إليَّ بصري لأراك يا جميلتي، في هذا العالم لن
تجدي من هو أسعد مني بزواجك بابني.

(٤)

كم أنت قريب يا صبح ! أقرب من طرفة عين، في الأمس فقط رُفَّت
حبيبة إلى خير الدين، للَّيلِ أنفاسٌ حلوةٌ بطعم العسل ورائحة البحر في
ليالي الصيف. كانت تجلس ملفوفة بخجلها وثوبها الأحمر، يخطو إليها
على مهلٍ، يتشمم عطرها، يمسح شعرها، يطفئ السراج ليشعل قنديلها
حتى يرهقه العشق فيستسلم للنوم، ليفيق على صوت إسحاق:

- عروج سيسافر يا خير الدين.

يرتدي الثياب على عجل، يقفز الدرج، يلوم أخاه:

- لمْ أَمْ تَوْقَظْني..؟

- أشفق عروج عليك.

اعتاد أهل الجزيرة خير الدين وهو يجري هنا وهناك، يرفض السير
أو التلكؤ يعرج من حارة إلى أخرى.



في ليلة البارحة، جلست حبيبة أمامه عارية، على ضوء خافت
يللمم شعرها الأسود، يجذله في جديلة طويلة.

- أين تعلمت ذلك؟

- الرئيس لا بد أن يعرف كل شيء عن سفيتته.. وأنتِ سفيتتي.

تلفت إليه:

- أيهما تحب.. حبيبة أم البحر؟

- البحر مَرٌّ.

- وحبيبة؟

- بحر.. من العسل.



يبصر السفينة والنوتية يعملون بكد، يتوقف عند المَرَمَى ليلتقط
أنفاسه المتباعدة، يرى عروجاً كأنه يراه أول مرة، ضخّم الجسد، يميل
إلى الطول قليلاً، قوي البنية، شعره ولحيته وشاربه تميلُ إلى الحمرة،
نظراته حادة، روماني الأنف، أبيض البشرة تميل إلى السُمرة، في لون
سنابل القمح، يتعانقان.

- سيرحل إلياس معك.

يهزُّ عروج رأسه، يسترسل خير الدين:

- لو فارقك ظلك لفارقك إلياس.
- يُمثّل إلياس للبحارة نسمةً خفيفةً، يُحبونه، فكلّما ضجروا من أوامري يذهبون إليه، قال أحدهم لي يومًا:
- لولا حُلم إلياس أكبر من غضبك لتركك.
- ثم خطا بضع خطوات والتفت إليّ وأردف:
- ومع هذا أحب العمل معك، أتعرف لماذا؟.. لعدلك.
- يقترّب إلياس من أخويه مُجفّفًا عرقه بِكُمّ قميصه.
- لم أتيت يا خير الدين، أنسيت أنك عريس؟
- هل الأندلسي معكم؟
- أبحر في سفينة متجهة إلى مصر للبحث عن ابنته.
- رَبّت عروج على كتف أخيه.
- انتبه لعروسك.
- يأمر عروج برفع السقالة، تاركًا أخويه في عناق طويل، يقفز إلياس في اللحظة الأخيرة إلى السقالة ملوِّحًا لأخيه بالوداع، يقف خير الدين، يود استبقاء إلياس، ينادي بانزعاج:
- إلياس تعال..

نوتي طاعن في السن، ييازح إلياس:

- اترك له تذكارة يا ريس.

يُلقي إليه بخنجره المرصع، الذي أهدها إليه ملك مصر قنصوه الغوري، تغادر السفينة المرسى، يقعد خير الدين على صخرة حتى تغيب السفينة عن عينيه، تحرقه الشمس بحرارتها، يخطو إلى حانة (ألبرتو)، لا يجب الدخول على عروسه والقلق يسكن صدره، قلق لا يعرف كنهه، يفيق من شروده على صوت جومانة الصاخب:

- يا رجال، انظروا مَنْ عندنا.

- أسرع الرجال هربًا من عروسه.

- ربما طردته هي.

- أظن جاء لبحث عن عروس أخرى.

- إلياس وعروج سافرا.

يضرب ألبرتو كتفيه:

- وماذا في ذلك؟.. لو كنت مكانك ما غادرت حضن عروسي.

تضع جومانة أمامه طبقًا به بعض أصناف البحر هامة:

- أنت عريس وتحتاج إلى هذه الأصناف، تذكرني بوالدك، ليلة زفافه، ذهب إلى بيته قفرًا من سقف إلى سقف، القوم يلاحقونه سيرًا

على الأقدام وعند كل سقف يصيح: "أحبك يا كاتالينا"، بين قفزة وأخرى كان قلب أمك يتفجر خوفاً عليه فتناديه:

- ارجع يا مجنون.

أمسك بحبل ليقفز عبر الشارع، لحظتها قلت لنفسي سيموت يعقوب الليلة، سيموت قبل أن ينام في أحضان حبيبته التي هجر بلده واستقال من الجيش التركي ليعيش معها هنا على هذه الجزيرة، أتعرف كيف التقى بها؟ رأها مع رفيقاتها، تقدّم بزّيّه العسكري، حذق فيها، تبادلا النظرات، سألهما:

- أنتزوجيني؟

تورّدت وجتاها خجلاً، خَطَلَتْ بضع خطوات ثم توقفت والتفت:

- أنا لا أعرفك.

- سأتزوجك.

كل من في الجزيرة لم يصدق خبر زواجهما إلا أنا وألبرتو راهناً بعض الروّاد على زواج يعقوب وكاتالينا، وفُزنا بمكسبٍ جيد، طوّرنا به الحانة، أين توقفت عن الحديث.. آه تذكرت، هبط يعقوب أمام البيت، يقبل كاتالينا قبلةً طويلة؛ فعلاً الصّياح والصّفير، حملها بين ساعديه، تهشمت عشرات الزجاجات، على الباب عيون تتعجل إطفاء القنديل

الوحيد المضاء، عاد بعض الرواد إلى الحانة، مع الصباح رأيناه يدخل
علينا مُناديًا:

- البرتو.. إليّ بشراي.

ظَلَّ يرقص ويشرب، حتى هدَّه التعب، نام يومين، يقولون إنه
فارسٌ بارعٌ.. قل لي أين هو الآن..؟

- يستمتع بالشمس أمام الدُّكان.

أكل آخر قطعة في الطبق، لعق أصابعه، ثم أردف:

- طعام لذيذ.. وداعًا.

- والخمر؟

- هناك في البيت.

في سيره يلاعب الصغار، يُحيي من يعرفهم من أهل الجزيرة،
يتوقف أمام أبيه، الجالس أمام الحانوت، رأسه إلى الجدار، مغمض
العينين، نحيف الجسد لا يزال يستمتع باستقامة ظهره مع تجاوزه
الثمانين، تحدّث دون أن يلتفت إلى ابنه:

- رحلا.

إسحاق ينهمك في حديث مع أحد المُشترين، يردف يعقوب:

- متى سترحل؟

- بعد أسبوعين.

- إلى أين..؟

- مصر.

- آه صديقكما هناك، السلطان قنصوه الغوري، سمعتُ أن الأوضاع غير مستقرة.

- ومتى كانت مستقرة؟

يُغادر خير الدين مكانه، يُثرثر مع أخيه إسحاق، يستوقفهما قول الأب:

- كلكم ترحلون لتشعلوا في قلبي نارا.

يتحرك يعقوب متكئا على عصاه، أوشك خير الدين على مساعدته، استوقفه إسحاق:

- لا تحاول، أنت تعرفه.

يسير يعقوب في الشارع، تدقُّ عصاه بلاط الشارع الضيق، البيوت ترمي ظلالها على بعضها البعض، بارتفاعها الذي لا يتجاوز ثلاثة طوابق، يصلهم صوت ارتطام العصا بالأرض رتيبا، ينخفض شيئا فشيئا.

- أين سيذهب..؟

- إلى قبر كاتالينا.

كلما ألمَّ يعقوب ضيقٌ أو سخطٌ من ثرثرة النساء أو انتابه شعورٌ بالوحدة، خطاً إلى القبر، بالقرب منه توجد صخرة، يجلس عليها، يقرأ الفاتحة، ثم يسترسل في الحديث إليها، يحكي عن حزنه، أولاده يجبون البحر، كانت تجلس معه على الشاطئ، تنظر إلى البحر، الذي تنكسر أمواجه أسفل أقدامهما.

- أحلم بالسفر في سفينة، لا أرى حولي إلا زرقة البحر وعلى مرمى البصر أرى التقاء زُرقة السماء بزرقة البحر.

لا يتحرك من مكانه إلا بعد شوطٍ من الإعياء، يصل إلى البيت، يتمدد على الفراش ويغطُّ في النوم، يظن من في البيت أنه سينام ما بقي من الدهر، نصف ساعة أو ساعتين بالأكثر، يسمعون خطواته، فتقول الجارية:

- سيدتي سهيلة، السيد يعقوب استيقظ.

- أعدّي له الحمام.



(٥)

كما كانت تحلم كاتالينا، زرقة السماء تلتقي بزرقه البحر هناك على
مرمى البصر، حين تنظر من السفينة، رائحة اليود تملأ صدور البحارة،
غناؤهم غليظ الصوت، الأمواج تتهدد عليه، ينسجم الغناء مع
الأيدي الخشنة وهي تشدُّ الحبال وتُنصَّبُ الشراع، في باطن السفينة
يحركون المجاديف بقوة، يهبط إلياس إليهم، يأمر باستبدال المجدافين،
يجففون عرقهم، يشرف على توزيع الغذاء، الصخب لا ينضب ليلاً أو
نهاراً ربما يكون مصدره ثروتهم، غناءهم، شجارهم، شخيرهم.

صوت نوتي الصاري:

- سفينة ياريس

يلتفت عروج حيث أشار البحار، ينظر من المنظار المكبر، يردد في
غيظ:

- فرسان القديس.

يَحْطُّ القلق على الوجوه، يتحدث إلياس:

- يمكننا تجاوزهم والهرب منهم.

كلمات (بلانكو) الأندلسي تدوي في رأس عروج فيرد على أخيه:

- إنهم يُمارسون السلب والنهب، خاصّة سُفُنًا.

يقول أحد البحارة:

- يزعمون أن الله انتدبهم.

يمسك إلياس بذراع أخيه:

- خرجنا للتجارة.. ولم نخرج للقتال.

- أنسيت (بلانكو) الأندلسي؟ سنقاتل.

يتصايح البحارة، يستعدون للقتال، تذكّر إلياس تدريب أبيهم لهم

على القتال.

دقائق واصطدمت السفيتان، فرسان القديس يوحنا يزأرون

بجنون، يقاتلون بشراسة، يغرزون سيوفهم في صدور لَوْحَتِها الشمس

وابتَلَّتْ بعرق التعب، الأهات تنفلت كومضة خاطفة، تتساقط الأجساد

من الطرفين، صليل السيوف، يتساقط القتلى في البحر، عروج يُلقِي

بأحد الفرسان إلى المياه، أزعجتهم مهارته، حتى انطلقت صرخة يعرف

صاحبها، إلياس يتهاوى مضرّجاً في دماؤه، جُنَّ جنون عروج، يجازُ في

غليظ، سيفه يضرب كل من يقابله بقسوة، مُحاولاً الوصول إلى أخيه،
الملقى تحت الأرجل، يحتضن جسده، الدماء تسيل من فيه، ابتسامة على
وجه إلياس:

- لا تنس.

استبسل الرجال في الدفاع عن رؤسهم المصدوم.

أفاق من حزنه على قيدٍ وحبلٍ غليظ، تأمل وجه أخيه قبل أن يلقوا
به إلى قاع البحر مع باقي الجثث، قائد الفرسان، يربّت على كتف عروج.
- من أنت..؟

- عروج.. لا تنسه.. عرووج.

يتبادلان نظرات التّحدي فانحنى القائد:

- أنسى دائماً أسماء العبيد.

يحمل الجنود البضائع إلى سفينة الفرسان، يومى القائد:

- عروج.. انظر إلى سفيتك.

يكظم عروج غيظه والنار تمضغ سفيته بضروسٍ وأنيابٍ حمرء.

انصرف أندريا لإحصاء الغنائم والضيق يملأ صدره، على وجه
الأمواج تأمل أندريا ماضيه يتيمًا في شيفاء، يتساءل عن والديه، ظلّ يبكي
كثيرًا، فحَمَلَتْه جارته ذات القامة الفارعة إلى القبر.

- هنا والداك، يومًا ستذهب إليهما ولكنها لن يأتيا إليك مهما
تَبَلَّك.

.. يتأمل شاربه وهو في السابعة عشرة من عُمرِه في المرأة مُحَدِّثًا
نفسه:

"أنت الآن ابن سبعة عشر عامًا، أيّ المسارين تختار.. الوظيفة
الكنسية أم الهيمنة العسكرية".

.. أعدَّ حقيقته للرحيل، ليبدأ أولى خطواته بعيدًا عن شيف، سيرحل
إلى ابن عمه (نيكولا دوريا) في حرس البابا ليتولَّى مهام تدريبه.. والآن
بعد أن ترسو السفن على الشاطئ سيغادر العمل مع فرسان القديس
يوحنا.

قبل أن تَطَأَ قدم عروج الجزيرة وضع أندريا يد، على كتفه قائلاً:

- لا تنس اسمي أبدًا (أندريا دوريا).. السيد.

- أصبحت أسيرًا عروج مقيَّدًا بأصفاد وسلاسل تربطك مع
باقي الأسرى، بعد ظلمة باطن السفينة أيامًا، نور الشمس يُغشي
أبصارهم، يتعثرون في خطواته الأولى؛ ربما من قَلَّةِ الطعام وجرعات الماء
التي لا تبيل عروق الظمأ، وربما حُزنًا على موت إلياس، وأولئك الرجال
الذين يسكنون الآن قاع البحر، وربما همًّا لضياح رأس المال. فرسان
القديس يتبخثرون على الشاطئ بزيٍّ أحمر يتوسطه صليبٌ أبيض، جمعُ

من الأهالي ينظرون إلى الأسرى كأنهم ينظرون إلى قادمين من مكانٍ بعيدٍ
أو إلى خلقي يختلفون عنهم كثيراً، تبحث العيون عن مواطن الاختلاف،
يقرأ عروج نظرات الاندهاش والتعجب.

في ساحة القرية يعرضون الأسرى للبيع، ينظر عروج فيرى في كلِّ
صوب الفرسان متشرين في نوبات حراسة، أو فوق جيادهم هنا أو
هناك، يتأمله رجلان أحدهما قصير وبدين والآخر متوسط الطول، تدل
ملاحه على الخبث، ضيق العينين، طويل الأطراف، يواصل الرجلان
الجدال، يرى بعينه على مقربة منه (يسي) يُباع هو الآخر، لا يزال
الرجلان يتجادلان، يأمر أحدهم:

- استدر.

يَحْزُهُ الجندي، تَلَفَّت عروج في ضيق ثم استدار دورة كاملة، أخيراً
يَتَفَقَّان على شرائه، يضعونه في عربة كبهيمة، يلكز الرجل حصانه، تهتز
العربة من حفر الطريق، يلتفت الرجل إلى عبده الجديد.

- سنصل إلى داري قبل غروب الشمس.

خَفَّف وطأة الحزن على عروج، سير العربة بمحاذاة الشاطئ،
البيوت متناثرة وسط الحقول، ينظر إليها بعض المزارعين يشير واحدٌ
منهم.

- جورج البدين..

ينادي آخر:

- عبدُ جديدُ يا جورج.

يومئ برأسه إيجاباً، يلتفت إلى عروج وصوت ارتطام عجلات
العربة بالأرض.

- من أين..؟

- ميلدي.

- ما اسمك؟

- عروج.

يتوقف الحصان أمام دار يحيط بها سياجٌ خشبيٌّ، حظيرة لتربية
الخنازير، أخرى بها بعض الماشية، كوخ خاص لتخزين الغلال بالقرب
من البيت، كومة من القش، يقفز عروج ويسير خلف سيده، يدفع
جورج الباب، تفزع زوجه لرؤية عروج، بجسدها النحيل وشعرها
الأصفر المبعثر على رأسها، ترتدي ثوباً منزلياً من القماش بلون أزرق
باهت.

- عبد مرة أخرى يا جورج، تجارة العبيد تفلح هناك في باريس،
روما، لندن، غرناطة ولكن هنا تنفق في تسمينه وتربيته أكثر من ثمن
بيعه.

- إنه رئيس سفينة يا حبيبتني.

تقاطعه، وهي تضع الطعام أمامه بعنفٍ على منضدة خشبية:

- حتى ولو كان ملكًا، في النهاية عبد لن يساوي إلا بضع عملاتٍ رخيصة.

يوصل حديثه مع عروج، وهو يدفع الطعام بملعقة خشبية إلى فمه:

- مسيحي أم يهودي أم مسلم؟

- مسلم.

يزدرد الطعام قائلاً:

- الشكر للرب، ستوفر علينا ثمن الخمر، فالعبيد يسرقون النبيذ.

ترمقه زوجه بنظرة كلها غيظ، قائلة:

- ولن يأكل لحم الخنزير، متزوج؟

- قبل أن أنام أدعو الله النجاة من البحر والنار والنساء.

يهبط خلف سيّده إلى البدروم وخلفهما سُبَاب الزوجة، تقابله رائحة عطنة، القش في كل صوبٍ، يفتح جورج إحدى الغرف، يضيء سراجًا صغيرًا، يدلّف عروج خلفه.



يأتي الصباح كما جاء طوال الأسبوع الماضي، ساعد السيدة في نظافة البيت وإطعام حيواناتها ثم يخرج مع سيده إلى الحانة القريبة من الشاطئ، يفك جورج السلسلة مكتفياً بقيد اليدين.

- لا تبعد عن عيني يا عروج.

يثرثر جورج وجسده البدين يتحرك مع كلماته مع صاحب الحانة (سانتري)، يجري عروج ذهاباً وعودة عددًا من المرات، يلتقط أنفاسه حتى تهدأ، يخطو إلى سيده، يقدم سانتري قدحًا، قائلاً:

- ألا تشرب الخمر مثل سيدك؟

يهز عروج رأسه نفيًا، أردف سانتري:

- أخاف من زوجته أيضًا؟

- نحن لا نشرب الخمر.

يتوقف سانتري عن الحركة، ثم يضحك وينظر إلى جورج.

- آه فهمت..

يزعق جورج:

- كُفَّ عن الثرثرة مع العبيد، يا سانتري.

في هذا الصباح تركه جورج البدين يروح ويأتي كيفما يشاء، حتى ذهب إلى الحانة وحده.

فسأله سانتري:

- أين سيدك...؟

- لا أعرف.

أيقن عروج أن جورج لم يتركه هكذا هباءً؛ فالفرسان يحيطون
بالمكان كأنه ثكنة عسكرية. يسأل عما أضحك سانتري في المرة السابقة
وأثار سخط جورج؛ فأجاب سانتري:

- أنت مسلم والسلطان زادة قرقود والي أنطاليا مسلم وهو يرسل
كل بضعة شهور سفينة لشراء بعض أسرى المسلمين وعلى هذا الأمل
يتم بك جورج ويحافظ عليك حتى يبيعك بسعر مرتفع وهو يخشى على
نفسه الحسد، أنت ثروة إلى حين.

تحدّث عروج لنفسه:

"ماذا لو عرف جورج وشريكه أن السفينة التي نُهبَت، كانت في
طريقها إلى والي أنطاليا وأُني أحد البحارة المقرين إلى السلطان سيرفع
الثمن إلى السماء..."

في ظلمة الليل الذي يأتي بطيئًا هذه الأيام، استلقى عروج على
ظهره يبتهل إلى الله: "أدعوك يا ربي، بحق كُربتني أن تحرّرني من عبودي
لألقى فرسان القديس يوحنا وفي يديّ سيف".

يكرر الدعاء مرات ومرات حتى تغرورق عيناه بالدموع وينحبس

صوته... بين اليقظة والنوم، يُبصر قنديلًا مُسلَّطًا على وجهه، يتصنع النوم وصوت جورج خافت.

- رأيته يا ألفرد إنه بخير، حتمًا سيدفع قرقود فيه الكثير.

- سمعت أن هناك سفينة ستغادر أنطاليا إلى جزيرتنا في الشهر المقبل..

- لا ضيرَ من الانتظار شهرًا أو شهرين.

صرير الباب، صوت المزلاج.

(٦)

بيدين نحيفتين، يمسح يعقوب شاهد القبر، يتحسّس الحروف بأصابعه هامسا "كا.. تا.. ليا.. نا.."; كأنه يتلمّس جسدها، يقعد على الحجر.

- آه يا (كاتالينا)، سهية! تنجب إلى الآن، ألححتُ على إسحاق أن يتزوج فأبى.. إنه الحب، كان يقول إنها زوجته وابنته.. ابنك الأكبر عروج يأبى الزواج، يرّدّ بين الحين والحين "لا آمن النساء ولا البحر"، لا أدري لماذا؟ إلياس لا يفارق أخاه الأكبر من مصر إلى الشام.. أنطاليا.. المغرب.. تونس.. الجزائر.. فرنسا.. إيبريا، ورثوا عنك عشق البحر أما صغيرك خير الدين -آه، خضير كما كنت تحبين مناداته- تعلّم سبع لغات، زوجه توشك أن تضع مولودها الأول وهو في قلب البحر.. تطاردني الكوايس منذ شهور.. نعم.. نعم، القلق هذه المرة على عروج، مولودنا الأول، رأيتك في حلم الأمس تحتضنين إلياس

وتحذرين عروجًا من الاقتراب، بصوت يهדר من الفزع حتى يفصل
بينكما الضباب، ليتك تخبريني..

الأعواد الجافة تتكسر تحت قدمي شخص واقف خلفه، يلتفت
ليرى ذلك الشاب الذي يميل إلى الطول، أحمر اللحية، أشقر الشعر،
ميّال إلى الحمرة، عيناه كستنائيتان تميلان إلى صفرة، ناريتا النظرات،
حاجباه ورموشه طويلة وكثّة.. يفتح يعقوب ذراعيه.

- خضير..

ينحني خير الدين لعناق والده، الذي عجز عن القيام، أول مرة
يبدو على الشيخ عمره الحقيقي، بل أضعاف عمره.

- بخير يا أبي.

يساعد والده على الوقوف.

- تأملتك كأنني أول مرة أراك، تشبهها كثيرًا، أنت وعروج.

يسيران صوب البيت، يتكئ الشيخ على يد خير الدين.

- قسمة عدل، إلياس وإسحاق يشبهانك، وأنا وعروج نشبه

(كاتالينا).

- اخرس.. لا تقل (كاتالينا)، قلّ أمي، أنا الوحيد في هذا العالم

الذي من حقّه قول (كاتالينا).

- أتعلم؟ عروج لم يرجع إلى الآن.. تعبت يا خضير، كان عروج يطوف البحر منذ كان في السادسة عشرة من عُمره حتى يثست من سكونه إلى الأرض ثم يثست من زواجه؛ فاصطحب معه إلياس وهأتذا تستقل عنهما وتاجر وحدك.. كأن البحر أبوكم ولست أنا.. لو كانت (كاتالينا) على قيد الحياة لأجبرتكم على البقاء كما أجبرتني على ترك السيف والانكسارية.

يتوقفان عن السير.

- سأذهب إلى البرتو..

قالها الأب ثم افترق عن ابنه، وصوت العصا يخفت تدريجيًا.

عند باب البيت يتعانق إسحاق وخير الدين، يساعد أخاه في غلق حانوت الخزف، الذي اشتره يعقوب ليعيش بجوار تلك الحبيبة البيضاء بشعرها الوهاج، الذي سلبه لُبّه، فعاش عاشقًا وَلَهَا، وكلما ألحَّ على عروج في البقاء في البيت ضرب صدره قائلًا: "البيت للنساء"، يدلف الاثنان إلى البيت، تقبله سُهيلة.

- حمدًا لله على سلامتك.

تكرّزه في جنبه وتسترسل:

- اصعد لزوجك حتى أُعِدَّ لك الطعام.

يصعد الدرج بخفة ورشاقة، يدلف الحجرة يتمدد إلى جوارها في حذر، تتقلب حبيبة في نومها، فزعت من الجسد الممدد بجوارها ثم

ابتهجت لرؤيته، غائب منذ سبعة أشهر عن عينيها، بشوق العشق
تواصل من قطرة قطرة إلى سيول لا تتوقف، ثم استسلم للنوم.



بعد انصرام ثلثي الليل بقليل، جومانة تكنس أرضية الحانة الخاوية
مثل ميناء الجزيرة، (ألبرتو) يدندن مع نفسه وهو يرصُّ الأقداح
وزجاجات الخمر في أماكنها، الوحيد الجالس في وسط الحانة كان
يعقوب لائذا بالصمت، تداعبه جومانة.

- يعقوب، ستنام معي الليلة.

- وألبرتو.

- سينام تحت السرير.

- لا، دعيه يكنس الحانة بدلاً عنك.

ترك المقشة لألبرتو وتوجه إلى يعقوب، تجلس أمامه.

- مالك هذه الأيام.. تأتي وتظل ساكتاً، أقلقتنا.

- تسعة أشهر.

- اشكر الرب، اليوم عاد خضير، ربما مع الصباح يأتيان.

- لا أظن، إنها ولدائي، أحس بهما حتى ولو كانا على الطرف الآخر
من الأرض.

يربت ألبرتو على كتفه.

- يا عجوز، لا تقلق، حتّى سيعودان.

يدخل ثلاثة رجال، يتوسطهم شاب هزيل تعرفه جومانة.

- (يسي).

انتفض يعقوب من حزنه مُرَدِّدًا:

- (يسي)

يرصُّ (ألبرتو) وجومانة مقاعد للقادمين، لم يجرؤ (يسي) على النظر لوجه ذلك الشيخ.

- أين ولدادي يا (يسي)؟

- ... في جزيرة فرسان القديس يوحنا أخبرتهم أنني مسيحي، زعمت ذلك، مُستعينًا بصليب مُعلّق في رقبتى، أهدته لي غانية من غواني مرسيليا واستحدثتني ألا أخلعه؛ فأطلقوا سراحي بعد سبعة أشهر بشرط ألا أعمل مع المهرطقين مرة أخرى؛ فوافقت.

أرسلت جومانة إلى بيت يعقوب، الكل صامت، جاء إسحاق وخير الدين، بكى يعقوب لحظة دخولهما، نادرًا ما يبكي، بكى يوم وفاة (كاتالينا). لم يخرج من الحزن إلا هذه المرأة، التي أصرّت على أن ترقص معه وصقّ كل من في الحانة، كان راقصًا بارعًا. والآن يبكي، يتحدّث (يسي) دون أن يرفع بصره عن المنضدة. الحزن يرمي ظلاله على الوجوه، توكأ يعقوب على ولديه، أمسى البيت بعيدًا والأقدام مهدودة، ساد

الحزن وعششت أطيّاره في الأركان لأيام، انتفضت على صراخ حبيبة
ونداء سهيلة من الشرفة.

- إسحاق، أحضر القابلة.

قطرات الخوف تشمل مَنْ في البيت، هاجس شغل رأس خير
الدين:

- "أبغتمل هذا الشيخ صدمة ثالثة..؟ موت إلياس.. أسر عروج
و..".

ينفض الهواجس من رأسه على صراخ الوليد القادم، يسرع إلى
الطابق الثاني، تطل سهيلة مُبَشِّرَةً للجد.

- ولد.. ولد.. يا شيخ يعقوب، أصبحت جدًّا.

تكلم إسحاق:

- حسن.. حسن خير الدين يعقوب.

كفكف يعقوب دموعه:

- ربِّي يأخذ نفسًا ويأتيني بأخرى.. سأنتظر كما عند الدُّكان.

عند الدُّكان تكلم يعقوب:

- البكاء لن يُقدِّم أو يُؤخِّر.. كيف ننقذ عروجًا من الأسر؟

- الفدية.

قالها إسحاق، ردَّ خير الدين:

- سنييع كل شيء ليعود.

أجاب الأب على قول خير الدين:

- التريث يا خضير، في هذه الجزيرة يعيش رجل من أصل رودسي،
اذهب إليه، اسمه لويس الرودسي.

يتدخل إسحاق:

- أتقصد أن نعطيه القدية ليأتي بعروج؟

يواصل الأب الحديث:

- ستبحر معه يا خضير.

في الليل، بعد ما شاهدوا الوليد في حجرة حبيبة، غادر إسحاق
وخير الدين الشارع بأكمله إلى بيت لويس الرودسي، يطرق إسحاق
الباب، جاءهم صوت الرجل مُتسائلاً فأجاب إسحاق:

- إسحاق بن يعقوب.

يوارب الرجل الباب حاملاً قنديلاً في يده.

- ماذا تريد...؟

تأملهما على ضوء القنديل، زرَّ عينيه قائلاً:

- لا بدَّ أنكما أخوا الرئيس عروج.

لم ينسَ يعقوب التحدُّث مع (يسي) وألبرتو عن الشخص الأمين
الذي يستطيع الدخول إلى الجزيرة دون أن يُشير الشك أو يقلق منه

الناس؛ فأشار ألبرتو على لويس الرودسي من أهل جزيرة فرسان
القديس يوحنا، أسرعت جومانة بصحبة زوجها في الحديث مع لويس
وأن أحد الأخوين سيزوره الليلة أو في الغد، بالفعل جاءه الأخوان وها
هُما يجلسان في صحن داره. القنديل يسكب ضوءاً مُتراقصاً على لويس،
بدين الجسد، ضيق العينين، في العقد الخامس من العمر، يقدم لهما طبقاً
من الخوص به بعض ثمار الفاكهة قائلاً:

- تحدثت مع ألبرتو و(يسي).

- كم ستكون الفدية؟

هذا ما قاله إسحاق واستكمل خير الدين حديث أخيه، يصمت
لويس مفكراً:

- لن تقل بأي حالٍ من الأحوال عن ألف أقة ذهبية.

- سنبحرُ بعد ثلاثة أيام.

هذا ما قاله خير الدين. غادرا البيت وخير الدين يستكمل حديثه:

- معي ما يقرب من خمسمائة أقة ذهبية

- أظن أننا نستطيع جمع الباقي دون الحاجة إلى بيع البيت أو
الدكان.

- المشكلة ستكون قائمة، إذا زادت الدية عن ألف.

- إذن نضع في حسابنا ألفاً آخر.

- سنقتصر جزءاً.

يرجع إسحاق إلى الدند يطمئن قلبه على ما جرى، بينما أنجه خير الدين إلى حانة ألبرتو؛ ليشكره على مساعدته، ما كاد يدلف من الحانة حتى هرعت جومانة إليه.



- تعال معي.

يصعدان إلى الطابق العلوي.

جاء كثيراً إلى الحانة، منذ رحيل والدته وهو ابن خمس سنوات، يأتي إلى هنا بصحبة أبيه ثم بصحبة عروج ثم جاء يافعاً ليتشاجر مع المخمورين من البحارة، تحطمت عشرات المناضد تهشمت عشرات الزجاجات، كلما عاد عروج من رحلته، يحضر هديةً لألبرتو وجومانة، اليوم الوحيد الذي تعج الحانة بالرواد؛ يوم الاحتفال بعيد زواج ألبرتو وجومانة، يعلقان لافتة "المشروبات بنصف الثمن حتى الصباح". الزينات أمام الحانة، الموسيقى الصاخبة، تمتزج بالضحك وصرخات الابتهاج، بعد منتصف الليل، تُقبل جومانة ألبرتو قبلة واحدة، سأل أحد البحارة:

- لم قبلة واحدة؟

تجيب جومانة، وتنظر عشقاً لألبرتو:

- ألبرتو حبي الوحيد.

يبدأ الصخب، تُغني جومانة، وأحيانًا تأتي بمغنية عذبة الصوت، مع كل هذا لم يفكر خضير في الصعود إلى الطابق العلوي. تشاجرت جومانة مع أحد البحارة الإيطاليين؛ حين أصر على اصطحاب عشيقته إلى الطابق العلوي وهدد الرّوَّاد، تقدمت جومانة ووقفت على أول الدرج، ومدّت يديها بجوارها قائلة:

- اطعني في صدري ثم اصعد.

زجر الرجل، رفع يده ليطعنها، فوجد الرّوَّاد يتساقطون عليه من كل جانب، انهالوا عليه ضربًا وألقوا به خارج الحانة، كادت الليلة تمر بفرحتهم، فإذا بالإيطالي يعود غمورًا يضرب بسيفه يمينًا ويسارًا، قبل أن يصل إلى جومانة، رُشِقَ خنجرٌ في ظهره، سقط الرجل بجوار جومانة، التي شحب وجهها خوفًا، تأملت وجه عروج الواقف في منتصف الحانة، عيناه تتصفحان الوجوه:

- من أين جاء هذا الخنجر؟

أجاب أحد البحارة:

- هذا الرجل قُتِلَ على الشاطئ يا ريس.. هيّا يا رجال سنذهب به إلى هناك.

مدَّ عروج يده لجومانة، التي تسمرت في مكانها، همست في أذن عروج:

- أشكرك.. أشكرك.

يواصل البحارة صخبهم ورقصهم، ألبرتو يصبُّ الخمر في
الأقداح، استغرقت جومانة وقتًا لتعود لهدوئها، قدَّم ألبرتو قدحًا من
البيرة.

- تفضِّل بيرة يا ريس.

أوشك أن يرفض فأردف ألبرتو:

- بصحة جومانة.

حدَّر عروج ألبرتو قائلاً:

- هذه المرة الأولى والأخيرة.

- لم ترفض شرب الخمر؟

- لأنها تُغيِّب عقلي.

يد تنقر على كتف عروج، يلتفت ليرى الخنجر في يد (يسي).

- الأسماك "تشكرك" على العشاء يا ريس.. خنجرك.



يسير خير الدين الآن في ردهة تتوسط حجرتين عن اليمين
وحجرتين عن الشمال، يدلف خلفها أول حجرة على اليسار، من
سَحَّارة مُرْصَّعة بالصدف تُخْرِج صندوقًا صغيرًا مُزَيَّنًا بزخارف فضية.

- هذه خمسة وعشرون، كل ما نملك أنا وألبرتو.

- لكن.

- يا خضير، عروج ساعدنا مِرَازًا، لتبقى الحانة مفتوحة أمام الزبائن.

تطبع قبلة سريعة على خد خير الدين.

- سيعود عروج وسأرقص معه، أراهنك على كل ما أملك،
يحتضنها عمتًا، تضرب صدره:

- آه لو رأيك ألبرتو

عرفت جومانة أن الأيام الثلاثة مرت بخير وهي ترقب من نافذتها
خير الدين ولويس يستقلان سفينة سترسو في جزيرة بودرم بعد أيام
قليل، اتفق لويس أن ينتظره خير الدين هناك؛ حتى يفرغ من مهمته
التي يقوم بها مقابل عشرين أقبجة، ستدفع دفعة واحدة بعد عودة
عروج.

(٧)

يتساءل الرودسي وهو يسير تحت شمس الظهيرة في جزيرة رودس.

"هل يتذكرني أحد؟"

غادر الجزيرة منذ ثلاثة وعشرين عامًا، في أوائل هذه السنوات كان يأتي كل عام ثم كل عامين ثم تكاسل عن الزيارة منذ... منذ عشر سنوات يسأل نفسه سؤالاً آخر:

"ماذا أتى بك بعد كل هذه السنين..؟"

يسير في طرقات الجزيرة، حتى يصل إلى داره القديمة مُتمنياً أن يتذكره صديقه، الذي استأجرها منه | يقرع الباب، صديقه ازداد وزنه مثله وتساقط معظم شعر رأسه، تعانقا:

- جئت لتحصد إيجار الدار بعد كل هذه السنوات.

- لا تنسَ، أنت دفعت مُقدِّم عشر سنوات كاملة.

- ستحدث بعد الغداء.

الغداء: حمام ولحم وأرز وأحد أنواع الخضار لم يستلذه لويس وأثر الأرز والحمام، يربت لويس على بطنه:

- حان وقت الخمر يا صديقي، بهذه الوجبة ومع خمرك المعتق سأتنازل عن إيجار عام كامل.

ظنَّ الرجل أن لويس مات فأنفق كل ما ادخره للإيجار وإذا به يعود، قدَّم الخمر ورأسه يدور، قال لويس:

- لا تقلق يا صديقي بشأن الإيجار، سأتنازل عن نصفه مقابل الخدمة التي تسديها لي، أما النصف الآخر سأتي في العام القادم لأخذ منك ما تستطيع دفعه.

بعد الكأس الرابعة، حكى لويس قصة عروج وأنه يريد معرفة مكانه؛ فأجاب الصديق:

- أمهلني بعض الوقت.

يتمدد لويس:

- لن أغادر الجزيرة إلا ومعني خبرٌ أكيد.

في غضون الأسبوع نجح الصديق في معرفة المكان، عاد إلى لويس بالخبر اليقين، سارداً عليه قصة وصوله إلى الجزيرة، لكن الصديق لم يتخذ الحيطة وهو يللمم الأخبار، مع تبشير الفجر كان لويس ينتظر

عروج عند الصخرة الناتئة على الشاطئ، التي يذهب إليها مُمارسًا الجري بالأغلال ثم يؤوب إلى مقهى سانتري، توجس عروج خيفةً، اقترب لويس:

- ألا تذكرني يا ريس؟ أنا لويس الرودسي، خضير في جزيرة بدروم ومعهُ الفدية.

حدجه عروج:

- اعذرنِي، لا أتذكرك.

التفت مغادرًا المكان.

- ولا تعرف هذا.

أدار رأسه ليرى الخنجر المُرَّصع، الذي أهده إلباس إلى خضير، تحرك صوب لويس قائلاً:

- أخشى أن يبالغوا في الفدية.

ابتسم لويس، ربَّت على كتف عروج:

- أنا تاجر.. لا تقلق.. وداعًا حتى لا يلحظ أحدُ شيئًا.

يُعطي عُرُوجًا الخنجرَ، الذي يخفيه بين ثيابه، يودعه لويس، يقعد عروج على الصخرة..

- "أيًا كانت هذه الفدية سترهق العائلة، وماذا عن الرجال

المأسورين معي في الجزيرة والأيتام الذين يعيشون هناك في جزيرة ميلدي، والبضاعة التي استولى عليها فرسان القديس...".

- لا، لن ندفع أقجة ذهبية واحدة لهؤلاء اللصوص، يكفي ما نهبوه من سفيتي.

يخرج من شروده على سياط أشعة الشمس تحرق جلده العاري من القميص المحترق، يخطو إلى مقهى سانتري، الذي حيَّاهُ مُبتسماً، يرتشف عروج رشفة من الشراب الساخن، همس:

- ما رأيك يا سانتري أن تشتريني؟

حدجه مستنكراً، أردف عروج:

- تشتريني ثم تبيعني وتربح من ذلك الكثير.

يقعد سانتري بجواره، ينسج من لحظات التفكير بساطاً أوشك عروج من طوله على اليأس، تنفجر شفتا سانتري عن ابتسامة الموافقة.. بعد الغروب بلحظات طرق سانتري دار جورج، فيفتح له رجل آخر.

- أين السيد جورج؟

- بالداخل، أنا شريكه مالديني، تفضّل.

في الداخل كان جورج وزوجه يجلسان إلى المنضدة، ينضم إليهما بعد تحيَّتهما، تحدث سانتري:

- أريد عروجا.
- يتدخل مالديني:
- كم ستدفع؟
- خمسا وعشرين أقة ذهبية.
- إذا هو يستحق خمسين أو مائة.
- ربا يستحق ولكني لا أملك إلا خمسا وعشرين.
- هناك من يملك.
- سادف ثلاثين.
- لا، يا سيد سانتري.
- نظر سانتري إلى جورج، الذي نكس هامته على الفور.
- طاب مساؤكم.
- ينفجر جورج:
- لماذا لم توافق..!
- أنا شريكك ولي الحق في الرفض أو القبول، إذا لم يعجبك تدخلني سادف لك ما دفعته على الفور.
- انفجرت زوج جورج:

- نعم.. نعم.. ماذا قُلْتَ؟ ومصاريف الشهور الماضية من طعام و ثياب و شراب.

كزَّ مالديني على أسنانه.

- اسمعي يا امرأة، أنا أعرفك جيّدًا، هذا العبد لم يكلفك حتى أقجة واحدة، أعلم تمامًا أنك استنزفته في الأعمال المنزلية، انظر إليها يا جورج، لقد ازدادت سمته منذ قدوم هذا العبد.

- كم ستدفع؟

قالها جورج.

- عشرين.

قالت زوجة جورج:

- لا، ثلاثين وإلا لن نبيع.

- موافق.

أخرج مالديني الثلاثين أقجة من خرجه الذي يسير به طوال النهار على ظهره وأخرج عقد بيع، غمس الريشة في المحبرة، ومدّها إلى جورج.

- وقّع هنا.

تُخَيِّ زوج جورج العملات الذهبية بهوسي.

- كان الرب في عونك يا سيدتي؛ فمن الصباح ستعودين للكنس
والمسح.

ودّت في سريرتها أن تقذفهم بأيّ شيء، بالفعل في الصباح ستعود
للأعمال المنزلية، أما الآن فستشاجر مع زوجها حول طرائق استثمار
المال ومبررات شراء الجوارى والعبيد، وضرورة انتهاز الفرص بقلب
من حديد.

يهبط مالديني بعروج إلى حجرة طينية الأرض، عطنة الرائحة،
صوت المزلاج يومض في عالم السكون، صرير الباب وصوت المزلاج
يعلنان رحيل مالديني، تعتاد عينا عروج الظلمة، يستلقي على ظهره، فأر
يسير على ساقه العارية، فيدفعه بعيداً، يرتفع صرير الفأر، يتربص عروج
به، يصطاده ثم يطلقه ويصطاده ثم يطلقه، ثم يغفو بضع ساعات،
يستيقظ على صوت مالديني، من خصاص الشباك يتسلل ضوء باهت.

- ألم يصل إلى الجزيرة رسولٌ من أخيك.

- الرسول لا يأتي للأسير إلا لأمرٍ واحد.

- الفدية.. دعنا ننتظر أخاك.. هذا إفطارك.

تتلاعب برأس عروج ظنون.. كيف عرف مالديني؟ فهم الآن لماذا
دفع فيه ثلاثين أقة؟ ولماذا رفض عرض سانتري؟ من الواشي؟
سانتري أم لويس أم شخص آخر، تكوّم عروج وسط أحجار حزن

وغم، تؤنس وحدته فثران وجنادب وأنفاس السكون، ارتطام الموج بالصخور، يخرج مرتين من قبوه لقضاء حاجته، عينا مالديني لا تفارقانه، فكّر كثيرًا في ضرب مالديني والفرار، فتساءل: إلى أين؟ مالديني نائم طوال النهار، يتحرك قبل غروب الشمس، يرهف السمع لخطواته في البيت، صوت الباب وهو يُغلق أو يُفتح، يأتي بغانية وأحيانًا يرجع والخمر تلعب برأسه، في هذه الليلة، فتح باب القبو.

- السلطان زادة قرقود أرسل سفينة لشراء بعض الأسرى..

في هذه اللحظة يتحدث ربّان السفينة مع قبطان أول الجزيرة.. تُرى كم سيكون ثمن العبد؟

....-

- لن يزيد عن خمسين وأنت بحالك هذا لن تزيد عن خمس وعشرين، أترضى خسارتي؟.. لن أبيعك، ستبقى معي حتى أسترّد أضعاف ما دفعته فيك.. سأرحل الآن لأعرف ما توصل إليه الطرفان، لا تقلق سأخبرك.

يحمد عروج ربه، أن الظلام ابتلع علامات الغيظ، ألقى مالديني مئات الأغصان الشائكة من شجرة القلق، متناثرة على أرضية الحجرة تحز جسد عروج كلما تحرك، صرير الباب ينبعث من جديد، مالديني يقف أمامه في الظلام.

- اتَّفَق الطرفان على إعتاق أربعين أسيرًا، سترحل معهم الليلة إلى سواحل أنطاليا، لتشم رائحة الحرية ثم ترسل لأخيك أنني لن أتنازل عن ألف أفضة ذهبية أو ترجع إلى هذه الحجرة مقيّدًا بالأغلال.

- إذا سأرحل مجددًا.

يهز رأسه بالإيجاب.

على ضوء المشاعل يسير عروج بحذرٍ على السقالة الممتدة من الشاطئ إلى السفينة، على ضوء قنديل يلمح عروج شرخًا في قيد قدمه اليسرى، يدفع حارس الأسرى مرددًا بين لحظة وأخرى:

- هيا.. هيا..

يزعق أحد البحارة في المجدفين:

- جدّفوا.

يقعد عروج خلف مجدافه، يحصّهم البحار، يُغْنّي المجدفون وقطرات العرق تغوص في جوف الظلام، صوت ريس السفينة:

- بدّلوا المجدفين.

يصعدون إلى حجرتين، تتمدد الأجساد على الأرض من فرط التعب، يثق عروج أنهم غَطُّوا في نومهم، يتحسس الشرخ، يحركه بيديه في اتجاهين متضادين، يغلبه الإعياء، فيستسلم للنوم، يوقظه البحار.

- الطعام.. الطعام.

يهبط إلى قاع السفينة في حذر، يتحسس القيد المكسور، صوت
البحار:

- أمسك المجذاف جيدًا.. جُدُّفوا.

يوزع الطاهي.. عليهم وجبة أخرى في منتصف النهار، يأتي البحار
بعد وقت ثقيل.

- نوبتك انتهت.

يحمد الله أن سرواله الفضفاض يوارى القيد، يغفو، تدهمه كوابيس
انكشاف أمره، جاءت النوبات وذهبت عددًا من المرات ولا يشغل بال
عروج إلا القيد.

يفتح عينيه، الظلام دامس، غطيظ النائمون يؤنس حديثه، صوت
مجدف عجوز.

- غداً بعد منتصف النهار بقليل ستهب عاصفة، أشم أنفاسها من
الآن.

يجيب أحد النائمين، وهو يتقلب من اليمين إلى اليسار:

- أدعو الرب أن نصل أنطاليا قبل هبوب العاصفة.

فأجاب العجوز:

- لو أعرف أين نحن لأخبرتكم.

صوت البحار:

- حانت نوبتكم.

انكسر القيد تمامًا، يخشى أن ينكشف أمره في لحظة سهو، يعتدل في الطابور الهابط إلى باطن السفينة، يخرج الفريق الآخر، ما كاد يجلس خلف مجدافه حتى سمع صوت أقدام تهبط إليهم، يتحدث الرئيس:

- عليكم أن تصلوا إلى الشاطئ قبل العاصفة.

تقسو السواعد على المجاديف، بدأت أصابع العاصفة تبعث بالسفينة، يطلُّ عليهم الرئيس مرة أخرى صارخًا:

- جدفوا بكل قوتكم.. أحضروا الآخرين.

يتضاعف عدد المجدفين، أمست السفينة كقطعة خشبية يلهو بها الموج، يضربهم البحار سوطًا تلو آخر ولا يمل:

- جدفوا.. جدفوا.. اقترينا من الشاطئ.

ألهمت جملة الأخيرة حماس المجدفين؛ فالشاطئ يعني الراحة حينًا من الزمن، بعض عروج شفته السفلى من أثر ضربة سوط، الدماء يجرقها ملح العرق، يزوم كاظمًا غيظه، يهبط أحد فرسان القديس يوحنا، يتحدث مع البحار.

- المجدفون عبيد، سيرجعون مع باقي الثمن.

- رسونا يا ريس.

- أخرجوا الأسرى.

- العاصفة تشتد.

- أخرجوهم قبل أن يموتوا.

أخرج الرئيس كل الأسرى وسلّمهم إلى رئيس الحرس المكلف
باستلامهم، وقبض من رئيس الحرس أجر رجاله وصاح بهم:
- إلى الحانات.

سهام التعب أصابت وعي المجدفين؛ فاستغرقوا في نوم عميق.
يغمض عروج عينيه قليلاً، أزيز الخشب يعلو وينخفض من وطء
الخطوات، السفينة تتأرجح.

لا يعرف كم من الوقت غفا، لا يزال الآخرون يغطّون في نومهم،
يتحسّس تورم يديه، يفك القيد عن قدمه اليسرى، يمسكه في يده بحذر،
يخرج رأسه، سطح السفينة خالٍ إلا من المياه التي يقذفها البحر ثم
يستردها، يختبئ خلف أعمدة السواري ثم خلف كومة الجبال،
بخطوتين كبيرتين يقترب من السياج، الشاطئ لا يزال بعيداً على مُقَيّد
مثله، يقفز إلى حضن البحر، يغطس هرباً من هدير العاصفة ثم يخرج
لاستنشاق الهواء، الملح يشعل الألم في الجروح، يحاول لمس القاع بإبهام

قدميه، يسبح نحو الشاطئ، كلما دفعته موجة إلى الشاطئ، سحبته
أخرى إلى البحر فيضطر للغوص ثم الخروج لاستنشاق الهواء، بين المد
والجزر ضاعت قوى عروج، يدعو الله أن يصل إلى البر، ذلك الكائن
الغائب عن عينيه، أخيراً يلمس بإبهامه القاع الصخري، ترتجف ساقاه.

تدفعه موجة إلى الشاطئ، يتماسك حتى لا يجذبه الجزر إلى البحر
مرة أخرى، يزحف على يديه وقدميه مقاوماً خوفه، أخيراً يجلس في
مأمن على الشاطئ غير مصدق، يلتقط أنفاسه، يحفف وجهه، يصغي
لهدير الموج الصاخب، تهدأ أنفاسه رويداً، يتسم ويدندن:

- .. يا أنطاليا.. يا أنطاليا..

هدير الموج طاع، يسير في محاذاة المرفأ قدر المستطاع متجنباً سفيته
التي أمست على بُعْدٍ أمتارٍ، على شاطئها فرسان القديس يوحنا يتأملون
غضب البحر من مسافة آمنة خشية فرار المجدفين، يغوص في عمق
الشاطئ مُستترًا عن العيون، على مرمى البصر يبصر نقطة ضوء، يقترب
صوبها في حذر، كوخ مختفٍ بين أصابع الليل، يدفع النافذة في حذر،
يتحسس خنجر إلباس المربوط حول خصره، يجول ببصره فلا يرى
أحدًا، جروحه تنبض بالألم، يدفع بنفسه إلى الداخل، يعتدل واقفاً، قبل
أن يستلَّ خنجره، يحس بنصل سيفٍ فوق رقبتة، يسرع في الكلام:

- مسلم هارب من سفينة فرسان القديس يوحنا.

- أحد المجدفين؟

- نعم.

يستدير فيجد عجوزًا وشابًا، يدلّفان إلى الداخل، يواصل عروج حديثه:

- أخبرني أيها الشاب عن الطريق المؤدّي لأقرب قرية.

- أنظن أنهم سيتركونك؟

قالت العجوز؛ فأجابها عروج:

- العاصفة.

ابتسم الشاب.

- وكذلك قيودك.. أولاً جفف نفسك ثم استبدل ثيابك وبعدها تناول طعامًا وشرابًا دافئًا.. ثم نكسر قيودك لتستطيع مواصلة الهرب.

يلقي إليه الشاب بمنشفة، تخرج العجوز، يستبدل عروج الثياب، يرتشف قليلاً من شرابٍ ساخن، الشاب يراقب النافذة، خشية قدوم فرسان القديس يوحنا في أية لحظة، يحدثه عروج:

- لن يكتشفوا أمري الآن.

تدخل العجوز وعروج يمضغ الطعام، خلفها رجلان، تحدّث أحدهما:

- لا تقلق، افرغ من طعامك أولاً.

يسط يديه في تردد فوق المنضدة، محدقًا في عيني حامل البلطة.

- أهذه أول مرة؟

- لن تكون الأخيرة.

بثلاث ضربات متتالية يفتح باب الحرية، بينما يرتشف قدحًا آخر يقص عليهم قصته مُخفياً علاقته بالسلطان يتحدث أحد الرجلين للشاب:

- اذهب بالأصفاد إلى الحداد.

يتحدث حامل البلطة:

- ادفني الثياب، (ثم يحدث الشاب): أنا سأتي معك.. هيا الوقت من ذهب.

يصافح عروج حامل البلطة والعجوز والرجل الآخر، في الخارج يرى جوادين، ينطلق مع الرفيق، نسائم الفجر تهب بلون ومذاق جديدين.



(٨)

يمسح خير الدين على رأس والده الممدد على الفراش، يردد
يعقوب:

- عروج.. عروج.. عروج..

يغيب يعقوب عن الوعي، ثم يفيق، ينظر حوله، يسأل:

- أين عروج..؟ أين إلياس..؟ (كاتالينا).

تنسحب حبيبة وراء سهيلة، بينما يدلف الطبيب، يتفحص الأب
لدقائق.

- أمراض شيخوخة، لا أملك له شيئاً.

رَبَّت الطبيب على يد خير الدين:

- الربُّ في عونكم.

وحيدٌ مع أبيه، ومضات من الماضي كندفِ الثلج تتساقط على الروح وتعلق بها أسئلة.

سيف يعقوب يتراقص في الهواء.

يعقوب يبارز عروجًا.

(كاتالينا) تناديهم للغداء.

يعقوب وعروج وإسحاق يتشاجرون في حانة ألبرتو.

بحار يحاول طعن يعقوب من الخلف، يسحب خير الدين سيفًا من غمد أقرب شخص، يطعن البحار، يصرخ متألمًا، يلتف الجميع حول خير الدين للدفاع عنه.

يعقوب يبكي في حجرته بعد وفاة (كاتالينا)، وعروج يسأله:

- أتحبها إلى هذا الحد؟

- حبها في قلبي حتى الموت.

خير الدين ويعقوب متعانقان أمام قبرها.

- خضير، هل عاد عروج؟

يسرع إلى فراش والده، يردف يعقوب لابنه، وهو يحرق في وجهه:

- قل لعروج، إنني أحبه، فلا يتراجع.

- عروج هرب من الأسر.. حتمًا سيأتي.
- لو أعرف أين أنت يا عروج؛ لأبحرْتُ إليك.



لم يصدق عروج أنه نجا، وأن فرسان السفينة يفتشون عنه في كل صوب، حتمًا سيرجعون إلى الجزيرة ليصرخ مالديني من الخسارة غير المتوقعة، بينما يتفجر جورج وسانتري ضحكًا في المقهى وقت القيلولة، لن يخلو حديث العشاء في بيت جورج، بين الرجل وزوجه عما أصاب مالديني. حينما تصل الأخبار إلى خضير في جزيرة بدروم يحملها إليه لويس الرودسي؛ فيرجعان إلى جزيرتهما؛ فيجدان الأب طريق الفراش، يتسم لخضير الذي أبى مغادرة الجزيرة قبل أن يطمئن على يعقوب.



ها هو ذا عروج يحكي للسلطان (زادة قرقود) عما جرى له؛ فيُجيب صديق السلطان "ييا لي بك":

- إلى متى سيستمر الوضع هكذا؟ فرسان القديس يوحنا يتعرّضون لتجارتنا والأسبان يعذبون الموريسكيين.

نطق السلطان بعد صمتٍ طويل:

- أنت الحل يا عروج.. أنت فارس وبحارٌ، والعثمانيون يحبون البر وثغرة دولتهم هي البحر.

(زفر بأسى ثم أردف): لو توليت الحكم مكان أبي، سأؤجّه
الجيش لفرض السيطرة على البحر ولإسكات غارات فرسان القديس،
والى أن يحين ذلك سأهيك سفينة مؤلفة من أربعة وعشرين مقعداً
لتواجه..

تكلم ييالي:

- لي سفينة خاصة، سأهبها لك.

في حضرة حاشية الشيخ السلطان (زادة قرقود)، أنعم السلطان على
عروج بحلّة الرياسة الجديدة وأذن له بالسفر، البحر ساكن طيب يسرع
بأشرعة السفيتين إلى ميللي.

وصل عروج إلى الجزيرة مع الغيم، رهط من أهل الجزيرة يتحركون
إلى المسجد المُشيد على ربوة عالية، يصل إليه طريق ترابي صغير، يتوسط
خضرة تكسو الربوة كاملاً. انتظر ألبرتو وجومانة وآخرون خارج
المسجد، ثم تابعوا الركب، ذرفت جومانة الدمع، حزناً على ذلك الرجل
الذي ملأ الجزيرة صخباً، أطلق عليه البعض "مجنون (كاتالينا)"، الآن
يرقد بجوار قبرها، بعد الرجوع من المقابر تشتت الجمع، علّقت جومانة
لافتة:

"الحانة مغلقة لوفاة الشيخ يعقوب".

ساد بيت يعقوب سكونٌ داكُنٌ، دموع سهيلة بللت الوسادة، وهي

تتذكر ذلك الحديث الذي دار بينهما قبل أن يخطفه الموت بمخالبه ويلقيه، كان ينظر من النافذة إلى البحر، أحس بوقع قدميها في حجرته التفت إليها بلا مقدمات:

- أحبك يا سهيلة.

ابتسمت.

- بالفعل أحبك كابنتي.. أتعرفين؟ (كانالينا) كانت تتمنى أن يكون لها بنتٌ، كلما انتفخت بطنها وتكوّرت، تدعو الله أن يرزقها بنتًا وكلما رُزِقَتْ ولدًا بكت، بينما كنت أسخر من بكائها، يومين ثم تطلب مني الاحتفال بالمولود وعندما رَزَقْنَا الله بخضير، قالت:

- لا بدَّ أن ذنبًا ارتكبته؛ لأن الله لا يستجيب لدعائي.

ضممتها لصدري:

- عندما يتزوج صبيانك سيأتون بفتيات جميلات ويَصِرْنَ بناتٍ لك.

ابتسمت وقبّلتنِي، وقالت:

- رأيتك تصلي داعيًا الله أن يرزقني بنتًا.

نعم فعلتها يا سهيلة، صدّقني دعوت الله أن يرزقها بنتًا، لكن..

- هنا في الجزيرة منْ يحسدني على ذلك.

قالت (كاتالينا) لجومانة يومًا، ثم أردفت:

- كان نفسي في بنت.

لكزتها جومانة:

- اشكري الرب، أنا أتمنى ولو نصف طفل من البرتو ولكنها مشيئة الرب.

أخبرتني جومانة بهذا الحديث بعد وفاة (كاتالينا).. أقصُّ عليك ذلك، لأن الله يعطينا ما يناسبنا ونحن نرفض، نريد ما تشتهي أنفسنا، من حقك عليَّ الآن أن أعتذر لك، كنت أطمع أن تأتي لي بحفيد وطلبت من إسحاق الزواج بأخرى لكنه رفض. هذه الأيام دعوت الله أن يرزقك ولدًا، حتمًا سيرزقك ولدًا لا تسأليني لماذا هذا اليقين، أنا لا أعرف، مجرد إحساس، إذا رزقك الله بولدٍ ليكن مصطفى، أحب هذا الاسم.. الآن أحبك أكثر من أبنائي الذكور وأكثر من حفيدي حسن، أتعرفين لماذا؟!

تهزُّ رأسها نفيًا:

- أنا لا أعرف سوى أني أحبك، والحب لا يُبرَّر.

أقلت بنفسها بين ساعديه، احتضنها وقبَّل جبينها مراتٍ ومراتٍ.

تتحرك في البيت خفيفةً، هشةً، تُداعب حسن الصغير، الذي يجلس على الأرض مُحاطًا ببعض الحواشي، بين يديه كسرة خبز، تغني مع

الجارية، جاء المساء على مهل، تعطّرت وتمدّدت بجوار إسحاق، يظلهما طائر عشق...



كفكت دموعها، صوت أقدام تصعد الدرج، غادرت حجرتها،
لترى الدموع تخضب لحية عروج، صاحت:

- عاد عروج.. عاد عروج.

انتفض النائمون على صياحها.

حكى خير الدين ما جرى لوالدهم؛ متعجبين من قوله الأخير:

- قل لعروج إنني أحبه، فلا يتراجع.

فتساءلوا: "عن أي شيء لا يتراجع؟"؛ فالتقط طرف الخيط،
عارض إسحاق حديث أخيه:

- أنت وخضير تعملان بالتجارة، ولا أرغب في فقدان أحدكما..
ثم هناك ملوك وسلاطين.

قاطعهم خير الدين:

- عشرات الرسائل للملوك والسلاطين لم تُقرأ، أقصى ما جرى أن
أحدهم أرسل للملك (فرديناندو) قائلاً: "إننا سنعامل أسراكم كما
تعاملون أسرائنا"، ولا شيء بعد ذلك.

وَقَفَ عروج:

- سأحاربهم وحدي.

دون تردّد تحدّث خير الدين:

- لن تكون وحدك أبداً.

لم يفكر إسحاق في مغادرة الجزيرة يوماً، هنا يرقد والداه.. هنا
تزوج من سهيلة.. هنا ألبرتو وجومانة ولويس الرودسي و(يسي)
وخطوات الأقدام على الطرقات، الأجساد تمددت على الأرض، أيادي
الناس التي اشترت الخنزف واشترى منها احتياجاته، هنا سال عَرَقُ
العمال وبَلَّلَ الجدران وهم يسندون ظهورهم عليها.. هنا رست
السفن.. هنا وقف مودّعاً ومستقبلاً لإخوته.. ذكريات الصبا، ضحك
الطفولة.. أيترك كل هذا ويرحل لمحاربة القشتاليين وفرسان يوحنا.

عرفت الجزيرة برحيل آل يعقوب، باع إسحاق البيت والحانوت
بينما انهمك خير الدين وعزوج في استقطاب الرجال للرحيل معهم، آنَ
وقتُ الرحيل، تحركت الأسرة لزيارة قبر الوالدين، يجشو عروج على
ركبته:

- كدتُ أتردد، قبل أن ترسو السفينة ببضعة أيام، قلت لنفسي:
"والدك سيخبرك بالأمر اليقين"، ووصلتني رسالتك..

اصطفَ عشرات الأهالي للوداع الصعب، تحركت السفينتان

صوب جزيرة جربة، وهي تقع في جنوب خليج قابس وتنتمي إلى أرض تونس التي تخضع للحفصيين، يقف عروج على ظهر السفينة مُتأملًا ظلمة البحر؛ فيرتسم أمام عينيه مقتل إلياس والقاء جثته في البحر.

"هنا يرقد إلياس.. آه لو يخرج الحوت ويلفظ به إلى السفينة.. وأثق أنه سيحارب معنا..". كفكف دمعة انفرطت على خدّه، هبط إلى قاع السفينة، ينظر إلى المجذفين على الضوء المنبعث من القناديل، خائفًا نعسان، يختلط صوت المجاديف بغناء الرجال، يصعد إلى قمرة، خضير في انتظاره، ابتسم عروج:

- السؤال في عينيك، ولكنني أحب أن أسمع منك.

- لماذا فكرت في هذا الأمر؟

- طعم الأسر لا يزال في فمي.. موت إلياس.. حديث (بلانكو)

الأندلسي.. ماذا ستفعل نساؤنا إذا هاجم الفرسان جزيرتنا؟

- لا أظن.

- يا خضير، حتى السفن القادمة من الأرض الجديدة يهاجمونها.

- فمهمتك أن تسبقهم بخطوة.

- لتدحر عدوك؛ ضع نفسك مكانه واسبقه بخطوة..



(٩)

قال الحاجب:

- مولاي، الأب (إكسيمنس) بالباب يطلب مقابلتك.

تغيّرت ملامح وجه (فرديناندو) وتساءل:

"لماذا جاء من قشتالة إلى أراجون؟".

أشار بيده لينصرف الحاجب، جلس على مقعده المجاور لفراشه متذكراً زواجه من (إيزابيلا) أملاً في ضم قشتالة وأراجون ليصبحا شبه جزيرة إيبيريا، ليرث الحكم أبناءؤه من بعده؛ الذين ماتوا عن آخرهم فلم يبقَ إلا جوانا المخبولة. فما كاد (فرديناندو) يوارى جثمان الملكة حسب وصيتها الأخيرة فإذا الأمراء والنبلاء ينتظرونه في قاعة الاجتماعات وبينهم الأب (إكسيمنس) والأمير (فيليب) الذي أعلن عن أسفه لوفاة الملكة وأن من حقه الآن المطالبة بعرش قشتالة. لم ينس (فرديناندو)، أن

هذا الرجل هجر ابنته زمنًا طويلًا، وعند عودته بسطت له فراش العشق، كأن شيئًا لم يكن، الآن تنعم بعشقه، هو يعرف لماذا عاد (فيليب)؟ قبل أن يتفوه لابنته بلفظة واحدة، قالت:

- زوجي.

- لك ما تشاء يا (فيليب).

غادر (فرديناندو) غرناطة متجهًا إلى أراجون، التي غادرها شابًا يافعًا، يقتسم حكمها مع زوجته (إيزابيلا)، بل يحكمان شبه جزيرة إيبيريا كاملة، صراخ (إيزابيلا) يُطارده في دهليز حياته، تصرخ وهي تضبطه يشارك النساء قُرُشهن، تصرخ لوفاة أبنائها حتى هزَّها الإعياء فالتزمت الهدوء والسكون، اقترب ليقبلها؛ أشاحت وجهها بعيدًا:

- إحدى عشيقاتك أنجبت ولدًا.

- لندعُ الله ألا يلحق بإخوته.

غادرت باكية؛ فأمر بترحيل ابنه ووالدته إلى أراجون.

ها هو ذا يعود إليها وهو في الثانية والخمسين، كان السنوات التي مرَّت زرع بلا حصاد، فلا أبناء ولا مملكة، الوحدة لا يقتلها الخمر، والفراش تتبدل عليه النساء، خاطر الزواج يجول في رأسه، يتأمل غادات القصر، حتى جاء لويس الثاني عشر لزيارته وشاهد (فرديناندو) ابنته، تلك الأميرة ابنة السبعة عشر عامًا، سألها عن اسمها؛ فأجابت:

- جرمين ده فوا.

غادر لوريس الثاني عشر القصر تاركًا ابنته ملكة على عرش أراجون؛
فذاق (فرديناندو) طعم الكرز من شفتي العروس، استمرأ خرها،
زادت نشوته في الحياة والملكة مستلقية بجواره في مخدعها.

- أنا.. حامل.

تراقص فرحًا، سيأتي وريثٌ شرعيٌّ جديدٌ لعرش أراجون وقشتالة.
طرَّقَ خفيف على الباب، صوت جرمين:

- مولاي، الأب (إكسيمنس) بالباب.

- أعرف يا عزيزتي، أعرف.

يحيط خصرها ويسيران إلى قاعة العرش، يرحب بالقس؛ الذي تنم
ملاحظه أنه جاء بأخبار سيئة.

ساخرًا، سأله (فرديناندو):

- خيرًا أيها القس.

- تُؤفِّي الملك (فيليب).

- ماذا..؟

- تُؤفِّي الملك (فيليب).

بدا الذهول على ملامح الملك؛ فانفجر ضاحكًا حتى اغرورقت
عيناه بالدموع، مسح وجهه بيده، غادر كرسيَّ العرش.

- اعذرنى أيها الأب.. القدر يلعب معي، أتزوج (إيزابيلا) وأحكم
إبريا يموت أبنائي إلا جوانا.. جوانا الوحيدة التي يتركها لي القدر،
تموت زوجتي؛ فيطالب (فيليب) بعرش قشتالة، ثم أتزوج من جرمين
الحبيبة؛ فيموت (فيليب).

في حزنٍ تكلم (إكسيمنس):

- يا مولاي، الملكة جوانا أخرجت جثمان الملك (فيليب) من القبر
ووضعت في حجرة النوم وأينما ذهبت تنقله معها، استبدلت خادما
بخدم رجال لكي لا يهتك أحد ستر (فيليب) النائم، خلقت رأسها
كسجين، لا تستبدل ثيابها، وترفض الاستحمام.

وَجَمَ قَلِيلًا لِحَالِ ابْنَتِهِ ابْتَلَعَ غُصَّةً فِي حَلْقِهِ:

تَقَدَّمَ مِنْ جَرْمِينَ.

- عليك يا مولاي الاستعداد للرحيل.

ارتسمت أمارات الدهشة على وجهها، التفّت الملك إلى
(إكسيمنس) مُسْرِعًا، ومع كل كلمة يخطو صوبه:

- سنعود إلى غرناطة، سنحكم معًا إبريا لأنني الوريث الشرعي،
ألسن والد جوانا؟ أليس هذا حقي يا سيدي؟

يهز رأسه بالإيجاب، ثم ينظر في عيني الملك:

- لا تنسَ يا سيدي أن لـ (فيليب) الجميل من مولاتي جوانا طفلين: أكبرهما شارل والأصغر فرديناند، حتّى سيعودان إلى الأندلس يومًا.

ابتسم فردينادو ضاحكًا:

- إلى هذا اليوم أنا الملك.. أسمعت؟ أنا الملك.

ارتجف (إكسيمنس) من قوة الصوت، وأفسح الطريق للملك.

أثناء تحرك الركب عرج الملك إلى توردينر بلاس، يصعد حجرة ابنته، عند الباب تصدمه رائحة عفن، يجلس بجوارها على حافة الفراش، الضوء الخافت يتسلل من خلف الستائر السمكية، يضمها إلى صدره، أمست ذابلةً، يتأذى من رائحتها، يكاد يفلتها من بين ساعديه، تتفجر في البكاء، يربت على كتفها:

- يا بُنَيَّ، في القبر سيكون أفضل.

يدخل حارسان، يحملان الجثة على مهل، تصرخ جوانا:

- ادفنوه هنا.. افتحوا جسدي وادفنوه، اتركوه لعيني دقيقة، ليدي برهة، على الأقل هناك.

تشير إلى حديقة قصرها، يهزُّ رأسه بالموافقة، من النافذة يتابع الملك
مراسم الدفن وهو يحيط كتفها بساعده، دموعها لا تتوقف، لن تمل حتى
موتها النظر من هذه النافذة، عيناها ترحلان إلى الماضي، حيثُ تتمدد
بجوار (فيليب). ترتوي من رحيقه، ربما بضع ليالٍ متناثرة لكنها كافية
لأن تحيا عليها، تتابع الحارسين وهما يحفران، تتقدم مجموعة من الحرس
في موكبٍ جنازتيٍّ، يحملون صندوقًا خشبيًا، يدلونه بالحبال على مهل
وفي حذر شديد، الدموع تتدفق من عينيها مع كل حبة رمل، ترفض
الآن الرحيل مع أبيها، الذي ألقى نظرة الوداع، على أمل أن يكون
الطفل القادم خيرًا منها، بينما هي لا تبالي بوداعه، لا يزال بصرها
شاخصًا صوب القبر...

(١٠)

بفرح طفوليّ تشير سهيلة إلى طيور النورس المُحلّقة في الفضاء،
وترهف السمع لصوتها الخافت.

- البرُّ.. البرُّ.

تملأ صدرها من الهواء مرة وراء أخرى، تغمض عينيها، يد إسحاق
تلف كتفها، تردف:

- أتعرف يا إسحاق، للبرُّ رائحته، الزرع يملأ الحقول؛ فيرسل
رائحة الثمار، رائحة البيوت، رائحة الدواب، كل هذا يملأ صدري
الآن، حتى الرمال لها عطرها:

يأتيها صوت عروج:

- أتحبّين الأرض؟

- الأرض اطمئنان.

تسقط دانة مدفع بالقرب من السفينة، تتناثر المياه على وجه سهيلة،
التي تشهق وتراجع إلى الخلف بضع خطوات، يضحك عروج من
فزعها، يأمر رجاله:

- نكسوا العلم.

ثم يأمر قائد السفينة بالتراجع إلى البحر؛ فتسقط دانة أخرى
بالقرب من السفينة:

- (يسي)، قل للرئيس عروج أن ينكس علم سفينته هو الآخر.

- نكس العلم قبل الدانة الأخيرة.

يتساءل إسحاق في غضب:

- ألا يفهمون؟!

صوت البحار الواقف أعلى الصاري:

- يا رئيس عروج، ثلاث سفن حربية تتجه صوبنا.

تنطلق دانة ثالثة، يصرخ عروج:

- يا رجال، لهم ما يشاءون.

يشير عروج للسفينة الأخرى بالهجوم، تتلاحق الدانات حتى
أغرقت السفن الثلاث؛ فراجع جنودهم إلى الشاطئ قبل غروب
الشمس، يهبط آل يعقوب إلى شاطئ جربة، ترسو السفينتان ويهبط

الرجال، بينما على مرمى البصر تقترب فصيلة من الجيش للقتال، يشهر عروج السيف ثم يلقيه على الأرض، يتقدم رسول من والي الجزيرة للتحديث معه؛ فأجاب عروج:

- أعرف أن الجزيرة تخضع للسلطان عبد الله بن محمد الحفصي، أريد الحديث مع والي.

استمع والي الجزيرة إلى خير الدين:

- أنتم على الرحب والسعة حتى تقابلوا السلطان وبعدها نعرف أمره معكم.

مع الصبح الجديد، بقي إسحاق في الجزيرة، التي عرف كل أهلها أن عروجًا وأخويه جاءوا لمحاربة الأسبان؛ فكتموا سخريتهم في صدورهم، امتلأت المقاهي والحانات بالتخمينات.. هل سيوافق السلطان على بقائهم؟ هل سيلقي بهم في السجن جزاء لإغراقهم ثلاثة قليونات دفعة واحدة؟ أم سيتركهم يقاتلون الأسبان؟ هل يستطيعون قتال القشتاليين؟ التفت رجل منهمك في رسم أحد الزبائن لمن يتحدثون، فرغ من الرسم ووضع اللوحة في يد الرجل السكران، أخذ منه قطعتين من الفضة ثم انضم إلى المجلس ليستمع، واصل ذلك الرجل الجري إلى الشاطئ، هناك شاهد إحدى السفيتين تغيب عن الأبصار في جوف البحر، عرف أين ستجده لذا التفت عائدًا حزينًا.



شواطئ تونس لم تكن بعيدة، فطيور النورس تحلق في الأفق،
صوتها يزداد تدريجياً، فيمتزج بهدير الأمواج.

- تونس يا ريس.

قالها (يسي)؛ فأجاب عروج:

- خضير، أعدّ الهدايا.

تقرب السفينة على مهل من رصيف الميناء، يأمر الرئيس بإلقاء
المرسى، يهبطون منها، تتوقف عيون أهل الميناء عن العمل وتراقب
الهدايا وهي تخرج من رحم السفينة، شباك الصيد متناثرة على الشاطئ،
يمازح أخاه قائلاً:

- أتذكر أنواع عقد شباك الصيد.

يشير خير الدين للشبّاك:

- هذه عقد الصياد.

في كل ميناء كان عروج يخبر خير الدين بنوع عقد شباك الصيد،
مثل عقدة البقرة وعقدة الضفيرة الصلبة والليّنة، وعقدة العمامة، التي
اشتهرت بها الموانئ العثمانية، في نهاية المركب يسير (يسي) مع ثلاثة
لوندات..



قبل أن تدخل الهدايا وصاحبها إلى القصر، كان السلطان عبد الله بن محمد الحفصي يقلّب الأمر؛ يقبل أم يرفض، فإذا رفض الأمر يستظل خزائن تونس خاوية والمجاعات تجلب الفوضى والثورات والحروب، وإذا وافق سيواجه الأسبان.

توقف للحظة محدثاً نفسه:

"لماذا أواجه الأسبان، إذا جاءوا فليواجههم الرئيس عروج".

ارتسمت ابتسامة على وجهه تزداد اتساعاً من هدية إلى أخرى، تحولت الابتسامة إلى أمارات سعادة، يتوقف عند (يسي)، آخر رجل في القافلة (الفوج)؛ فسأله السلطان:

- هل هناك المزيد؟ أعني في الخارج.

يهز (يسي) نافعاً، يطلق السلطان كلمات الترحيب، يصغي لحديث خير الدين، بينما يتأمل (يسي) القاعة الفاخرة، كل شيء فيها له بريق، حتى ثياب العبيد، يلحق بهم إلى قاعة الطعام، يشير السلطان للأخوين؛ فينادي خير الدين:

- اجلس يا (يسي).

على طاولة الغداء جلس عروج عن يمين السلطان وخضير و(يسي) عن يساره، أفاض عروج في سرد أهمية اتحادهم مع السلطان في مواجهة القشتاليين، يجفف السلطان يده، يشير لأحد العبيد بإحضار الفاكهة.

- لا مانع.. لا مانع على الإطلاق.. بشرط أن أحصل منكم على
خمس الغنائم.

نظر خير الدين إلى أخيه غاضبًا؛ فتجاهل عروج النظرة وأجاب:
- لك ما تشاء يا مولاي، حتى لو طلبت أن تتقاسم معي الفارّين
من الأندلس.

تلاقت نظرات الأخوين:

- متى ستغادرون تونس؟.. أقصد متى ستذهبون إلى جربة؟

- الليلة يا مولاي إذا سمحت لنا.



تأمّل خير الدين الدار الجديدة على أرض جزيرة جربة - فسيحة من
طابقين - يحيط بها سور شاهق، ترفع سهيلة وحبيبة صحاف الطعام.

قالت حبيبة:

- مع كل هذا، أجنُّ إلى جزيرتنا.

قالت سهيلة:

- لن نعود يا حبيبة، إننا كالسفن لن نرسو يومًا على أرض،
فالأسيان لن يتركوا لنا وطنًا.

التفت إليها خير الدين:

- سيكون لنا البحر وطن.

في قلقي، قالت حبيبة:

- لا أريد البحر وطنًا، أريد بيتًا، تذهب لعملك في الصباح ثم تعود إليّ مع المغيب.

- الأحلام تظل أحلامًا، يا حبيبة.

- ليت حרבك حلمًا لا يتحقق.

يأتيهم صوت عروج المنهمك في اللعب مع حسن الصغير، أعطى سهيلة القريبة منه إياه، وتحدّث لحبيبة:

- لو رأيتَ عيون الصبايا في الأندلس.. لو رأيتَ الجثث تغرق أمام عينيك أملًا في الفرار من بطش القشتاليين.. لو ذقتَ طعم السجن.. لو رأيتَ أبناءك يباعون كالعبيد؛ لحلمتَ معنا.

يجلس عروج بجوار أخيه على الأرض:

عند الباب يقف إسحاق ورجل غريب، بينما خلفهما (يسي) ويده على السيف في ترقّب وحذر، لم يصدق عروج ما تراه عيناه.

صاح:

- (بلانكو)، الأندلسي.

يتعانقان:

- كيف حالك يا ريس؟

يصطحبون (بلانكو) إلى إحدى حجرات الطابق الأرضي، تكتمل دائرة الرجال حول (بلانكو)، الذي أخرج من جيبه لفافة تبغ وأعد الباب الهندي والجميع يتابعون ما يصنع في تعجب ودهشة، يخرج كيسًا ممتلئًا بالتبغ يملأ فوهة الباب، التي تقع في نهاية ساق طويلة، يطلب فحماً مشتعلًا:

- أنا ابتكرت وضع الفحم على التبغ حتى لا يحترق سريعًا.

يجذب نفسًا وراء آخر من الساق، وينفث دخانًا في الهواء:

- تفضل يا ريس.

ضحك خير الدين:

- تبنّ في جربة.

يضجون بالضحك، يمد (الباب) إلى عروج:

- ما هذا؟

- اسحب نفسًا إلى صدرك، ثم أخرجه من أنفك على مهل، هكذا.

العيون تراقب عروجًا وهو يدخن على مهل، يهز رأسه مُستحسنًا الأمر، يمد يده إلى خير الدين، الذي سأل (بلانكو)، ويده تمسك الترجيلة:

- من أين لك هذا؟

- رسمت لوحة لجنديٍّ من القشتاليين، سألته عن الأوراق؛ فقال:

- تبغ من الأرض الجديدة.

فطلبت شراءها منه؛ فأبى، انتظرت في إحدى الطرقات المظلمة في إحدى المُدن، ثم ذبحته، وأخذتها من جيبه.

كلما هدأت جذوة الفحم استبدلتها بفحم متوهج، غاب الجميع في سعال شديد، فصاح إسحاق:

- يا ربِّي، إنها سيئة جدًا.

يفرغ خير الدين من نوبة السعال.

- مذاقها طيب، يا (بلانكو).

لم يُعلّق عروج، أما (يسي) فغاب في سُعالٍ شديد حتى اشتعل وجهه احمرارًا ودمعت عيناه، أسرع إلى قدح الماء، برّد فمه وعاد إلى (بلانكو)، حدّق في النرجيلة، وفي تحدّ تناولها من يد (بلانكو)، وجذب نفسًا قصيرًا، أخرج الدخان من أنفه مثلما يفعل (بلانكو)، ثم نفسًا آخر ثم آخر ثم آخر، توهّج وجهه احمرارًا مدّ يده للريس عروج:

- لا بأس بها يا ريس.. لا بأس.

ضحك عروج، التفت إلى (بلانكو) قائلاً:

- أنت تُجيد الرسم، عليك رسم خريطة دقيقة لشواطئ الأندلس؛
لتساعدنا في مهمتنا.

- أرغب في الذهاب معكم.

- لا، سنأخذ منك صورة (ماري)، سنصطحبك معنا في رحلات
أخرى؛ لترسم لنا خرائط الموانئ: فرنسا، إيطاليا... الجزائر... المغرب،
ثم خريطة للبحر شاملة كل الشواطئ، مَوْضحةً أهم الجزر: قبرص...
كريت... صقلية... سردينيا... مالطة.



ضوء السراج خافت، يتراقص على مهل، اعتدلت حبيبة وخير
الدين يوصد الباب.

- انصرف الضيف؟

- سنرحل في الصباح إلى الأندلس.

- الأندلس!!

حتى هذه اللحظة لم تصدق حبيبة أن الأمر حقيقي، أقنعت نفسها
أنها في نزهة طويلة لعام أو عامين ثم تعود، تُرِيّ صغيرها حسن وتأتي له
بإخوة كثيرين، سيرحل خضير ثم يعود لتزداد شوقاً إليه، ربما تبهر معه
مرة أو مرتين، حتما سيتركها لترعى الأولاد، حتى عندما أجاب عروج
عليها، احتسبت قوله ردّاً لا يلفت الانتباه، يُقَبِّلها خير الدين.

- لا تقلقي .

- لا تتخيل مدى قلقي عليك كلما رحلت .

واساها بهمساته، غابا في وصلة عشق، في الحجرة المجاورة فرغ
إسحاق من وصلة عشق مع سهيلة، مسحت رأسه .

- تعبت هذه الأيام

- نعم تعبت كثيرا، فمنذ نزولنا إلى الجزيرة ونحن نقطع الأشجار
ثم ننقعها في الماء عامًا كاملاً .

- ياه، عامًا كاملاً .

يهز رأسه بالإيجاب، مغمضًا عينيه استعدادًا للنوم، تعتدل هامسة .

- أنا... حامل .

اعتدل في جلسته .

- ماذا؟

- حامل .

- كيف عرفت؟

- انقطع الدم شهرين متتاليين، سنصبر شهرًا ثم نخبر الجميع .

(١١)

قبل الغروب لاحت في الأفق شواطئ إسبانيا، فأمر الرئيس عروج
بتوقف السفينة، حتى حلول الظلام تحت جناح الليل، تسلل برفقة
(يسي) وخير الدين بقارب إلى الشاطئ. دلف عروج في شوارع على
مهل، وفي حذر، سأله (يسي):

- كيف عرفت الطريق، يا ريس؟

- أنسيت (بلانكو) الأندلس!

- أقصد يا ريس، أما زلت تذكر الأماكن؟

- أنا لا أنسى، يا (يسي).

تبادلا النظر للحظة، ثم واصلوا السير.

يخرجون من القرية إلى فضاء رحب ينتهي بجبل، يسرون في مدق
ترابي، حتى يستوقفهم رجل، فيقدم عروج خاتمه.

- الرئيس عروج...

اختفى الرجل بعض الوقت ليظهر في صحبة بعض الرجال،
يوصلون السير، على أضواء مشاعل يحملها الرجال، رأوا أنصاف
وجوه ظللها الضوء والأنصاف الأخرى في الظلام، أنصاف وجوه
لأطفال... عجائز... شيوخ... رجال... نساء... يدخلون إحدى الخيام
المتفرقة في الجبل.

- أهلاً بالرئيس عروج، طالت غيبتك.

يصافح زياد ضيوفه، يد خير الدين تصافح رجال زياد، تكلم
عروج فور جلوسه:

- هذا أمر سيطول شرحه، يا زياد... هذا أخى خير الدين يمكن أن
تناديه خُصيراً... وهذا البحار (يسى)، هل لديكم رفقة جديدة؟

أول مرة يرى خير الدين زياداً، شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين
من العمر، أبيض الوجه، أشقر الشعر، ملون العينين.

- كثير، يا صديقي، يهربون من ظلم محاكم التفتيش، والطعام لا
يكاد يكفي.

- لا تقلق، يا ريس زياد، سأحل معي خمسمائة.

التمعت عيون الرجال من الدهشة، أردف عروج:

- اليوم جئت بسفينة، سأتى في المرة القادمة، إن شاء الله، بسفيتين،

كم من الوقت يكفيك يا زياد؟

- الليلة القادمة.

- سنعود إلى السفينة... الإشارة ستكون هكذا.

حرك عروج قنديلاً يميناً ويساراً مرة، ثم أوقفه لحظة، ثم حركه
يميناً ويساراً مرة أخرى.



- الإشارة، يا ريس.

يهبط الرجال إلى القوارب، مُحَمَّلِينَ بالسلاح، المجاديف تضرب
المياه، تتفرق القوارب بطول الشاطئ، نسائم الليل تداعب ثياب
الرجال، السكون مسكوب على الشاطئ يتخلله الهدير.

- هيّا، يا زياد.

بدأ الهاربون في التسلل، يحملون صُـرَرَ الثياب، قليلاً من المتاع،
الرجال يساعدون الأطفال والعجائز والنساء في ركوب القوارب،
يدفعون القوارب إلى قلب البحر، تضرب المجاديف البحر في حذر،
هناك على السفينة، جَمْعٌ آخر يساعد في تفريغ القوارب، على السلام
المجدولة من الحبال القوية، ترحل القوارب لتعود مرة أخرى، وتعود
لترحل، صوت نفير، يمسك خير الدين بيد طفل وأمه، يزعق زياد:

- أسرع، يا خضير، القشتاليون يجوبون الشواطئ، أسرع.

- الحمد لله، جاءوا ونحن في النهاية.

يمتطي زياد ورجاله الجياد ويغيبون، خير الدين يستحث رجاله:
"أسرعوا" الهاريون يجدفون بأيديهم؛ لتختفي القوارب عن عيون
الجنود، المجاديف تضرب المياه، من أول قارب يصل إلى السفينة.

- ريس عروج، القشتاليون يجوبون الشواطئ.

- أطفئوا القناديل.

يسود السواد فلا يعرفون أين يتجهون؟ ينادي خير الدين:

- اربطوا القوارب بحبل واحد؛ حتى لا يشرد قارب.

واصلت السفينة سيرها تمخر عباب البحر، البحارة يتفاخرون بما
فعلوا، يتصايحون، يترافصون، يجرعون الخمر، على أول جديلة صفراء
من جدائل النهار، يرون وجوه الهاريين، ربما تختلف وتباين من شيخ
لطفل، من امرأة لعجوز، لكن بسمّة واحدة تظللها، الشحوب، البحارة
يوزعون طعامهم المجفف المكوّن من قطع صغيرة من السمك أو اللحم
وكسرات الخبز، فتمتد الأيدي النحيفة بالأطباق الخشبية والأقداح، عند
حافة السفينة كانت تجلس امرأة في العشرين من عمرها، يرقد في
حجرها طفل لم يتجاوز الستة أعوام، تمسح على رأسه وتقصّ عليه:

- كان يا ما كان ملك اسمه محمد الغالب، فكّر في يوم أن يني

قصرًا ليس مثله مثل، قالوا: استعان بالسحر والشياطين، وبنى قصرًا
وحصنًا، أتعرف اسم القصر؟.. قالوا: قصر الحمراء، هنا في الأندلس
قصر الحمراء.. هذا القصر لن يتهدّم أو يسقط إلا حين يميل اللسان

المثبت في أسفل البرج الخارجي ويصل إلى القفل، عندئذ سينهار القصر مرة واحدة، أتعرف ماذا أسفل القصر؟ الملك عبد الله بن محمد وآخرون، أخفوا ذخائرهم وكنوزهم وحُلِيِّهم في أعماق القصر، استعانوا أيضًا بالسحر لحفظها.. أتعرف من يحرس الكنوز؟.. وحوش ومَرَدَّة، عندما تكبر ويشتد عودك تعالَ إلى الأندلس؛ لترى قصر الحمراء، أتعرف؟ لكلُّ برج وبهو وقاعة قصة، أشهرها بهو السباع، تُحَارَب فيه أبناءُ السلطان أبي الحسن، لا أحب الدم.. سأحكي قصة أخرى عن القصر.. كان ياما كان سلطان مستبد من سلاطين غرناطة، سجن بناته الثلاث في أحد أبراج الحمراء وفي الليالي المقمرة، تمتطي البنات جيادهن ويرتدين حليهن ويَطْفَن القصر وغرناطة كلها، فإذا حاول أيُّ إنسان.. أي إنسان أن يخاطبهن أو يزعمجن، يختفين في الحال.

تنتفض المرأة على يد عروج:

- صغيرك نام.

تلتفت إليه، وجهها مبلل بالدموع، حمل عنها الصغير، ساعدها أحد البحارة في الوقوف.

- الجزيرة، يا ريس.

حبيبة تُلَوِّح بيدها لخير الدين، يلقون المراسي لتستقر السفينة، تمتد السقالات إلى الأرض، يسرع خير الدين لعناقها، يُقَبِّل ولده حسن، ينادي الصغير على عروج:

- عوج.. عوج.

- "جاء الموريسكيون".

قالها الصغار، وهم يطوفون شوارع الجزيرة، يعانق إسحاق أخويه.

- كم عددهم؟

- خمسمائة تقريبًا.

تحدث إسحاق لعروج، وهو يتأمل الوجوه الحزينة تهبط إلى أرض الجزيرة.

- الزاد قليل، نحتاج إلى قمح، (نظر للموريسكيين)، وقماش ثيابهم في حالة يُرْتَمَى لها.

احتضن عروج حسن، التفت إلى إسحاق:

- سأبحر إلى أنطاليا.

- وحتى تعود؟

- اشتر من الحفصي ما يكفي.

يسرع خضير ليلعب صغيره ويتمدد بجوار زوجته، قالت حبيبة.

- سهيلة حامل.

علم الجميع بحمل سهيلة، التي لازمت الفراش بأمر من زوجها، الذي تراقص من الفرح، صنعت حبيبة أطباق أرز باللبن، وورزها العبيد على الرجال والموريسكيين؛ فتساءل أحدهم؛ فأجابت:

- عودتكم سالمين.

قال الرجل:

- في المرة القادمة يا سيدي، أريد مرقاً ولحماً.

حذرت حبيبة من انتشار الخبر خوفاً من الحسد، ضحك عروج:

- هذه الأمور لا تخفى.

- لكم البحر.. فاتركوا أمور البيت لنا.

كان القلق ينمو في صدرها منذ غادرت جزيرة ميلدي والكوايس تطاردها، أشد ما تخشاه هجوم الأسبان على السفيتين، أو على جزيرة جربة؛ فحديث الجاريتين، يتسرب إليها، إذ قالت إحداها للأخرى:

- القشتاليون لديهم أرمادا.

- ماذا؟

- أسطولهم يطلقون عليه الأرمادا، ليس له مثيل في بحر الروم.

إلى أي مدى سيذهب بهم عروج، سفينة تحارب أسطولاً!!، حين احتضنت خير الدين لم تصدّق أنه بين يديها، اشتته أكثر من أي وقت مضى، نسجت بساطاً من العشق، ودّت ألا ينتهي. حين خبأت وجهها في حضنه، قالت لنفسها:

"لكل شيء نهاية".

تركهم يتناقشون في أمر رحلتها الجديدة، تأمل خير الدين خرائط
(بلانكو) سعيداً.

- أحسنت صنعاً، يا (بلانكو).

يدخُن عروج الباب:

- نحتاج يا إسحاق لأخشاب كثيرة.

أجاب إسحاق:

- توجد غابات في جزيرتنا، وكذلك جزيرة جيجل وجزيرة بجاية.

تساءل خير الدين:

- أيمكنك يا (يسي) تدير مكان يصلح لصناعة السفن؟

- هل سنستقر في الجزيرة؟

تدخل عروج:

- نحن نحتاج إلى ورش لصناعة السفن في كل مكان نهبط فيه.

أشار بيده إلى إحدى الخرائط:

- انظر معي يا خضير، لا بد أن تمتد مراسينا من جربة حتى

مستغانم في الجزائر.

- أقصد أن هذا الانتشار سيجهد الأرمادا؟

- بالضبط يا باش ريس.

تصايح إسحاق للقب أخيه الجديد:

- أوه، نائب القائد مرة واحدة (نظر إلى عروج)، من سيكون
خوجة السفينة؟

- (بلانكو).

دافع (بلانكو) عن نفسه:

- لستُ واعظًا دينيًا يا ريس، فما رأيك في (بسي)؟

تكلّم خير الدين:

- أنت تحسن الكتابة، وتجيد رسم الخرائط.

امتلات المقاهي والحانات بالقادمين والبحارة؛ فظلّ الصخب
يزعج هدأة الليل.

(١٢)

قرأ السلطان زادة قرقود الفرمان الآتي:

"من السلطان سليم الأول

إلى أخيه السلطان زادة قرقود/

محظورٌ عليكم السفر والتجول ومغادرة قصركم إلى أن يصلكم أمرٌ آخر.

سلطان الدولة العثمانية

سليم الأول"

قعد (زادة قرقود) على كرسيّ العرش، بالقرب منه يقف صديقه (يياي) باشا، من نظرة السلطان للرسول عرف أن هناك أمرًا سيئًا، تحدّث:

- اذهب لسلطانك، وقُلْ له: من دَسَّ السم لأبيه لن يتورَّع عن قتل إخوته.

انحنى الرسول وغادر قاعة العرش، التفت (بيالي) باشا إلى السلطان:

- ماذا هناك يا سيدي؟

فمدَّ السلطان يده بالفرمان:

- اقرأ.

يقرأ (بيالي) المرسوم السلطاني:

- هل لك وحدك، يا مولاي؟

وصلت إلى أنطاليا أخبار أن السلطان سليم الأول، اعتلى العرش وخلع أباه بايزيد الثاني، وأخرج خمسًا وعشرين سفينة حربية من نوع قادرغة لمحاربة إخوته، قبل أن يتصف النهار، جاء الرسول، خرج قورقود من صمته:

- الخطوة التالية، يا (بيالي) باشا.

- أغلب الظن، مغادرة القصر سرًّا.

- أحسنت، لن يتورع سليم عن قتلنا؛ ليرث أولاده العرش، أنا أعرفه، جيدًا، فهو صيَّاد ماهرٌ وفارسٌ متعصبٌ.

من نافذة القصر نظر السلطان إلى الشمس وهي تذوب مخلفة لونا
برتقاليا يتحول إلى أحمر قان.

- هيا، يا مولاي.

تنكرا في ثياب قرويين، امتطيا حصانين، أصرَّ (بيالي) باشا على
امتطاء حصانه المميز؛ فاتجه إلى تكة واختبأ في إحدى المغارات، هبط
(بيالي) باشا إلى مقهى القرية ماشيا على قدميه، فالتقطت أذناه حديث
العامَّة.. اختفاء السلطان (قورقود) وصديقه.. السلطان سليم الأول
أرسل ليلة البارحة سرية للتخلص من أخيه.. لا أحد يعرف أين اختفى
السلطان.. أقسم قائد السرية ألا يعود للسلطان سليم إلا ومعه السلطان
(قورقود) و(بيالي) باشا صديقه، تسلل (بيالي) إلى المغارة، روى لمولاه ما
دار في الحانة، وجم قورقود:

- لا مفرَّ لنا إلَّا إلى أوروبا..

- إلى أين..؟

- هذه هي المشكلة.. هذه هي المشكلة.

ظلا في غيبتهما ما يقرب من خمسة عشر يوما، نفذ خلالها الزاد
والمؤن، ارتدى بيالي باشا ثيابه، هابطا إلى القرية مُتَطَيِّا، هذه المرة،
حصانه اللافت للأنظار؛ فشكَّ فيه بعض رواد الحانة؛ فتعقبه اثنان
وذهب آخران إلى قائد السرية.

استيقظ (قورقود) على صوت خافت.

- مولاي (قورقود).. مولاي السلطان:

فتح عينيه مُعتقداً أن (بيالي) أصابه الأرق، بعد الغداء الدسم،
الذي جاء به منذ ساعات، فإذا بجنودٍ يحيطون به، السيوف مسلطة عليه
وعلى صديقه، يقيده الجنود، أربعة قرويين يقتربون من قائد السرية،
يهمهم أكياساً ممتلئة بالعملات الذهبية، يهتفون:

"عاش السلطان سليم.. عاش السلطان سليم".

يحدجهم (قورقود)، محدثاً نفسه:

"هؤلاء القرويون كانوا يهتفون في الماضي، عاش السلطان
قورقود".

ينظر أحد القرويين إلى حصان (بيالي) باشا:

- حصانك أثار ريبتنا.

"طويل جداً الطريق إلى القصر".

هذا ما قاله السلطان قورقود، في هذا الطريق الممتد إلى القصر، كان
العامة يحتشدون ليشاهدوا السلطان (زادة قورقود) يتوسط حرسه، الآن
دماء الحراس هناك تلوث جدران القصر، ومنهم أسرى مقيدون بالحبال
ليأعوا في أسواق العبيد.. في هذا الطريق كانت آلاف الأيدي تلوح
والصياح لا يتوقف، وقطع الفضة تنهال عليهم من أكياس السلطان،

أينسون موائد الإفطار الممتدة، الذبائح في العيدين، أمحفظ الجدران
الأغاني وعزف الموسيقى، ضحك الجوارى، خرير الماء وحفيف أوراق
الشجر، أذان الصلوات يتردد بين مئذنة وأخرى، تساءل السلطان:

- أتُنسى الجدران كما ينسى البشر؟

التفتوا إليه ثم واصلوا السير، من بعيد يأتي جنديٌّ، يشير للقائد
إشارة فهمها على الفور، فكرر الإشارة لجنوده، لحظات وسقط قورقود
وبيالي جشتين هامدتين.



هذا ما رواه الرئيس صالح وهو في ضيافة الرئيس عروج، اغتم
عروج، قائلاً:

- ما العمل، يا ريس صالح؟

- إمّا أن تذهب إلى مصر أو ترجع إلى جزيرة جربة.

ودّع عروج الرئيس صالحاً، الذي انتقل إلى سفينته، لتفترق
السفيتان، امتلكت الحيرة قلب عروج حتى منتصف النهار، تناول
منظاره ثم نادى على (يسي)، بينما انهمك خير الدين في رسم شراع على
شكل مثلث، اقترب من عروج:

- بعد عودتنا يا (يسي)، سنغير شكل الشراع من شراع مربع إلى
شراع مُثَلَّث.

تحدّث (يسي):

- ماذا يعيب الشراع المريع؟

أجاب خير الدين:

- الشراع المثلث أقل في مقاومة الهواء، وهذا يعني زيادة سرعة السفينة.

نادى اللوند على الرئيس:

- يا ريس.. يا ريس.

أنجّه الجميع حيث أشار اللوند، أخذ عروج المنظار، مدّ يده به لأخيه.

- انظر، يا خضير.

يلقي نظرة حيث أشار الرئيس، يطلق صفيّر الدهشة:

- سفيتان من نوع باشتاردا.. الأولى غالية رويًا يمتلكها البابا جوليوس الثاني.

يلتقط عروج المنظار:

- انظر إلى الحراسة.

- الحراسة شديدة.. إذا يا ريس، بها أشياء ثمينة.

- بضمن الأشياء الثمينة نشتر القمح للموريسكيين.

- السفيتان حريتان يا ريس.

- نحن خرجنا من جزيرتنا لنجاهد.. حَذِّقْ جيداً في جنود غالية.

- مُجَهِّدُون يا ريس.

- فرصتنا.

يُنْهَى رجاله عن استخدام المدافع، تقترب السفينة ببطء، في لحظة قفز رجال الريس عروج على السفينة غالية، من شدة المفاجأة لم يستطع جنود غالية صدَّ هذا الهجوم المباغت، يستبدل رجال عروج بملابسهم ثياب الجنود، يتركون نصفهم يحرس الأسرى، اقتربوا بغالية من السفينة الأخرى، قفز الرجال إليها، يسقط (يسي) في الماء، يسرع عروج في القفز خلفه، رغم شدة القتال نجح عروج والرجال في إنقاذ (يسي)، قبل غروب الشمس كانت السفن الثلاث ترفع علمًا جديدًا في بحر الروم، جلس (يسي) على ظهر السفينة يبكي، حتى جفَّت دموعه، تتجه السفن إلى جزيرة جربة، قبل أن ترسو السفن تجتمع الموريسكيون وأهل الجزيرة مع من تبقى من آل عروج، يلوحون بأيديهم للعائدين، قبل أن يصعدوا إلى الطابق العلوي اجتمعوا مع إسحاق.

- وصل خبر أسر غالية إلى السلطان الحفصي؛ فطلب رفع حصته

من الغنائم.

أجاب عروج، وهو يدخن البايب:

- إذا عرف السلطان الحفصي، عرف القشتاليون (يلتفت إلى خير الدين) ماذا عندك؟

- أولاً: لا ضيرَ من دفع الزيادة للسلطان الحفصي حتى نعثر على مكانٍ آخر، ثانيًا: قد درّب إسحاق طوال فترة غيابنا عددًا من الموريسكيين على استخدام السلاح لأمرين: أولهما: انضمامهم إلى رجالنا، ثانيهما: الدفاع عن الجزيرة في فترات غيابكم.

لم يكن التدريب على القتال هو الأمر الوحيد الذي عاناه إسحاق في فترة غياب عروج، كان الأمر الأكثر إزعاجًا، كيف يتلاءم الموريسكيون مع سكان الجزيرة؟ وكيف يقبلهم سكان الجزيرة؟ الموريسكيون تعاونوا كثيرًا مع إسحاق، استأجر قطعة من الأرض لزراعتها؛ فأحسنوا استغلال المياه عن طريق بناء السدود، نجحوا في زراعة الزيتون، وكذا قصب السكر، واستخدموا طواحين لرفع المياه وطحن الغلال، وتشغيل آلات قطع الخشب، لكن نساء الجزيرة لم يتقبلن هؤلاء البشر القادمين إليهم، فلاحظن جمال الموريسكيات، صُفر الشعر، بيض البشرة، ملوّنات العيون، فاتهمت سيدة من أهل جربة موريسكية بأنها لم تزل مسيحية، كان ذلك في يوم السوق، فالموريسكية أبت بيع أحد عصافير الكناري بسعر زهيد وأصرّت السيدة على سعرها، كاد الأمر أن يتفجّر، حين دلف إسحاق إلى السوق، صرخ في الفريقين:

- اغمدوا سيوفكم، لا فرق بين أهل الجزيرة عندي والموريسكيين،

كلكم رعايا ومن ينفخ في كير العصية ساقطع رأسه، إن الموريسكيين غادروا ديارهم وأوطانهم حفاظًا على دينهم، تركوا الدنيا وما عليها من أجل الدين ونحن هنا ليس دفاعًا عن الأندلس فقط ولكن لدرء هجوم العدو علينا وعدونا هم القشتاليون.. هم من هجّروا الموريسكيين من أرضهم ونقضوا عهدهم مع عبد الله بن محمد حاكم الأندلس، اسمعوا وعوا جيدًا: إن لم نتّحد، سيأتي عليكم يوم سيكون مصيركم مثل مصيرهم وربما أسوأ.

دفع إسحاق فارق السعر من ماله الخاص، بل اشترى من الموريسكيين عصفورين من الكناري.

تحدث إسحاق:

- أجهل ما يعجبني في الموريسكيين يا عروج، ثيابهم؛ فهم يرتدون أحذية مرنة جدًا، سألتُ أحدهم؛ فقال إنه يصنعها من جلد الماعز وأطلقوا عليه "شبريلا".

أخرج من الخزانة زوجًا واحدًا.

- هذا لك.

يرتديه عروج، يسير في الحجرة ذهابًا وإيابًا متأملًا الحذاء، فرحًا بليونته وخفته.

- أحسنت صنعًا، يا إسحاق.

- وأنا، يا ريس إسحاق، أين نصيبي من الشبريلا؟

قالها خير الدين؛ فأجابه إسحاق:

- لم أنسك.. وهذا ما ينخسك يا باش ريس.

غادر عروج الدار إلى الحديقة المحيطة بها، تمدد على العشب، عاقدًا يديه تحت رأسه، لا يدري كم من الوقت مضى، أفاق على صوت البستاني:

- مولاي، سيدة تريدك.

اعتدل عروج جالسًا، عرفها على الفور، فوجهها لم ينسه قط.

- أتذكرني، يا ريس عروج؟

- أنت صاحبة حكايات قصر الحمراء.

من خلفها ظهر ابنها، يحمل بين يديه قفصًا به زوج من عصافير الكناري، يقدم القفص.

- هدية لك يا..

توقّف الصبي ونظر لأمه في ضيق وهي تزجره بعينها، هزّ يديه معترضًا:

- لن أقول له يا ريس عروج.

انحنى عروج، مسح على رأس الصغير متسائلًا:

- ماذا ستقول؟

- بابا عروج.

أول مرة يسمعها.. بابا عروج، الصغير حسن يناديه "عروج..
عوج"؛ فيضحك الجميع، ابتسم عروج؛ فرددها الصغير:

- بابا عروج.

فتح عروج ذراعيه ليحتضن الصغير، قالت الأم:

- هدية.

ارتفع هتاف من خلف سور الحديقة.

- يعيش بابا عروج.. يعيش بابا عروج.

يخرج من الحديقة، عشرات الموريسكيين يحملون المشاعل جاءوا إلى
البيت يشكرونه، ارتفع الهتاف، لَوَّح لهم عروج والطفل على كتفيه.

- يعيش بابا عروج.. يعيش بابا عروج.

قبل أن تنسحب الأم من الدار، استأذنها عروج:

- لو ترغبين في العيش معنا هنا.

- هنا أسياد وعبيد.

- هنا قومٌ يأكلون على سباط واحد.

ابتسمت المرأة.

- ساعيش مع صغيري في دارنا.. اسمح لي بزيارتكم وقتما أشاء.

- لك ما تشائين.

تعلّق الصغير بعروج، ورفض الخروج.

- اذهبي أنت، حين ينام سأرسله مع خضير أو إسحاق أو (يسي)
لا تقلقي..

- ما اسمك، يا صغيري؟

- محمد.

- اسم جميل، أتعرف من اسمه محمد أيضًا؟

- سيدنا محمد بن عبد الله.

- أحسنت.

جاءت المرأة أكثر من ثلاث مرات، و(يسي) يخبرها أن محمدًا يلعب
مع عروج، في كل مرة تقطر المرأة حبةً في قلب (يسي)، صعدا معًا إلى
الطابق العلوي، يدفع (يسي) الباب برفق، الاثنان نائمان على الفراش،
حاولت الأم سحب صغيرها، بكى رافضًا، استيقظ عروج.

- دعيه يا امرأة، يخرج وقتما يشاء ويعود كيفما يشاء.

واصل نومه محتضنًا الصغير.

(١٣)

جاءت جميلة لتسأل عن صغيرها محمد؛ فأجابتها سهيلة، التي
شارفت على الوضع:

- خرج مع بابا عروج.

اصطدمت عند سور الدار بـ (يسي).

- آسف.. أنتِ..!؟

تأملها، كانت فارعة الطول، ولها عينان زرقاوان، وخصلات
صفراء تطل من أسفل طرحتها الحريرية.

- جئتُ لاصطحاب محمد.

- محمد مع عروج في الحانة.

سارت بجواره على استحياء، حتى باب الحانة؛ فقال:

- انتظريني هنا.

في الداخل، عشرات الرجال يرهفون السمع لذلك الرجل القادم إلى الجزيرة،

- استطاع سليم الأول هزيمة إسماعيل الصفوي في شالداران ودخل تبريز عاصمة الصفويين، ولكنه انسحب لانتشار المرض بين جُنده.

نفث عروج عن ضيقه، استرسل الرجل:

- قتل أربعين ألفاً من الشيعة، وضم ديار بكر وكردستان.

تحدّث خير الدين:

- صعب أن ينتهي الأمر بين الشيعة والأتراك عند هذا.

هزّ عروج رأسه.

- لن يتوقفا عن القتال عند هذا الحد.

أفرغ خير الدين قليلاً من الخمر في كأسه.

- سليم لن يتوقف؛ فأمامه أحد أمرين: مصر والشام، خاصة أن

الأمر هناك متدهورة، أو أوروبا.

نظر عروج لأخيه:

- أسوأ ما أتوقعه أن يتجه إلى مصر والشام.. تعال يا (يسي).

يهمس (يسي)، يومئ عروج صوب ناحية في الحانة:

- إنه نائم هناك على الأريكة، خُذْهُ.

يحمل (يسي) عمداً، الذي انتفض فزعاً من نومه وأخذ "يفلفص" من (يسي) قافزاً إلى الأرض، صارخاً:

- بابا عروج.. بابا عروج.

يهرع إلى عروج، الذي ينحني ليحمله، يضحك مَنْ في الحانة، فقال أحد الرجال:

- نخب بابا عروج.

هدرت الموسيقى، فتطير النوم من عيني محمد الصغير، يسكب عروج قليلاً من الماء في راحة يده، يمسح وجهه، ثم يحففه بشيابه، ينهمكان في الرقص، انهمكت الأيدي في التصفيق، خرج (يسي) ليرى جميلة ملتصقة بزجاج النافذة تراقب الرجال في الداخل؛ فالدخان يغلف الحانة بغشاء رقيق، تخترقه أصوات الرجال المتداخلة وضحكاتهم واصطكاك الأقداح، الأضواء صفراء باهتة، النادل يصب الخمر من براميل مصطفة خلفه تتخطفها الأيدي، الدموع تبلبل وجنتيها، مسحت دموعها، يقترب (يسي) بحذر.

- كلنا نحب عروجاً.

قالها (يسي) حزيناً؛ فطائر العشق ما زال فرحاً صغيراً في صدره:

- أنا أحب ابني.

للمت شالها على كتفيها.

- أسمحين لي بالسير معك؟

- لا.. وحين ينام أحضره لي.

غابت في شارع طويل متدثر بظلام الليل، يودعها بعينيه، حتى
اختفت عن ناظريه، يدخل (يسي) إلى الحانة المزدهمة، (بلانكو)
الأندلسي مُمسكٌ بالعود، يضرب الأوتار في حذر، تراص الرجال حوله،
تصغي الأذان إلى لحن أندلسيٍّ، عينا (بلانكو) تدوران باحثتين عن
صوت يشاركه الغناء.

هل ينفع الوجد أو يفيد

أم هل على من بكى جُناح؟

يا مُنية القلبِ غبتِ عني

فالليل عندي بلا صباح

أفديه من معرض تولى

لا عين منه ولا أثر

عذبني في هواه كلاً

لم يُبقِ مني ولم يـنـذـر

يا عين عيني فليس إلا

صبر على الدمع والسهر

ويفعل الشوق ما يريدُ

في كبدِ كلِّها جـراح

يا نخجل البدر لا تسلني

عن جور الحاظك الملاح

هل ينفع الوجه أو يفيد..

عَلَا الصفير من جانب الموريسكيين، صاح أحدهم:

- غرناطة، يا (بلانكو).

عدل (بلانكو) من وضع العود وضبط. أوتاره ثم عزف على مهلٍ

وفي صوت شجي:

أبلغ لغرناطة سلامي

وصف لها عهدي السليم

فلورعى طيفها ذمامي

ما بتُ في ليلة السليم

شم عروج رائحة الشوق تنبعث من قلوب الموريسكيين؛ فخاف أن

تنتهي الليلة بكدر؛ فصقَّ إيذانًا بانتهاء الليلة:

- أحسنت يا (بلانكو)، والآن يا رجال، أبوكم يأمركم

بالانصراف؛ فغرناطة تنادي، ستبحر غدًا ثلاث سفن إلى الأندلس.

تصايح الرجال فرحًا، انفرط العقد، كان آل عروج آخر الخارجين
من الحانة، الهواء بارد يثلج الصدر، يسأل خير الدين، الذي حمل محمدًا
على كتفه:

- أمعك تبغ يا (بلانكو)؟

- نقد، يا ريس خضير.

- حتمًا سنجد في الأندلس.

قالها إسحاق، (يسي) شاردٌ في عالم بعيد، نظر إلى عروج، الذي
ظلله ضوء قنديل مُعلّق أسفل شرفة.

- يا ريس عروج، لم لم تتزوج؟

توقّف الجميع عن السير، أيّ منهم لم يفكر في السؤال، حتى عروج
نفسه، خطأ صوب (يسي) ووضع يده في يده.

- لا أعرف.. ربما لأنني تزوجت البحر.. وربما لأنني أصبحت أبا
لكل هؤلاء.

واصل (يسي) أسئلته:

- لماذا يحبك محمد؟

- لأنني أحبه.. إذا أحببت شخصًا فاجعل تصرفاتك تخبره عن

حبك.. أفهمت؟

ينسحب (بلانكو) و(يسي) عند باب البيت؛ فيسأل خير الدين أخاه:

- أتظنه يحبها؟

- ما لكم يا قوم؟ كلكم تسألونني، أنا مستوّل عن قلبي ولستُ مستوّلًا عن قلوب الآخرين.

- وقلبك يحب مَنْ؟

- أحب محمدًا ولا أحب أمّ محمد، أتعرف لماذا؟.. لأنني أحب الأطفال وخاصة أطفال الموريسكيين، فحين تنظر في عيونهم، ترى نظرات مشوبة بإحساس الغربة والخوف، في عيني محمد كانت نفس النظرة، حين ضممته إلى صدري ذابت تدريجيًا، وحل مكانها نظرة عشق رائي بلا شوائب.



البرد القارس حبس الجميع عن الإبحار، فقام اللوندات والموريسكيون وأهل الجزيرة بتقطيع الأشجار، ثم تقويس خشب الزان أو الصنوبر لأطراف السفينة والغلاف الخارجي، يفصل خير الدين و(بلانكو) خشب السرو؛ ليصنع منه الرجال السواري والأعمدة، تساءل (يسي):

- لماذا تقطع الأشجار، يا باش ريس، في هذا الوقت؟

- في هذا الوقت من العام تكون الأشجار أقل حيوية.

فانهمك عروج في تدريب الرجال على القتال.

خير الدين يوقظ الرئيس عروج من غفوته.

- ماذا لديك يا خضير؟

- البصّاصون عادوا من البحر، يقولون: إن سفينة فرنسية قادمة

من العالم الجديد مُحمّلة بالقمح.

يقفز من فراشه.

- أعدّ إحدى السفن.

- كل شيء مُعد، نحن في انتظارك.

- أصبحت رئيسًا، يا خضير.

تأجج البحر بهجمات عروج مرة وخضير مرة، يعودان بالقمح مرة وأخرى بسفينة إنجليزية تحمل أقمشة الجوخ، زيارتهم لشواطئ الأندلس لا تتوقف لحمل الفارين من بطش محاكم التفتيش، في كل عودة ينتظر محمد الرئيس عروجًا، يتسلل (يسي) إلى خيمة جميلة حاملة لها القليل من القمح أو قطعة من القماش تُصلح ثوبًا لها، وفي كل مرة تقدم له طعامًا لم يذقه من قبل، مثل: "أمك حورية"، و"المرمز" و"الشكشوكة النابلية". أشد ما أعجبه التفايا؛ فسألها:

- في المرة السابقة كانت التفايا، وتزعمين أن هذه تفايا أيضًا.

تهز رأسها بالإيجاب:

- في المرة السابقة كانت التفايا الخضراء قد أضيفت إلى لحم ضأن كزبرة ناشفة وبعض التوابل، أما ما التهمته الآن فهي التفايا البيضاء، أضيف إليها كزبرة خضراء مستحلبة.

- لا أفهم كثيرًا في فن الطبخ، ولكن طعامك لذيذ.

أما الحلويات فكانت تعدّها لآل بابا عروج ومعهم (يسي)، يخبرهم (بلانكو) باسم كل أكلة.. هذه.. "السنيرة" وفي المرة السابقة كانت الملبس وفي اليوم التالي "الصمصا".

(١٤)

- صفه لي.

قالها الملك (فرديناندو)، فتحدّث (إكسيمنس):

- يقول البحارة: إنه ذو لحية وشاربٍ أحمر، يتقن سبع لغات.

- من هذا الرجل، الذي لا يأبه لسلطاننا؟

يقعد على العرش مفكرًا في المصائب التي تتساقط متتالية من فوق جبل شاهق، فطفله الوحيد مات صغيرًا، وتداعت كل الأحلام التي شيّدها عليه ليرجع إلى العرش، مهددًا بوصول أحد حفيديه ليتولى الحكم أو ابنه غير الشرعي ألونصو، والآن يأتي هذا الرجل ليترك جثث جنوده على الشاطئ ويرحل بالفارّين من الموريسكيين، يرفع رأسه ناظرًا لـ (إكسيمنس).

- هل تضاعفت الحراسة على الشاطئ؟

- نعم، لكن الجنود يحتاجون إلى دعمٍ معنويٍّ يبرهن على قوتنا.

- ماذا تقصد؟

- قالت بعض عيوننا: إن عبد الرحمن والي بجاية رحل للقاء
بارباروسا.

يقاطعه الملك:

- بارباروسا.. ذو اللحية الحمراء، أتقصد ذلك القرصان؟

يومي برأسه إيجاباً:

- نعم، يا مولاي، بالطبع طالباً منه العون.

ما أثار ضيق (فرديناندو) ليس هروب الفارين من الموريسكيين؛
فهم يتركون أرضهم ويوتهم لمحاكم التفتيش وتضعف قوة الثوار؛
وليس القتلى الذين لم يتجاوزوا في المرة الواحدة سبعة أو ثمانية، ما أثاره
تعرض بارباروسا لسفينة حربية بها خمسمائة مقاتل، ودارت بينهما معركة
في قلب البحر انتهت بهزيمة الجنود، فمنهم قتلى والآخرين أسرى
وأرسل مع أحدهم فدية لكل مقاتل، نساء الجنود يتادين بعودة رجالهم.

حدّق الملك في وجه (إكسيمنس):

- سنعدّ لبارباروسا مفاجأة لن ينساها.

انطلق الملك في الغناء، صدى الصوت يتردد في أركان القصر.

(١٥)

غابا معًا في قبلة، دفعته برفق، تأملت وجهه على ضوء القنديل،
مَسَدَ شعرها هامسًا:

- أحبك.

انفلتت من يده وجلست على مقعد بعيدًا عنه، صوتها مخنوق
بالدموع:

- وأنا أحب محمدًا.

- محمد يحب عروجا.. وعروج لم يتزوج.

يضرب جدار بيتها الجديد غاضبًا، تسرع إليه:

- افهمني يا (يسي)، ليس لي سوى محمد، خسرت أبي وأمي
وأخوتي، داري، سرقوا حتى الفرحة الساكنة في صدري، حرموني أن
أطوف في شوارع حيّنا بقشتالة، سرقوا عمري الماضي، أتعرف طعم
الطرد من وطنك، الذي تحمله في صدرك؟ وهم لا يتورعون عن

التفتيش بين ضلوعك عن هذا الوطن؛ ليدوسوه بأحذيتهم. سرقوا من محمد أباه الذي مات من قسوة التعذيب، حملوا صكوكًا مزورة قائلين: إنه باع ممتلكاته لهم، تسَلَّلْتُ بصغيري إلى الجبال، تواريتُ وانسللت هاربة به، وأنا صغيرة أخذتني أمي لأشاهد قصر الحمراء، القصر قاعد هناك، بينما أنا هنا أتساءل: هل سيراه محمد يومًا؟

تمالك (يسي) غضبه، يخطو صوبها ثم يركع أمامها:

- مع كل هذا أحبك..

- حتى لو عرفت أنهم اغتصبوني، حرمني متعة الحب.

- لا ذنب لك.

- أخشى أن تلومني يومًا.

يقبل يديها:

- أحبك.

- وأنا أحبك.

يقبلها بقوة كادت تضعفها، دفعته نائرة:

- ارحمني يا (يسي).. انصرف..

يصفق الباب بشدة غاضبًا، بَكَتْ خلفه، خطوتين وصوت

(بلا نكو) يطارده:

- ترفق بها.

التفت نحو الصوت، يسترسل (بلانكو):

- هي تحبك وكلنا نعرف ذلك حتى عروج نفسه.. أصبر.

- لا أطيق فراقها.

- تعال، خضير يجمع الرجال.

سار بجوار (بلانكو) شاردًا يلفُّهما الصمت في الحانة، كان خير الدين يتحدث مع الرجال.

- ستتحرك إلى بجاية مرورًا بمليانة وميديا ونينس، سنرحل الليلة.

بعد زيارة عبد الرحمن لهم لم يجدوا بُدًا من الاستجابة لنجدته، يتأمل (يسي) سيفه، ذلك السيف الذي لم يغادر خصره قط، ورثه عن أبيه، الرجل الذي ابتلعه جوف البحر مصابًا بالحُمَّى؛ فتخلص منه عروج بإلقائه كطعام فاسد، لحظتها كرهه عروجًا، يومًا وراء يومٍ ذاب جليد الكُره، فهم (يسي) ما لم يفهمه صغيرًا، اقترب من الرئيس حتى صار ذراعاه اليمنى، لا يدري لماذا بدأ الكره ينبت من جديد؟ أيكره هذا الرجل الذي فتح ذراعيه له، انتشله من الغرق مراتٍ ومراتٍ، علّمه كيف يضرب بالسيف، كان يريد ذلك السيف، الذي ظل مُعلقًا في حجرة الرئيس، كلما طلبه منه، رفض بشدة، كلمة من حرفين قاسية، سمعها منه كثيرًا:

- "لا..".

يومًا أنقذه عروج من الغرق وهم يهاجمون ودثَّره بغطاء، جلس
(يسي) على ظهر السفينة يبكي، حتى جفت دموعه؛ فناداه بحار.

- الرئيس يريدك.

يهبط الدرج، إلى قُمرة الرئيس، كان عروج يمضغ العشاء على ضوء
"الشمعدان"، والقناديل موزعة في حجراته خافتة الضوء.

- أمرك، يا رئيس.

- أراك بخير.

- بخير.

أوما عروج برأسه إلى السيف:

- خُذ ميراثك.

- ماذا...؟

- سيف أبيك.

أسرع إلى السيف، انتزعه من فوق الجدار، التردد في عين (يسي)،
أردف عروج:

- ستتعلم معي المبارزة والقتال، بعدها سأعرف هل ستكون من

رجالي، أم سأتركك ترحل في أية سفينة تريد؟

تبارزا في الحجرة، سنحت الفرصة لعروج أكثر من مرة لقتل

(يسي) ولم يفعل، منحت فرصة لـ (يسي) لقتل عروج، تردد للحظات، عرف في تلك الليلة أنه لا يكره عروجاً ربما كان ما في صدره رعوثةً صبا أو طيشاً أحق، نظر عروج في عيني (يسي) يسبر بنظراته ما في قلبه.

- إذا شئت ابقَ معي.

- معك، يا ريس.

لم يسأله يوماً الرحيل.

يوم قتل إلياس كانت نظرة الحزن على وجه عروج، قذف (يسي) بنفسه في البحر، سبح مسافة يجهلها، حتى أمسك به فرسان القديس يوحنا؛ فادّعى أنه مسيحي، ذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد، سأله عن سر عمله مع عروج، قال:

- خوفاً من بطشه، فأمي وأختي هناك رهيتان.

اشتراه قس وأعتقه أملاً في إرضاء الرب، في الليل تسلل إلى الكنيسة، سرق سيف أبيه من فوق حائط في غرفة القس.

- أدعو الرب أن يتقبل جميل صنعك.

في نفس الليلة لحق بسفينة تغادر الجزيرة.

والآن يكره حب محمد لعروج، ذلك الحب الذي يقف عائقاً أمام حبه الجميلة، ربما تتزوج من عروج حتى ينعم محمد بحبه وحب أمه، ستقتل حبهما من أجل صغير.

- (يسي).. (يسي).

- الرئيس خضير؟

- هيّا يا رجل.. استعد للرحيل.

- أنا مستعد في كل وقت، يا ريس، فليس لي زوج أودعها أو دار
أوصدها.

- على الأقل، تودّع جميلة.

ارتبك (يسي)، فأردف خير الدين:

- هيّا، يا رجل، ودّعها، والحق بنا في الميناء.

انطلق (يسي) إلى دارها، القابعة عند أول شارع يؤدي إلى قلب
الجزيرة، أجهده السير، قرع الباب بقوة، انزعجت.

- (يسي)، ماذا بك؟

- سرحل إلى بجاية، جئت لأودعك، أنت كل مالي في هذه
الجزيرة.

طبع على خدها قبلة، خطا بضع خطوات، فنادته، التفت، أسرعت
إليه، احتضنها بقوة، تلامست شفاهها، انفلتت من بين ساعديه، عادت
لتودعه من شرفتها، لوّحت له مودعة فتحرك من مكانه.

السفن تتحرك ببطء، ألقي نفسه في الماء، صعد على إحدى السفن
قفز من سفينة إلى أخرى، حتى وصل إلى سفينة الرئيس، كان (بلانكو)
يتأمل صورته ابنته، سأله (يسي) عن عودته، أسرع أحد البحارة لإحضار

العود، طلب (يسي):

- اعزف..

- أي لحن؟

- الحب يجنيك لذة العذل واللوم فيه أحلى من القبل

تلاّلات الألحان من أوتار العود، يصاحبها صوت (بلانكو)،
مكملاً الأبيات:

لكل شيء من الهوى سبب جد الهوى بي وأصله الحب

وأن لو كان

جد يغني

من الحُسن

تراقص الرجال وصوت (بلانكو) يشبعهم طرباً، انقلب سطح
السفينة إلى حلبة رقص، شارك فيها الموريسكيون والبحارة من أهل
الجزيرة، غشي السفن الرقص من واحدة لأخرى، فآزعجوا بصخبهم
كائنات البحر ونسائمه، من ميلانته وميديا ونيّس، الفرح يداعب
القلوب، توقفت السفن بالقرب من بجاية، التي أصبحت على مرمى
البصر، اللوند الواقف أعلى الساري يتنادي:

- يا ريس، أربع سفن إسبانية.

يشير عروج إلى جانب آخر، بدأت الشَّفاةُ في إحصاء السفن، تكَلَّم
خير الدين:

- المجموع خمس عشرة سفينة، أسطول إسبانيا يرحَّب بنا، يا ريس،
وجهاً لوجه.

تمر الثواني ثقيلة، تساءل عروج:

- كم عدد سفنتنا؟

- سبعة يا ريس.

أجابه (بلانكو)، ثقل الصمت يزعج الجميع، تحدث عروج:

- الضَّعف.. خضير، علينا بالانسحاب.

قبل أن يتفوَّه خير الدين بأية كلمة، التفت إليه عروج، أشار خير
الدين إلى اللوند الواقف بجوار ساري الراية، بدأ اللوند في إنزال الراية
مسافة محدَّدة، فهتت السفن الأخرى أمر الانسحاب بعيداً عن الميناء،
الرجال في حالة من الضيق، لم يتوقع أحد أن يصدر الريس أمراً
بالانسحاب، الوحيد الذي وافق عروجاً هو خير الدين، الذي اقترب
من أخيه، الأسطول الإسباني يطاردهم، يقف خير الدين ثم اقترب
(يسي)، كل ما يردده عروج:

- الصبر.. الصبر.. الصبر.

المسافة تضيق بينهم وبين الأسطول الإسباني، رفع خير الدين

وعروج أيديهما لأعلى ثم خفضاها في لحظة مناسبة، رفع اللوند -
الواقف أعلى ساري الراية- الراية بسرعة.

تلقت السفن الإشارة في لحظة واحدة، فانطلقت دانات المدافع،
تصيب السفن الإسبانية، ترفع الرايات إلى أعلى فتقترب السفن بسرعة
تزداد مع إشارات زيادة السرعة لمواجهة الأسطول الإسباني، الذي
أربكه هذا الكر المفاجئ، يتراقص (يسي)، وهو يشير إلى سفيتين.
- سفيتان تغرقان، ياريس.

القوارب تمتلئ بالرجال، يقودهم خير الدين نحو أقرب السفن
مستترين بدانات المدافع المتواصلة، يصعدون إليها، يقاتلون بصدور
عارية، صراخهم يبعث الخوف في الجنود الإسبان، يأمر خير الدين
(يسي):

- إلى هناك.

يتابع الإشارة.

- أمرك، ياريس.

يقفز (يسي) إلى أقرب السفن، دقائق ويتحرك بقوارب صوب
سفينة شاردة عن باقي الأسطول، يتقدم عروج بقيادة مجموعة أخرى
من القوارب إلى سفينة ثالثة ويتولى (بلانكو) قيادة السفينة الرئيسية،
سفينة أخرى تغرق مخلفة وراءها فجوة كبيرة ثم تنسحب المياه وراءها؛

معلنة نهاية أمرها، صوت لوند:

- يا ريس، ست سفن تَفِرُّ.

يتشتت الأسطول، سفن تقترب إلى الشاطئ، وأخرى تفرُّ إلى إسبانيا، يلتقي الأخوان فوق إحدى السفن، يتحدث عروج لأخيه:

- خضير، اترك لي سفيتين، ارحل مع (بلانكو) وباقي السفن إلى الجزيرة.

يقفز عروج إلى قاربه ثم يلحق بإحدى السفن، تتشابك بعض القوارب بالسفن، يتصاعد الجنود، تلتصق السفن ببعضها البعض لنقل الأسرى إلى سجنهم في باطن السفن مقيدين، يقود خير الدين الأسطول إلى جزيرة جربة، بينما يلحق (يسي) بعروج، يقود كل منهما سفينة، القشتاليون يفرون إلى الشاطئ، يتحدث عروج:

- هناك سفن إسبانية رست على الشاطئ، سنطاردهم.

ينزل مع خمسين مقاتلاً من رجاله وبعض المدافع، بينما يواصل الجنود الإسبان فرارهم إلى قلعة يتحصّنون بها، يحاصرها عروج، يقصفها بالمدافع مرات ومرات حتى أحدث فجوات في جدرانها، يمتد الحصار لثمانية أيام متتالية، يتبادل خلالها القتال مع المحاصرين، تطلق القلعة داناتها على رجال عروج، الإرهاق أصاب الرجال، أغمض عروج عينيه من الإجهاد، مدافع القلعة تضرب من جديد.

تنطلق صرخة عروج:

- آآآه.. ذراعي.

يتبادلون طلقات المدافع؛ فسكتت مدافع القلعة من شدة قصف رجال عروج عليها، الدماء تسيل من ذراع عروج.

- ذراعي يا (يسي).. ذراعي اليسرى.

يزعق (يسي):

- تراجعوا على مهل إلى السفينة.

يبدأون في تبادل الطلقات مع مدافع القلعة، نجح (يسي) في الانسحاب محافظاً على الرجال.

- لا تقلق يا ريس، أصبحنا في مأمن من مدافعهم.

وجه عروج متعرق:

- كنت أود الاستيلاء على القلعة.

شفتاه تتمتان:

- ذر.. اعي..، ذرا.. عي..، ذو.. ر.. ا.. ع.. ي.

يربطون ذراعه حتى تتوقف الدماء عن التدفق، يحملون عروجاً على محفّة، يستند عروج على (يسي)، يفیق لحظة ثم يفقد الوعي، يساعد (يسي) بحار آخر، موريسكي ينادي:

- قارب.. قارب.

يدفعون قاربًا إلى الشاطئ، يضعون عروجًا في محفّة ويدفعون القارب إلى البحر، الدماء تبلل قميص عروج، له أنينٌ خافتٌ منذ غاب عن الوعي، يواصلون التجديف إلى السفينة القرية، يهبطون إلى قمرته، يضع شيخ موريسكي سكينًا على نار، احمرّ السكين ثم ابيضّ، نظر إلى (يسي)، الذي تحدث لرجلين يحيطان بفراش المصاب:

- أمسكوه جيدًا.

يكوي الشيخ الجرح الغائر، يصرخ عروج بشدة، بينما يأمر (يسي) القوات بالانسحاب، تتراجع السفيتان إلى البحر، في هدأة الليل يتأمل (يسي) ذلك النائم أمامه، يذوب كرهه تدريجيًا نحوه، شيء ما يجذبه نحوه، شيء تضعف أمامه مشاعر الكره، تتوارى خلف شموخ هذا الرجل الممدد على الفراش فاقد الوعي والدماء تبلل ثيابه، يدخل ثلاثة من الرجال، في وسطهم رجل نحيف طاعن في السن، يتأمل ذراع عروج، ينظر للموريسكي، يومئ الموريسكي بحزن:

- منضطر للبت.

يقترّب الرجل الطاعن في السن بوجهه من ذراع عروج، يتحسسها بأصابعه، يتحدث، كأنها يكلم نفسه:

- إذا تركناه هكذا سيموت قبل أن نصل إلى جربة.

يسط الموريسكي أدوات الجراحة على مقعد خشبي.

- سيتألم.

انفلتت من (يسي)، تحدث الرجل الطاعن في السن:

- إنه يهذي من الحمى، علينا بالإسراع، فإن الذراع تنزف بلا توقف.

- انقلوه إلى هذه المنضدة.

يدخن الرجل بايب محشواً بالتبغ، يتر الرجلان ذراعه ثم يكويان الجرح، صراخ عروج يتصاعد إلى السماء، ثم يسقط مغشياً عليه، أنين عروج مجدول في بعضه البعض، يرقبون حركة صدره بين شهيق وزفير، يجففون عرقه، يُخْرِج الرجل من جراب معه لفافة بها بعض الأعشاب، قائلاً:

- هذا نبات الفيجن، ينجي من التسمم.. وهذا خليط من الرنجان والنعناع.

يهز (يسي) رأسه.

- ليقويا صحته بعض الشيء.

يخرج الرجل لفافة ثالثة:

- أما هذا، فهو الحبق، أقصد العشب الملكي، يشرب قدحاً من كل نوع ثلاث مرات في اليوم الواحد.

قطرات دم تنحدر على بساط الغرفة، (يسي) يتأمل الجسد.

- آسف، يا ريس.

لحق بالرجال حاملاً الذراع المبتورة في موكب جنازتي، الصمت يقبض على الصدور العارية، يلقوها في البحر، ترسم في رأسه صورة قاع البحر على هيئة كهف تتجمع فيه أجساد الغرقى.. أبوه.. إلياس.. ذراع عروج.. يذوب اللحم وتبقى الهياكل العظمية؛ فتتحرك بجوار الأسماك، يتعارفون ليقفوا معاً إلى أمد بعيد.. بعيد، تغفو ليلاً وتتحرك نهائياً.

يفيق من شروده، يتجه لفراشه حزناً فلا تزال جميلة تسكنه، يتناوب الشيخان رعاية المريض، في إحدى المرات قال الموريسكي:

- الريس يحتاج إلى غذاء جيد، دُبروا الأمر حتى نصل إلى الشاطئ.

تذكر (يسي) طعام جميلة بمذاقه الطيب، حتماً كانت ستعد وجبة دسمة، تنهافت عليها الأيدي، الآن ماذا يقدم، فالسفن لا تحمل في جوفها سوى الخمر والماء العذب، اللحوم المجففة، الدجاج المجفف، ماذا يقدم لعروج؟ ليس أمامه إلا الصيد من البحر.

ألم تخافتُ وحاداً منفرز في لحم ذراع، يدير عروج رأسه، كل شيء حوله شاحب وخافت.

- ذ.. را.. عي.. آه.



ترسو السفيتان، برق يبهط الرجال بالمحفة، يندفع خير الدين نحو

أخيه، يمسكه (يسي).

- إنه بخير، سيكون بخير.

عروج يتجول في غابة سوداء من الألم، يرتبط بمن حوله ببصيص
من الأمل، يفيق.

- ذرا.. عي.. ذرا.. عي.

ثم يغيب، الدموع على وجهه (بلانكو)، عشرات الأيدي من
اللوندات تتعاون في فتح الأبواب، والصعود بالمحفة إلى الحجرة، أراح
إسحاق أخاه على فراشه، تدخل حبيبة.

- سهيلة تسأل عنك.

التفت إليها باكياً.

- يا ربي (تخطو صوبه تحتضن رأسه).. تماسك يا إسحاق.

- ألا تعرفين من هو؟ إنه عروج.. أخي.. أتعرفين معنى أخ؟ ليتني
خرجتُ معها للقتال.

- أنت بقيت لتتولى أمر الجزيرة، وزوجتك تعاني ألم الوضع.

- إلى الآن لم أَسْمُ رضيعي، عندما يفيق سيسميه كيفما يشاء.. كيفما
يشاء.

يدخل خير الدين؛ ليصطحب إسحاق إلى الخارج، يبطون إلى

الطابق الأرضي، يقص (يسي) كل ما جرى على شاطئ الجزائر، يدخن
خير الدين البايب، يتأمل سحب الدخان، يجلس على أحد المقاعد.

- أصبحت حربًا علنية، يا (يسي).

يقرب إسحاق من أخيه الأصغر، الضيق يمتلكه.

- قلتُ لكم ألا تغادر الجزيرة، ينفجر خير الدين:

- لا وقت للتراجع، يا إسحاق.

ينسحب (يسي)، يسترسل خير الدين:

- أنسيت إلياس؟ أنسيت الموريسكيين؟

- لم أنس؟ ولم أنس أيضًا أنهم يمتلكون الأرمادا.

- نحن حاربناهم وجهًا لوجه.

- إنها معركة صغيرة.

- قل ما تشاء، لكنني لن أترجع، حتى لو تراجع عروج نفسه،

(يلتقط أنفاسه)، لن يتركونا نتاجر كما كنا، لا خيار أمامنا.

لم يكن (يسي) أفضل حالًا من إسحاق، التفت إلى محمد الممدد على

أريكة في دار جميلة، يقاوم النعاس، فسأله:

- أنتحب بابا عروجًا؟

يهز محمد رأسه بالإيجاب، ينظر (يسي) إلى جميلة وهي تضع صَحْفَةً
عنب أمامه؛ فأجابت على نظراته المتسائلة.

- وأنا أيضًا أحبه.

مالَتْ ملامحُ (يسي) للحزن، هز محمد ذراعه:

- قل لي يا عم (يسي)، أين ذهبت ذراعه؟

- سبقته إلى الجنة.

- أتجبه يا (يسي)؟

أطلق زفرة، قبل أن يجيب عن سؤال جميلة:

- قبل أن يُصاب لم أسأل نفسي هذا السؤال، وإذا سألتني قبل هذه

الرحلة لأجبتك، بأنني لا أعرف، أما الآن سأقولها بكل صدق: إني
أحبه.

نام محمد على الأريكة، فعدل (يسي) من وضع الصغير، وأردف:

- تأخر الوقت.

- أين ستذهب..؟

- سأسير قليلاً.



أفاق عروج من نومه، مستلقياً على الفراش، يجتهد في تذكُّر ما

جرى له، فاضت الدموع من عينيه، كففها بيده، اجتهد ليعتدل جالسًا، صوت خافت، التفت ليجد رضيعًا يشاركه الفراش، تأمله، أقدام تدخل الحجرة، ينظر للداخلين، (يسي)، (بلانكو)، خير الدين، يتقدمهم إسحاق، ضحك عروج، مسح وجهه ولحيته بباطن يده.

- الألم شيء إنساني..

يساعده خير الدين و(يسي) في الجلوس، يضع إسحاق رضيعه في حجر أخيه.

- سهيلة قالت: دع عروجًا يختار اسمه.



عانت سهيلة آلام المخاض والجميع في عرض البحر عدا زوجها، الذي بقي ليرعى أحوال الجزيرة، ويستقبل الوليد، الذي جاء بعد طول انتظار، فظل طوال الليل يصلي ويرفع يديه بالدعاء؛ فتشعب الدعاء إلى دعوات كثيرة.. أن تخرج سهيلة من آلام المخاض بخير.. أن يرزقه الله الولد.. أن يرجع أخواه سالمين.. أن يولد مولوده بخير وعافية.. ظل يدعو حتى سمع صوت الرضيع بعد صلاة الفجر؛ فتعالت زغاريد النساء، تخرج إليه حبيبة حاملّة الرضيع وتحفّفه بمنشفة، الرضيع لا يكف عن الصراخ، ارتجفت يدا إسحاق قبل أن تلمسها، اغرورقت عيناه بالدموع، مس جبينه بشفتيه.

- وهي؟

- بخير.

جرى إلى حجرتة، سهيلة غارقة في بحر من العرق، وجهها شاحب، هالات سوداء أسفل عينيها، يقبل جبينها، ظلا يفكران في الاسم، فاقرحت زوجه:

- دع عروجا يختار الاسم.

ابتسم راضيا، ذبح عددًا من الذبائح، وزّع منها على الفقراء، جاءت جميلة تحمل صينية عليها الحلوى، التي أحبها إسحاق "السنيرة"، ووزعتها على الحاضرات.



يمسح عروج على رأس الصغير مرات، مفكرًا:

- نسميه مصطفى.. مصطفى إسحاق كما قال أبي.

تدخل جميلة تحمل صينية بين يديها، تتوسطها دجاجة وأرز ومرق وبعض ثمار الفاكهة وحلوى السنيرة، ابتسم عروج:

- أحسنت يا جميلة.

- اتركوه ليستريح.

سحابة حزن تغشى وجه (بيي)، كان أول الخارجين، ذهب هنا وهناك، حائرًا لا يدري أين يقف؟ كل شيء حوله بلا طعم، شيء ما تائه منه، دخل الحانة وبعض الرجال يطلبون من (بلانكو) أن يغني؛ فرفض

وارتكن بجوار أحد أعمدة الحانة، المشاحنات تشتد بين البحارة،
الشائم تتعالى ثم تنخفض، تنهشم بعض القوارير، فرقة بالأصابع
بالإبهام والوسطى، كلٌ يمزأ بقول صاحبه، تتقل المشاجرات من منضدة
لأخرى، الثملون يتخبطون، تأملهم (يسي)، ثم خرج إلى الشاطئ
والهواجس معه.

"الشفقة أول درجات الحب.. ماذا لو كان عروج شقيقي؟ ..
يكفي أن أرى جميلة سعيدة، ولن تكون سعيدة إلا إذا كان محمد سعيداً،
ولن يكون محمد سعيداً إلا مع عروج..".

قعد على الشاطئ متأملاً البحر الغائب في كهف السواد، تذكر قول
والده:

"كانوا يسمونه بحر الظلمات.. بحر الظلمات".

أحس باختناق في حلقه، يتصبب عرقاً، سكبت عيناه دمعين أو
ثلاثاً.

- ماذا يبكيك، يا (يسي)؟

سأله (بلانكو)، التفت (يسي):

- لا شيء.

- بل أجهل شيء: الحب.

- لا، التضحية.. كفكف دموعك.. تعال نرجع إلى الحانة.

تأمل (يسي) كف (بلانكو) مبتورة الإصبعين، أو شك أن يسأله
كيف يعزف بأصابعه الشماني، ابتلع سؤاله، تردد في العودة فأمسكه
(بلانكو) من يده وقاده إلى الحانة كصغير في يد والده، بدأ (بلانكو)
العزف على العود محاولاً كسر رتابة الليل اللزجة والوقت ثقيل القدمين،
صوت ينطلق:

- كيف الحال، يا رجال؟

تدور الرءوس ناحيته، عروج بجواره محمد الصغير، قفز (بلانكو)
فوق إحدى الطاولات، بجنون الفرحة ضرب أوتار العود، غاب لشوانٍ
في نشوة الفرح، قبل أن يقول:

- عاش بابا.. عاش بابا.. عاش بابا.. عاش بابا.

يردد خلفه كل من في الحانة، تتفجر شرارات الفرح، تتراقص
الأجساد، تصفق الأيدي، الأرجل تدك الأرض، يقفز (بلانكو) إلى
الأرض، خير الدين وإسحاق يدلّقان إلى الحانة المزدهمة، (يسي) يجذب
خير الدين إلى المنتصف، يدفع الرجال المتناضد إلى الأركان، ينهمك
(يسي) في الرقص مع خير الدين ثم مع إسحاق، عشرات الرجال
يرقصون ويشاركون الفرقة الموسيقية العزف، جاءت بعض النساء
للمشاركة في الرقص، ازدحمت الحانة، في الخارج الكل يرقص، تسلك
الرقص إلى البيوت والخيام، يحملون عروجاً ويقذفونه لأعلى، عشر
(بلانكو) على لحن أجمل، رددته كل الأفواه:

- بابا يا بابا.. أنا بحبك يا بابا

في وسط الشارع وقف عروج فوق مقعد وُضع فوق طاولة، كيف
وصل إلى هذا المكان؟ لا أحد يعرف، ينظر أمامه، عشرات من البشر
يختفون في ظلمة الليل المطعون بأضواء القناديل المتناثرة بطول الشارع،
صاح عروج بأعلى صوته، ملوِّحًا بذراعه اليتيمة:

- أجمل ما في الكون: صحبتنا وأجمل مكان لصحبتنا:

في صوتٍ واحد ردد الرجال:

- البحر.. البحر.. البحر.

زعم عروج:

- الأندلس تناديننا.

أنا بحبك يا بابا

- يوووه.. بابا يا بابا

(١٦)

انتهى الطبيب من الكشف على الملك (فرديناندو)، في صوتٍ منخفض:

- مولاي، أصاب جلالتك مرض الاستسقاء.

يغمض (فرديناندو) عينيه:

- ألا يكفيني آلام الربو - يشير بزهق لـ (إكسيمنس) - أصحابه للخارج، أيها الأب.

انتظر خروجهما من حجرتة، حطّم كل شيء يقع في يده، حاول الاعتدال من نومه، أصابه إرهاب الصدر، سعل بشدة، حتى احمرّ وجهه.

- الريشة والقرطاس، أيها الحاجب.

صوته وصل واهناً لأذن (إكسيمنس) الواقف على بعد خطوات من حجرتة يتحدث مع الطبيب، الذي أجاب عن سؤال طرحه عليه الأب:

- في عبارة أبسط الاستسقاء، يحدث عندما تفوق سرعة الترشيح

عن سرعة الامتصاص.

استأذن الطبيب، يخطو (إكسيمنس) إلى مخدع الملك مفكرًا مع كل خطوة في أمر شبه جزيزة إيريا، فالأخوة البارباروسا يهاجمون الشواطئ على فترات متباعدة، عيون الفرنسيين تتسلل إلى القصر، حتمًا سيعرفون بمرض الملك، في الداخل المجالس البلدية والنبلاء يريدون فرض سيطرتهم على الدولة، يزفر في ضيق، وهو يدفع الباب داخلًا إلى الملك؛ فيجده يخط كتابًا، العرق يتصبب من جسده.

- (إكسيمنس)، ستكون نائبًا على قشتالة وسيكون شارل نائبًا على أرجون.

انحنى (إكسيمنس)، منسحبًا للخارج، أغمض (فرديناندو) عينيه، ترسم صور مشتة.

ها هو ذا يضاجع النساء.

ها هي ذي (إيزابيلا) بين يديه.

ها هو ذا ولده غير الشرعي ألونصو.

ها هو ذا يدير دفة القتال مع الثوار، بجيش كبير عند جبل البشرة..

يكتب خطابًا إلى حفيده:

"حفيدي العزيز / سيصلك خطابي هذا بعد رحيلي عن هذا العالم، أوصيك بحماية الكاثوليكية، واختيار المحققين ذوي الضمائر، الذين يخشون الله كما يجب، عليك استئصال شأفة الموريسكيين من شبه جزيرة

إيبيريا، لا تتردد أبدًا في إحراق اليهود، فهم قوم يسبّون النصرانية ويهارسون الربا والسحر، كما أوصيك أن يدفن جثمانى بجوار جدتك (إيزابيلا).

الملك فريناندو"

قبل أن ينصرم العام يموت (فرديناندو)، الذي أوصى (إكسيمنس) أن ينقل رفات الملكة (إيزابيلا) إلى قبره في كنيسة صغيرة في غرناطة، كَتَفَ (إكسيمنس) من الجنود على الشواطئ الأسبانية، أرسل البصاين في كل البلاد للإبلاغ عن المسلمين ودفعهم إلى محاكم التفتيش، الشيء الوحيد الذي أَرَقَ مضجعه هؤلاء المدعون من مجالس البلدية، الذين يطمعون في استعادة سلطانهم؛ فاجأه الحاجب.

- النبلاء في انتظار جلالتك.

واصل قراءاته اليومية في الإنجيل، هز رأسه دون أن يجيب، يعلم تمامًا أنه سيثير ضيقهم وسخطهم، ربما يندفعون إلى حجرته صارخين في وجهه، أتمَّ قراءته، واصل السير بجسده النحيل دون انحناء، ينظر من إحدى النوافذ، إلى المدافع التي ملأت فناء القصر، يدفع الباب على النبلاء، يصرخ أحدهم:

- بأي حق تمنع امتيازاتنا؟

رمق (إكسيمنس) الرجل بنظرة ازدراء، اتجه إلى الشرفة وأشار إلى

المدينة:

- هذا حقي .

ربما لم يعرف أنهم أبرموا عهدًا منذ وفاة (فرديناندو) بالإرسال إلى شارل الخامس ليتولى حكم شبه جزيرة إيبيريا، فلا يزال صغير السن لم يتجاوز السابعة عشرة ويستطيعون هم السيطرة على البلاد وعودة نظام الإقطاع، وربما عرف (إكسيمنس) أنهم يدبرون هذا الأمر فلم يبال، يرسلون رجالهم إلى الميناء ليرقبوا وصول شارل إلى ميناء ستندبر الواقع على خليج بسقاية، لاحت السفن في الأفق، وصل شارل بصحبة أربعة آلاف جندي ألماني، يتأمله النبلاء، بارز الفكين وهذا البروز يضيء على وجهه سمات البكّة خاصة مع وجهه المستطيل الشكل، تقدم أحدهم لتحيته، تقدم مترجم لنقل التحية إلى الألمانية.

- مولاي يجهل القشتالية.

ليس جهله بالقشتالية فقط ما يعانيه شارل، بل غربته عن شبه جزيرة إيبيريا، في إحدى القصور القريبة من المرفأ، على ضوء الشموع الموزعة على منضدة تَسع عددًا يتجاوز العشرين فردًا بخلاف شارل، يواصلون قصصهم عن تعنت (إكسيمنس) وقسوته واستبداده.

- إنه يا مولاي يدّعي التقشف ومع هذا جمع ثروة شخصية ضخمة خلفها إلى جامعة القلعة..

- إنه مدع.. كاذب.. أفاق.

كتب شارل الخامس رسالة:

"إلى الأب (إكسيمنس).

نشكركم على خدماتكم للبلاط الملكي وعليكم مغادرة القصر إلى
مقركم الديني في طليطلة؛ لتنعم بالراحة التي يستحقها رجل في عمركم
الموقر..

الملك شارل الخامس"

صورة عمته مارجرت هابسبورج، بثوبها الفضفاض وتسريحة
شعرها المميزة أمام عينيه، نظراتها الزاجرة كلما ارتكب خطأ، بشاشة
وجهاها كلما تقدم في مهام الفرسان، منذ نعومة أظفاره وهي تهمس له..
الملك الصغير.. إمبراطور إسبانيا.. حفيف الثوب يخفت تدريجياً.



يصل الرسول بالرسالة إلى القصر؛ فيخبره الحاجب أن
(إكسيمنس) علم بقدوم شارل الخامس، فغادر القصر من تلقاء نفسه،
والملك يدخل إلى قصره وخلفه النبلاء، يخبرهم الرسول بما فعل
(إكسيمنس)؛ فأسرع شارل إلى حجرة مكتبه وكتب رسالته الثانية.

"الأب (إكسيمنس)

بحكم أننا شارل الخامس ملك شبه جزيرة إيبيريا

نعفي سيادتكم من كل المناصب السياسية، التي مُنِحَتْ لِيَّاهَا قبل
أن أتولى منصبِي هذا.

الملك شارل الخامس "

لَفَّ الخطاب، حَدَّثَ الرسول:

- اذهب بهما إليه، وتأكد من استلامه لهما.

يتحدث أحد النبلاء، بعد انصراف الرسول:

- مولاي حاكم تلمسان هنا، يطلب منا حمايته من ظلم بارباروسا،
يدلف محمد الخامس حاكم تلمسان ويُمَثِّلُ بين يدي شارل الخامس،
استمع الملك لأقواله، ثم أجاب:

- سنوفر لك ما تشاء من جيوش تعتمد عليها، وأسطولاً يدمر هذا
البارباروسا، وشروطنا هي كالآتي:

عشرة آلاف ليرة ذهبية تُسَدَّدُ لنا سنويًا.

مع عشرة آلاف رأس غنم وألف رأس من الماشية،

وعشرة أطنان من الحنطة، وأربعة عشر حصانًا عربيًا،

وأربعة عشر عبدًا أسود البشرة.

وافق محمد الخامس على الشروط كافة، جاءته الأخبار المتتالية،
سليم الأول سلطان الأتراك انتصر على قنصوه الغوري، ذلك السلطان،

الذي مات تحت سنانك الخيل في مرج دابق بالشام، ثم واصل سليم زحفه إلى مصر، شق سلطانها طومان باي على باب زويلة، وأعلن نفسه خليفة للمسلمين وما أثار ضيق محمد الخامس أن شريف مكة بركات بن محمد سلم مفاتيح الكعبة للسلطان سليم؛ ليصبح خادماً للحرمين الشريفين.. لذا سيأتي إلى تونس والجزائر، سيدخل بجنوده مدينة تلمسان.

يفيق محمد الخامس من شروده -وهو في قارب ينقله لسفينة- يتسم لتحالفه مع الأسبان لصد الطوفان التركي الزاحف في كل صوب، كما صدَّ المماليك بقيادة قطز زحف التتار، نسائم البحر تملأ صدر محمد والسفينة تشق طريقها إلى تلمسان، يرسمها في رأسه.. الغادين والرواح.. الأسبله.. الديار.. التكيّات.. المساجد التي تربو على ستين مسجداً، أحبها إلى قلبه مسجد الحلاوي بأعمدته الرخامية، الفسيفساء المعقدة، محرابه البديع، الساحات ذوات العقود، الخشب المحفور، مثذنته السامقة، يفيق على اهتزاز موجة عابرة، يغمض عينيه مرة أخرى؛ لسمع صرير الريشة على صحيفة المعاهدة مع الأسبان.

في تلك اللحظة، يطوي شارل الصحيفة الخاصة به، يضعها في خزانته، يتأمل الأندلس من شرفة قصره، صوت الرسول:

- مولاي، (يلتفت إليه)، الأب (إكسيمنس) مات في الطريق.

لم يصدق أحد أن (إكسيمنس) مات، هو نفسه لم يتوقع أن يموت قبل أن يصل إلى طليطلة، أغمض عينيه، غاب في سبات عميق، متذكراً

مليكته (إيزابيلا)، التي أخلص لها، ها هو ذا اطمئن الآن على المملكة،
ربما يحتاج إليه شارل في بعض الأمور، لكنه سيعتزل الحياة، زهد في كل
شيء، آن له أن يستريح، بعد سنوات طارد فيها اليهود، الذين ملأوا
الدنيا بهرطقتهم وسحرهم، وكذلك المسلمين، استطاع أن يعيد إلى
حظيرة الرب ليس العشرات بل المئات، أشد ما يحزنه من يهربون من
طريق الرب، ألم أصاب قلبه فنادى على الحوذي، صوت اصطكاك
العجلات بالطريق ابتلع صوت الأب (إكسيمنس)، زعق بقوة، سمعه
الحوذي بعد فترة مرت ثقيلة على الأب، توقفت الجياد، فتح الحوذي
الباب، رمقه الأب بنظرة جهل معناها الرجل، ثوانٍ أسلم الأب الروح.

(١٧)

آثر خير الدين الصمت، فهذه هي المرة الأولى، التي يخرج فيها إلى شواطئ الأندلس وحيداً بدون عروج، الرياح تداعب الشراع، بينما هناك على شاطئ الجزيرة، سهيلة تدلل رضيعها، إسحاق يدرب عروج على القتال بالوضع الجديد، كأنه يسمع من هنا صليل السيوف، يشق ظلمة الليل، صراخ عروج وغضبه كلما فشل في المبارزة، حبيبة من شرفتها تنظر إلى البحر والقلق يجري في دمائها خوفاً عليه.

في الليلة السابقة كانت تحرق في السفن الراسية على المرفأ، على مرمى البصر البيوت مقهورة تحت وطأة الليل، يصله صخب اللوند متكرراً على طول المسافة من الحانات إلى القلعة، تقف حبيبة بجواره، تضع رأسها على صدره.

- لا أرى في البحر إلا لونين: سواد الليل وزرقة السماء،

يضمها بساعده إلى صدره.

- للبحر ألوان كثيرة: زرقة السماء في النهارات الصافية، لون الفضة حين يطل علينا القمر، لون الذهب عندما تسقط علينا أشعة الظهيرة، اللون البرتقالي والشمس تذوب على صفحته الداكنة، وأحياناً أسود من الليل والموت.

- سأنتظرك في كل ليلة.

يلفها إليه، يغمرها بالقبلات.

- أين حسن؟

- نائم.



تراوغ حبيبة قلقها بالصراخ في العبيد والجواري، تنهمك في السعي هنا وهناك، ترسل في طلب جميلة، لتعلمها أكلة المجبنة، التي أعدتها لهم قبل سفر خير الدين، ربطت حبيبة نجاحها في الإعداد بعودة خير الدين، تمزج من حليب الماعز ثلاثة أرباع المقدار والربع من حليب البقر، حين سألت جميلة عن ذلك، أجابت:

- هذا المزج يحافظ على تماسك الحشو في أثناء القلي ويمنع تسربه.

تضيف للعجين الجبن ثم تُغْلَفُه بالسكر والقرفة والعسل وشراب الورد، تتراقص فرحاً وكل من في الدار يشيد بمهارتها في الطهي، تسرع جميلة في مساعدتها لإعداد الشراب، قائلة لها:

- الشراب ينعش الجسد ويرويه.

تنادي حبيبة على سهيلة.

- ستعلمنا جميلة الشراب.

تحدث جميلة بصوت مرتفع؛ لتعلم كل من في المطبخ:

- نغلي النعناع وورق الليمون والصندل والحصرم ثم نضيف
العسل أو السكر، ثم يُغلى من جديد ثم نضيف مقدارين أو ثلاثة ليكون
الشراب جاهزاً.

ليلتها باتت حبيبة فرحة، تكتحل عيناها بحلم عودة خير الدين.



يداعب الصبية الثلاثة، يدرهمهم على القتال عند الغروب، يذهب
وحيداً إلى الشاطئ.

- صديق وفيّ أيها الموج، خسرتُ ذراعي هناك على البر، ليتني ما
غادرتك، ستظل طوع بناني أم كما يقول العامة: "سيفندر بك البحر
يوماً؟"، سأقود السفينة مرة أخرى، أقودها من شاطئ إلى شاطئ، أتمنى
أن أموت في جوفك، شاهراً سيفي.

وفي عودته يمر على دار جميلة ليصطحب محمداً معه، أخبرته جميلة:
- نام مبكراً.

أرسل في الصباح لإحضاره، يأمر الجارية أن تعد الإفطار، تحضر
المجينة، تتأمله سهيلة:

- لم تنم.. قلق على خير الدين.. من البحر.

- البحر يتوحد مع الإنسان في السباحة، وأمواجه تأتي لتموت هنا
على الشاطئ.

- تخشى عليه من الأسبان.

يهز رأسه بالإيجاب.



تضاعف عدد الموريسكيين من الرحلة الأخيرة، استقبل أخاه فرحاً
ثم دخل الإخوة الثلاثة إلى حجرة عروج، تلك الحجرة التي تكفلت
حبيبة بنظافتها ورعايتها، يغادرها صباحاً، تدلف حبيبة، تفتح النافذة
تساقط أشعة الشمس على الفراش، ترصُّ البخور في المبخرة النحاسية.

ثم تضع قطعة الفحم المتوهجة، توصلد النافذة والباب، دخان
البخور يملأ الحجرة، تدخل بعد فترة معها جارية، لتعيد ترتيب الفراش
واستبدال الثياب المتسخة، سمعت حبيبة صوت خطوات خافتة،
التفت لتراه واقفاً، تأملت ذراعه المبتورة، تساءلت عن سر حضوره.

- سأعود مع إسحاق وخضير، لا أريد عبداً أو جارية في الطابق،
أعدي لنا الفاكهة، ثم اذهبي لحجرة سهيلة حتى نفرغ من كلامنا.

أحذيتهم تضرب الدرج كدقات طبول، يذفون إلى الحجرة، اجتهد
في نزع قميصه، أسرع إليه خير الدين للمساعدة، زعق فيه:

- لا.. أريد التعود على أمري الجديد.. دعونا من هذا الأمر،
استعدوا للرحيل.

أوشكت على دفع الباب لتساءل عن السبب، كرر خير الدين
الكلمة التي تارجحت في صدرها:
- لماذا..؟.

- استغلال السلطان الحفصي.. تحالف كلٌّ من سالم التوني حاكم
الجزائر، ومحمد الخامس حاكم تلمسان مع الأسباب ضدنا، فشلنا في فتح
بجاية، وخيانة حاكمها عبد الرحمن.

- إلى أين..؟

سأل إسحاق:

- الجزائر أم تلمسان؟

ردَّ خير الدين:

- أقترح جزيرة جيغل، نستقر فيها ثم نهجم الجزائر أو تلمسان.

- رأي معقول وحتى يحدث الهجوم ولا نفشل كما فشلنا في فتح
بجاية، نحتاج إلى قوة أكبر من الحفصيين.

واصل خير الدين الحديث:

- علماء تلمسان أصدروا فتواهم بقتل محمد الخامس.

شاركهم إسحاق:

- سيتولى أخوه (أبو حمو الثالث) ولن يتورّع عن الاتفاق مع

الأسبان.

- لماذا يتعاهدون مع الأسبان؟

- خوفاً من الأتراك.

شرد عروج للحظات، ثم تكلم:

- ليس لهذا السبب، فهم يلجئون إلى الأسبان لعزل بعضهم البعض والبقاء في السلطة.. إنها شهوة السلطة.

ابتسم خير الدين قائلاً:

- الملوك والسلاطين العرب، يعشقون السلطة أخشى أن يطلب أحدهم يوماً أن يحكم شعباً وهو في قبره.

- إذا القوة التي نحتاجها هي: الأتراك.

قالها عروج، ثم بسط خريطة وأردف:

- هنا جزيرتنا وهنا جزيرة جيغل وهناك الجزائر ثم تلمسان.

سنهبط في جيغل، ثم نفترق، سأتجه إلى الجزائر وأنت يا خضير سترحل

بسفيتين محملتين بالهدايا إلى السلطان سليم الأول، كالمعتاد ستولى يا
إسحاق حكم جيجل والسيطرة على البحر.

- أقترح أن نهبط في جيجل ونفتح الجزائر بقوة واحدة ثم نفرق:
أنت يا عروج إلى تلمسان وأنا إلى السلطان سليم.

- أحتاج إلى قوة كبيرة لفتح الجزائر.

- ستضطر لانتظار عودتي.

- أنا واثق من عودتك ظافراً.. مهمتك مع سليم لا تقل في الأهمية
عن فتح الجزائر -يزفر عروج- بعدها أفرغ للبحث عن أندريا دوريا،
الذي قتل إلياس.

أسرعت الخطى إلى حجرتها واندست في فراشها ترتقب دخول
خضير، استبدل ثيابه على مهل، رفع الغطاء وابتسم.

- نسيت خلع حذائك.

نظرت إلى قدميها، ابتسمت خجلاً؛ فأردف:

- يا حبيبة، أنا أخبرك بما يخصك والحرب لا تخصك.

- أنت تخصني.

- الحرب للرجال.. الرجال فقط.

ابتلعت عتابه، وخلدت إلى النوم.

فرح بعض أهل جزيرة جربة لمغادرة الموريسكيين جزيرتهم
وحزنوا الرحيل آل بارباروسا خوفاً من غارات الأسبان أو فرسان
القديس يوحنا، ودّعت حبّية الجزيرة بدموعها، كما ودّعت تلك الجزيرة
النائمة في قلب الماضي.

انتشر خبر الرحيل في أرجاء الجزيرة، قبل أن يصل إلى السلطان
الحفصي بتونس، كانت السفن ترحل بالجميع إلى جيجل التي استسلمت
هرباً من ظلم الإسبان، تركّز آل بارباروسا في جيجل، ودّع عروج أخاه
خير الدين، الذي سافر إلى إستنبول بسفيتين محملتين بالهدايا والثالثة
للحراسة، اصطحب معه (بلانكو) ورافق (يسي) الرئيس عروج، وفي
تجوال إسحاق في البحر وبالقرب من وهران، جاءه رسول من عروج أن
"أبا حمو" الثالث حاكم تلمسان توجّه إلى وهران وعقّد اتفاقاً مع
الأسبان، أحصى إسحاق ما معه من الجنود البحارة فوجدهم تسعمائة
لوندا، هبط بالقرب من قلعة القلاع في البر انضم إليه مائتا خيال عربي،
ما كاد يدخل القلعة حتى حاصره الأسبان والآلاف من خيالة بني عبد
الواد، بعدما أثارهم أبو حمو الثالث.

- ما العمل يا ريس؟

- سنموت هذا ما أعرفه؟

أمامنا أمران: الأول: أن نموت مكللين بعار الاستسلام، والآخر:
أن نموت شهداء.

رَتَّبَ إِسْحَاقُ الْمُؤَنَ وَالْمَاءَ وَرَتَّبَ صَفُوفَهُ وَنَظَّمَ الْمُنَاوِيَاتَ بَيْنَهُمْ،
وَرَزَعَ الْمُدَافِعَ فِي كُلِّ جَوَانِبِ الْقَلْعَةِ.

"مَنْ يَقُودُ الْأَسْبَانَ.. دِي مَارْتَن.. أَلْفَانِ مِنَ الْأَسْبَانَ وَعَشْرَةُ آلَافٍ
عَرَبِيٍّ.. لَوْ الْأَسْبَانَ وَحَدَهُمْ لَا تَنْتَصِرُنَا يَا رَيْس.. الْخِيَانَةُ نَوْعٌ مِنَ الْغِبَاءِ..
أَطْلَقُوا الدَّانَاتِ.. أَضْرَبِ.. اللَّيْلُ صَامِتٌ.. النَّهَارُ جَافٌ.. الْمَاءُ يَقِلُّ..
الزَّادُ يَقِلُّ.. الْأَيَّامُ تَنْصَرِمُ بِيْطَاءٍ.. الْجُوعُ يَأْتِي بِقَدَمَيْنِ ضَخْمَتَيْنِ يَهْرَسُ
الْأَجْسَادُ.. الظَّمَا يَنْهَشُ بِمُخَالِبَةِ الرِّجَالِ، الَّذِينَ يَتَنَاقَصُونَ يَوْمًا وَرَاءَ
يَوْمٍ..".

وَصَلَ الْخَبْرُ إِلَى خَيْرِ الدِّينِ، أَرْسَلَ (بِلَانَكُو) بِالْمُهْدَايَا وَجَاهِدَ فِي
الْعُودَةِ بِسَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ.. دِي مَارْتَنُ يَقْتَحِمُ الْقَلْعَةَ.. عُرُوجٌ يَدْخُلُ
تَلْمَسَانُ.. أَبُو حَمُو الثَّالِثُ.. يَدْخُلُ الْقَلْعَةَ.. عَشْرَاتُ الْجَرْحَى مُتَنَاقِشُونَ
بِجَوَارِ قَائِدِهِمْ إِسْحَاقُ.. إِسْحَاقُ أَثْخَنَتْهُ الْجِرَاحُ.. قَلْبُهُ أَبُو حَمُو بِطَرْفِ
سَيْفِهِ.. نَظَرَ لِرِجَالِهِ مُبْتَسِمًا.

- مَاتَ.. سَتَجَّهُ إِلَى تَلْمَسَانَ.

يَصِلُ خَيْرُ الدِّينِ إِلَى قَلْعَةِ الْقَلَاعِ مُتَخَفِيًا فِي زِيٍّ بَدْوِيٍّ لَبِيْلًا، مَنَاتُ
مِنَ الْقَتْلِ مِنَ اللَّوْنَدِ، يَبْحَثُ بَيْنَ الْوُجُوهِ عَنْ وَجْهِ إِسْحَاقِ، الْفَجْرُ يَعلَنُ
عَنْ قُدُومِهِ، يَغَادِرُ الْقَلْعَةَ مُتَخَفِيًا، يَعُودُ سَابِحًا إِلَى سَفِينَتِهِ، يَسْرِعُ اللَّوْنَدُ
فِي الْهَبُوطِ إِلَى قَارِبٍ، يَجِدُفُونَ لَتَقْصِيرِ الْمَسَافَةِ عَلَى خَيْرِ الدِّينِ، يَدْخُلُ
لَوْنَدُ وَخَيْرُ الدِّينِ يَسْتَبْدِلُ مَلَابِسَهُ.

- رسالة من الرئيس عروج.

"إلى الرئيس خير الدين، اجمع أكبر قدر من اللوند واحضر إلى تلمسان".

يكوّر الرسالة بيده.

- عروج لا يطلب العون؛ إلا إذا كان الأمر لا يبشر بالخير.



بينما يتأمل عروج من خلف أسوار قلعة بني راشد الواقعة على الطريق الواصل بين الجزائر وتلمسان بشكلها المستطيل، الجيش الأسباني يقترب مع اقتراب الليل، نادى عروج على (يسي):

- اهبط إلى الرجال، افتحوا الأبواب واخرجوا إليهم.

فزع الأسبان على سيوف رجال عروج يقاتلونهم؛ فتولوا هاربين، الفجر يأتي من جديد، مئات القتلى وعشرات الجرحى.

التقى الهاربون بجيش أبي حمو الثالث ثم جاء مدد آخر من الإسبان، رست السفن الإسبانية على الشاطئ لتمنع وصول خير الدين بها جمعه من لوند إلى عروج.

من منظاره المكبر ينظر خير الدين إلى شاطئ تلمسان، الوجوم يظلل وجهه.

- سبقنا الأسباب إلى الشاطئ، التقدم معناه الموت لنا فالسفينة
مُكَدَّسة باللوند.

- الرئيس عروج.

يكرر خير الدين القول في حزن:

- الرئيس عروج.

يهبط إلى قمرته.

"النساء في جيغل ينتظرن عودة الرجال.. الموريسكيون في شواطئ
الأندلس ينتظرون عودة رجال بارباروسا.. عروج ينتظرني، إلى أين
أذهب؟". أول مرة يشعر خير الدين أنه أسير الحرية، طليق ولا يملك
القوة لإنقاذ عروج أو مد يد العون بأية صورة من الصور.

بينما تجمعت القوات البرية تحت قيادة دي مارتن تحاصر القلعة،
يحملون لعروج نبأ وفاة إسحاق، يعرض على شفثيه غيظًا، ها هم الأسباب
يحملون إليه جثة أخيه إسحاق ويلقونها أسفل القلعة لتحط عليها طيور
الموت وترفرف، تنعق الغربان، الجسد متصلب الأطراف ومنتفخ،
التفت عروج إلى رجاله:

- سنقاتل.

- يا ريس، نحن لن نتجاوز خمسمائة لوند وهم كما ترى.

- والأهالي.

- أوغرت صدورهم بالحقد.. الأسبان يصلهم المدد والمؤن أما نحن فلا.

نجح أبو حو الثالث بدسّ بعض رجاله بين الأهالي فأثارهم على عروج منادياً: "جئت لتجلب الأتراك لنا.. لن نترك تلمسان لكم، سترحل شئت أم أبيت..".

- ليس أمامنا إلا الانسحاب، يا ريس.

- الانسحاب يعني اختراق صفوف الأعداء، حتى نصل إلى الشاطئ وننتظر قدوم خضير.

تحدّث (يسي):

- نخرج في الليل، لن نحمل معنا إلا السيوف.

- علينا أولاً إيهام الأعداء بالعكس، سنقاتل قدر المستطاع ثم ننسحب.

تبادل الطرفان طلقات المدافع، الطيور الجارحة شريكة في المشهد، نظر إليها (يسي).

- دوري وطوفي حتى حين.

- لن نموت مرتين يا (يسي).

تقلّص عدد الرجال إلى أربعين رجلاً؛ فقال عروج:

- سنخرج الليلة.

قبل طلوع الفجر، تسلل رجال عروج وقائدهم من القلعة، دقائق بطيئة، الخطى بحذر وترقب، دقات القلوب تتسارع، العيون تحديق في ثوب الليل الأسود، الذي يذوب سواده على مهل، كأن أحدًا لم يمر، استيقظ الأسبان، الدقائق تمر محلاة بأنفاس الصباح، يأتي أحد الأهالي ليخبرهم بفرار عروج ورجاله، فأطلق دون مارتن فصيلة مطاردة، يرشدهم بعض البدو، النهر يقف حاجزًا، عروج ونصف رجاله أوشكوا على العبور والنصف الآخر اشتبك مع الأسبان، صاح:

- لن أتركهم.

يرفع العشرون أيديهم للاستسلام، يقتلهم البدو، فيتراجعون عن استسلامهم، عروج في منتصف النهر يزعم في باقي رجاله:

- لا تستسلموا.. اعبروا.. اعبروا.

- سنموت جميعًا، يا ريس.

- اذهب أنت لحبيبة، إنها تنتظرك.

تسمر (يسي) في مكانه، حبيبة هناك محلاة بقبلات العسل ونهدين شائخين، خطأً بضع خطوات، التفت إلى عروج وباقي رجاله، يتجهون للقتال، اندفع صوبهم باكيًا لنفسه: "سامحيني يا حبيبة، إنه.. بابا عروج"، اندفع (يسي) يقاتل بشراسة، قبل أن يفنى البدو، جاءهم المدد في الرمق الأخير، صوت دي مارتن:

- "عروج .. عروج".

يلتفت عروج، يستقر رمح في قلبه، يتهاوى.

صور كثيرة تختلط بقطرات دماؤه، التي تحولت إلى سيلٍ متدفقٍ من كيانه.. يلقون بجثة إلياس.. قبر يعقوب شامخٌ.. صوت جومانة.. محمد يناديه: "أبأ عروج".. صدى ضحكاته.. عينا حبيبة تتلألأ.. صليل سيوف يمتزج بهدير البحر، دانات المدافع.. جسد يتهاوى بجواره.. بعينين نصف مغمضتين يرى (يسي)، يمد يده إليه منادياً:

".. با.. با.. عر.. وج" تتلامس الأنامل للمرة الأخيرة، وفي اليد الأخرى لـ (يسي) سيف أبيه.. خنجر إلياس معلق هناك في حجرة الرئيس في جيجل.

دون مارتن ينظر حوله، الذعر ينبعث من نظراته، بضعة من رجاله، صدره يتهدج، الجبين مبلل بالعرق، يخطو إلى جسد عروج، ينحني ليقطع الرأس، يمسكها من الشعر، يرفعها عذفاً إليها، يصرخ ملوحاً بها صرخة النصر، يتصايح جنوده، يحدق في أحدهم:

- أحضر ملابسه ولا تنس شاله.

بعض العرب جاءوا بالخبر، يكفكف خضير دموعه.

- لو تمكنتُ من قتل جميع سكان بلاد الإفرنج بالسيف، لما كفاني.



أوصدت الأيام أمام خير الدين نوافذ المرح، تنصرم والأخبار تأتي
بتمرد كل المدن والجزر التي حررها، عينا حبيبة تتوسلان إليه الرجوع،
سهيلة في ثياب الحداد تنظر إلى صغيرها، الذي اشتاقت إليه كثيراً، ها هو
ذا أمامها في باحة القلعة يلعب مع مصطفى وعمد، وهي تسند رأسها
للجدار..

صرير الباب يعلمها بعودة خضير، يخطو فوق الدرج يدلف
حجرته، حبيبة ترمقه بنظرة لا يفكر في معناها، يلقي بنفسه على السرير،
الصمت والسواد في استقباله، منذ وطأت قدماه الجزيرة، العيون غير
العيون، كل نظرة تسأل.. ماذا ستفعل؟ ستراجع أم ستواصل، جسده
كأنه خزجٌ رملي مبلل بالماء، بصعوبة يصل إلى سريره، يفيق بعد وقت
يجهل مداه، الظلام حوله، ضوء السراج خافت، الألم يغزو جسده،
يمسح وجهه، مبللاً بالدموع، يتحرك ببطء شديد، عند النافذة تقف
حبيبة..

- أ جاء (بلانكو)؟

- لم يأت بعد.

- ربما يأتي مع الفجر.

- آذان الفجر بعد قليل.

يومان ويصل (بلانكو) إلى شاطئ جزيرة جيجل، خلفه سفينة
أخرى محملة بالجنود الأتراك والمدافع.



منذ شهور رحل إلى إستانبول، هناك بسط الهدايا أمام السلطان سليم الأول، قدم رسائل من علماء الجزائر وتلمسان ورسالة من عروج، ابتسم السلطان، نزل (بلانكو) في ضيافة السلطان، عاد ليرسم صورة ابنته ويرسلها للقواد متسائلاً: "هل رأيتم (ماري)؟..؟"، أرسل إليه السلطان، يدخل عليه في حجرة الضيافة، قائلاً:

- ابتك.

- نعم، يا مولاي.

- قتلوا عروج، وفي قرطبة يحتفلون بموته، رأسه هناك وكذلك شاله، الذي أطلقوا عليه "شارة بارباروسا"، معلقة في كنيسة سانت جيروم.

امتنع وجه (بلانكو)، أردف السلطان:

- من بقي من آل بارباروسا.

- خضير، أقصد خير الدين.

- قائد جيد.

- نعم يا مولاي، يحتاج في الوقت الراهن لمساندتك.



يتحسس رسالة السلطان في صدره، ينظر للجنود الأتراك والمدافع، هبطوا إلى الجزيرة، خير الدين شاحب الوجه، يحتضن (بلانكو)، يزفر خير الدين في ضيق:

- بالطبع عرفت.

يومي برأسه حزناً، يردف خير الدين:

- (بلانكو).. اذهب الآن استرح أنت والرجال.. انتظرك في المساء
في القلعة.

توقف (بلانكو)، "إلى أين؟"، قالها لنفسه متسائلاً، قاده خطواته
إلى جميلة، صوت محمد:

- عم (بلانكو).. عم (بلانكو)، يا أمي.

تأتي من الداخل بثياب السواد، تجفف يدها بمنشفة، اغرورقت
عينها بالدموع.

- (بلانكو).. (يسي) مات هو وعروج.. من لحظتها لم يطرق بابنا
أحد.

- سأطرق بابك في كل حين.

ألقت بنفسها بين ساعديه، وبكت كطفل مقهور، ظلت طويلاً
تبكي، ظل يربت على كتفها طويلاً، قال محمد:

- سأذهب للعب مع مصطفى.

هزت رأسها بالإيجاب، أشارت لـ (بلانكو) بالجلوس.

- أتعرفين أنني لا أملك داراً؟

تكلم كثيراً، صورة (يسي) لا تفارقها، انتابها شعور بأنها امرأة
شؤم، كلما أحبت رجلاً مات.. زوجها.. (يسي).. حتى عروج لم ينج
من لعنتها، قاطعت حديث (بلانكو) وأخبرته بحدسها، ضحك.

- أنا أيضًا نذير شؤم.. ماتت زوجتي وابنتي.

- ابتك مات؟

- ماذا تظنين؟ بحثت عنها في بلاد كثيرة.. لا أحد يعرف.. أرسم
صورتها، ربما رآها أحد، صدقيني حتى لو رآها أحد لن يتذكرها؛ فهي
محفورة في قلبي هنا، لن يعرفها غيري.

- وصورتها؟

- أرسمها عشرات المرات، حتى لا أنساها، أخشى أن أستيقظ
يوماً ناسياً اتساع عينيها، تورد وجنتيها.. سأذهب إلى الحانة.

الحانة مزدهمة بالجنود الأتراك، الموريسكيون يحيون (بلانكو):

- مرحباً، يا ريس.

طأطأ رأسه وابتسم، غفا في أحد الأركان بعض الوقت، أيقظه

النادل:

- الريس خضير أرسل عبداً في طلبك.

يسكب كوزين أو ثلاثة من الماء على رأسه، يجفف وجهه، يخطو إلى
دار خير الدين، يصحبه العبد إلى مكتبه في الطابق الأرضي، سراج وحيد
فيها، سعل (بلانكو) سعالاً خفيفاً، التفت خير الدين إليه:

- سنعود إلى ميدلي.
- لماذا إذا كنا نحارب؟
- مات عروج وإلياس وخضير و(يسي) وخيرة رجالنا.
- وبقيت أنت.
- وماذا أفعل وحدي؟
- أنقذت المئات من المورييسكيين بل الآلاف.
- لم أستطع إنقاذ واحد من إخوتي، وخاصة عروجًا لم أستطع تحريره من الأسر، ولم أستطع إنقاذه من الموت.
- تراث في ردود أفعالنا يا ريس، أستحلفك بدمائهم أن تبقى.
- أعرف يا (بلانكو) أن الأوضاع تغيرت بتحالفنا مع الأتراك.
- أنت أهل ثقة.
- سمعت ما فعله الأسبان بالجثة.. هل قال المسيح هذا؟
- شهوة البصر، كلما استعرت أيقنت أن الخصم أشد قوة، يوم لك ويوم عليك.
- كل الأيام ضدي.
- على الشاطئ الآخر عشرات من المورييسكيين ينتظرون سفنك، بينهم عجائز وأطفال وشيوخ، ورجال يحملون..

تماسك خير الدين، قائلاً:

- أندريا دوريا.. دي مارتن.

أردف (بلانكو):

- سالم التوفي.. أبو حمو الثالث.

- سأرسلك إلى أحد علماء الجزائر، أثق فيه منذ كنتُ أتاخر في

الجزائر اسمه محمد السعدي، سلّمه هذه الرسالة، الأمر يتم في سرية
تامة.. متهى السرية يا (بلانكو).

يهز (بلانكو) رأسه بالإيجاب.

(١٨)

- "مات إسحاق..."

صرخت بكل ما أوتيت من قوة، لطمت خديها، شقت ثوبها،
سألت عيناها خير الدين: "أين كنت؟" اقترب على مهل منها، قبل
جيبها.

- الأسطول الإسباني وقف حائلاً..

عيناها ساكتتان وسواء توشك أن تتداعى بينهما، سارت في القلعة
حاسرة الرأس، ترتدي ثوباً أسود حالكاً، حافية القدمين، أزاحت
عشرات الأيدي عنها، توقفت عند الشاطئ، تتأمل مياه البحر، مكثت
ساعات وساعات، حتى سقطت مغشياً عليها، أفاقت لترى نفسها
وحيدة في فراشها، تبسط ذراعها متلمسة مكان إسحاق، تهبط الدرج،
تمسكها حبيبة.

- ارجعي.
- إسحاق مات.
- وعروج و(يسي) وعشرات الرجال.
- أنت لا تشعرين بما بي.
- ازدردت حبيبة لعابها.
- لا تنس مصطفى.
- صرخت سهيلة، كمن تذكر شيئاً، هرعت تبحث عنه في كل مكان
صارخة:
- مصطفى.. مصطفى.
- فرع الصغير من صراخها، شدته من يديه.
- تعال.. تعال.
- توجهت إلى الشاطئ، نظرت في عيني ولدها وزعقت في قوة:
- أبوك مات.. الرئيس إسحاق.. أبوك مات.
- ينتفض الصغير، انطلق في بكاء ونحيب، ضمته إلى صدرها، أسرع
إليها خير الدين، أمسك يد الصغير.
- دعيه يا سهيلة.
- إسحاق مات.

- مصطفى ابن إسحاق.

فغرت فاما للحدث ثم توقفت، أردف خير الدين:

- إنه أخي.

- لهذا تركته يموت.

- لو تقدمت أيضًا سأموت.. لن يبقى للصغار أحد، أعاهدك
بالتأثر من هؤلاء الأوغاد الذين يتمسحون بالأديان.

- لن يعود إسحاق.

جذب يد مصطفى من يد أمه، انهارت باكية، ضمها ل صدره.

- آه صدري.. صدري، يا خضير.. إسحاق.. إسحاق.. إس..

حا..

توقف حلقه عن نطق حرف القاف، الذي تكوّر وازداد ككرة
ثلجية، تصلبت ملامح وجهه، وهذا جسده، أغمض عينيه بأنامله،
حملها على ساعديه، عائدًا إلى القلعة، يتبعه عدد من الرجال، يتزايد
المشيعون كلما خطوا صوب القلعة، تتقدم الجواري، يحملنها عنه،
يتوقف عن السير، يحذثه جندي.

- منذ وفاة إسحاق وهي تخرج إلى الشاطئ يا ريس.. رحمه الله.

- يرحمهم جميعًا.

يخرج تابوت خشبي، يحمله العبيد على أكتافهم، يسير خير الدين

أمامهم إلى المقابر، اللحد يحفر لحدًا، يخرجون الجسد المسجى، يُبطونه
بجبال من عند الرأس والخصر والقدمين، يسقطون الثرى على الجسد،
يرجعون إلى القلعة، في ساحتها تجري حبيبة إلى خير الدين وتُقبّل رأس
زوجها، تهدهده، ينظر إليها.

- أشبح الموت من أجساد أهلي أم سأرحل في الصباح أنا أيضًا؟
يتوكأ على ساعدها، مردفًا:

- أحس أنني كبرت ألف ألف عام.

الجواري يفسحن الطريق، يفتحن الأبواب، يعددن الفراش،
تمكث زوجته بجواره، مستلقية على الفراش، يفرق في بحر النوم، كلما
لعبت الهواجس برأسها، تسحبت، لتمد أصابعها أمام فمه تحس بأنفاسه
فتخرج على مهل، وترجع إلى مقعدها، حتى يغلبها النعاس تستيقظ
فزة، على فراشٍ خاوٍ، تفتح الباب، تستقبلها جاريتها.

- على رسلك، يا سيدي، سيدي في حجرة مكتبه مع الرئيس
(بلانكو).

جلست على أعلى درجة السلم، تتأمله هابطًا إلى أسفل، مكثت
زمنًا في جلستها، يخرج من الحجرة، يصافحه (بلانكو) مغادرًا؛ فيصعد
خير الدين السلم مع كل خطوة، ينظر إليها.

- سندخل الجزائر.

(١٩)

أصرَّ شارل الخامس على حضور البابا كليمنت السابع؛ لنقل رفات فرناندو و(إيزابيلا) إلى كنيسة غرناطة العظمى، التي أقيمت فوق مسجد غرناطة الجامع، وأقيم لهما ضريح من رخام، ثم أنشأ الملك شارل قصرًا جنوب قصر الحمراء وعلى موقع بعض أجزاء الحمراء، وأمام القصر برج ضخيم يسمى برج الحراسة، ذلك الذي اختاره فرناندو و(إيزابيلا) عند دخولهما غرناطة لرفع الصليب، وهو صليب خشبي كبير وُضع في الزاوية الشمالية الغربية، يتأمل البابا كليمنت الصليب..

- سيظل هذا الصليب معلقًا مدى الحياة.

- سمعتُ من بعض النبلاء، أنك أصدرت قرارًا في التحقيق بأمر محاكم التفتيش.

- نعم، يا سيدي، فهناك مواجهات عديدة.. خلافي مع فرنسا..
مارتن لوثر، الذي علق على كنيسة قلعة صحيفة بها خمس وتسعون قضية، يتحدثُ "تنزل" بائع صكوك الغفران

يدافع البابا عن الكنيسة.

- الكنيسة ردت على رفضه بالحرمان.

- فأحرق مارتن قرار الحرمان علناً.

قالها شارل، وهو ينظر إلى البابا في تحدٍّ.

- لا تنس أنني كسرت شوكة بارباروسا

- ما زال خير الدين على قيد الحياة.

- لن يقاتل قبل أن يُشفى من آلامه.

تصطك أدوات المائدة بالصحاف، استرجع شارل الثورة الأولى، التي قامت في البلاد بعد استلامه عرش الإمبراطورية، فعين أدريان الأترشتي وصياً على البلاد لحين عودته، الذي أرسل ألف جندي لمدينة بشقوية ولكنهم هزموا؛ فأرسل التعزيزات ودارت حرب الشوارع ووصلت الثورة أوجها إثر حريق مدينة كمبو، وكانت مركزاً للتجارة والمال في قشتالة، امتدت الثورة إلى بلد الوليد، مما اضطر أدريان إلى الفرار، عاد شارل إلى قشتالة، وأعلن قرار التحقيق في محاكم التفتيش؛ فهدأت الثورة تدريجياً.

أشار شارل للخدم برفع الغداء.

- عفواً، سيدي البابا، سأغفو قليلاً.

تحدّث كليمنت.

- عليك بالزواج، يا مولاي الإمبراطور.

همس شارل في أذن أحد قواده عند باب الحجرة قبل أن يغادرها:

- أريد أمير البحر.. أندريا دوريا.

(٢٠)

اشتعل سالم التونسي حاكم الجزائر غيظًا من وجود قوات تركية في صفوف خير الدين؛ فاتصل بالأسبان جهارًا؛ فأخبر البصّاصون خير الدين بذلك، تخفّئ مع (بلانكو) في ثوبي تاجرين وهبطا أرض الجزائر، في بيت الشيخ محمد السعدي، نزل خير الدين ضيفًا.

- وصلتك رسالتي.

- بالطبع، يا ريس خضير، الأبواب كلها مفتوحة لك.

في ليلة الوصول تسلل خير الدين إلى قصر التونسي، يفتح أحد الحراس.

- ابنه يحبي في رحلة صيد، الطريق خالي، اتبعني.

يدلف من دهليز إلى آخر ومن حجرة إلى أخرى.

- إنه في حوض الاستحمام.

في المسبح مغمض العينين يستلذ بخير الماء وبرودته، يجلس خير الدين على حافة المسبح، انتفض سالم لرؤية غريب على هذه المقربة منه.

- من أنت؟

كان خير الدين لم يسمع.

- ألا تعرفني؟

هزَّ سالم رأسه نافيًا.

قفز خير الدين في المسبح.

- أنا خير الدين.. خير الدين، بارباروسا الثاني.

سالم يسبح ناشدًا الهروب، استلَّ خير الدين خنجر إلياس، سالم عند حافة المسبح، الخنجر في ظهره.

يسقط على ظهره، يسبح خير الدين إلى الخارج، يستبدل ثيابه في إحدى حجرات القصر، يرجع إلى جيغل، المنادي في أزقة وشوارع وميادين الجزائر يعلن الخبر.

رَحَّب علماء الجزائر ورجالها بخير الدين واليًّا على الجزائر، عانت حبيبة الكثير بالرغم من حملها، الذي ضاعت زهوته مع الوقت؛ فحملت المتاع من القلعة إلى السفن ومن السفن إلى قلعة الجزائر، ترصُّ الثياب، تُحْصِي الصناديق، تركها خير الدين تدير كل شيء، لا تزال ترتدي السواد، أنعمت على الجوّاري بكل ثيابها إلا الثياب السوداء،

احتفظت بها وزادت منها، تشرف على تعليم ابنها حسن ومصطفى
ومحمد، تشاركها جميلة في إعداد القلعة، تطلب من العبيد إعداد حجرة
مكتب الرئيس خير الدين كالمعتاد في الطابق الأرضي، أعدت جدولاً
لحراسة القصر من الداخل وأسلمته إلى (بلانكو)، تنظر إلى المدافع
المنتشرة خلف أسوار القلعة يحرسها الجنود، الدواب تدخل وتخرج،
العالم من حولها يتحرك كأن شيئاً لم يحدث، كأن عشرات من البشر لم
تمت، نكست هامتها وخاطر يطوف برأسها: "أنا لم أتصور أن للموت
أيادي إلا وهو يطرق أبوابهم"، لم تحجزه الأسوار، المدافع لم تفزعها،
الشمس لم تؤلم رأسه، زمهرير الليل لم يردعه، أخذ حصته كاملة من
الرجال.. الأطفال.. النساء، رحل غائباً، تاركاً التذكارات.

يدلف (بلانكو) إلى جناح خير الدين في القلعة، التي نقل إليها أهله
وانتشر في أرجائها الجنود الأتراك، الموريسكيون، الجزائريون.

- ريس خضير، (التفت إليه)، يحيى بن التوني طلب العون من
الأسبان، هذه الرسالة جاءت من القائد الإسباني دياجو دي فيرا.
- أقرأها.

قالها خير الدين والضيق يتملكه، تردد (بلانكو) في قراءتها ثم رفع
صوته:

"أيها الشريف الشجاع، والسيد الأمين، إن مولانا الملك شارل
الخامس حزن لمقتل والدكم، نحن نتهياً وأنت، استعد حتى نقضي على
الأتراك معاً، وسنطاردهم حتى إستانبول".

- إلى أن يصل الأسبان، أرسل رجالنا للاتصال، بالريس بيرى،
الريس صالح والريس سنان اليهودي، من نشق فيهم من أهل البحر
للاضمام إلينا.



أعد خير الدين رسم سفينة الشابوك، اجتمع و(بلانكو) على
العشاء.

- أريد سفينة تأتي إلينا بالأخشاب الغارقة في مياه جربة؛ لتجفيفها
هنا على الشاطئ.

- تريد إنشاء ورش للسفن.

غير خير الدين من شكل سفينة الشابوك، وصلت الأخشاب فقام
الرجال بجرحها إلى ورش صناعة السفن، أعلى أبراج القلعة عيّن رجالاً
للمراقبة، بين الحين والآخر تخرج القوارب لاستطلاع أمر الأسبان، في
الورش يدهن الصناع الخشب الجاف بالزيت، ليقطع منه ألواحاً
سميكة، بدأت الجزائر تعجُّ بالحركة؛ فالورش تقع ما بين القلعة
والسوق، اختار خير الدين هذا الموقع حتى يتوفر للورش العمالة من
نشارين وصقالين وحدادين ونساج لصناعة الأشربة والأغطية
والرسامين وعمال الزفت، الذين يستخلصون القطران من الخشب
العتيق لشجر التنوب والصنوبر، سأل محمد:

- لماذا يُطلى الخشب بالقطران؟

- الماء يحتاج للحيلة، والقطران يمدده فلا يصل إلينا.



في تلك اللحظة كان أسطول أسباني مكون من خمسين سفينة حربية، يتبعها ثلاثمائة من حاملات المقاتلين بالإضافة إلى فرسان القديس يوحنا وممالك نابولي وموناكو، يتولى القيادة فرناندو ديجو، والقائد الجنوبي أندريا دوريا، يتجهون إلى الجزائر، ردد خير الدين الاسم:

- أندريا دوريا.. أندريا دوريا.. ماذا تعرفون عنه؟

أجاب الرئيس صالح:

- قائد شهير من عائلة من جنوة يحارب في صفوف شارل الخامس.

بسط (بلانكو) الخريطة، ورَّع خير الدين رجاله في البر والبحر استعدادًا للقوات القادمة، التي وصلت إلى ميناء الجزائر في يوم عيد سانت بارتولوميو، من خلف أسوار القلعة من خلال المنظار المعظم، كان خير الدين يتابع عملية الإنزال مرددًا:

- مرحباً بك يا أندريا.

تحدث الرئيس بيرى:

- الهوء شديد اليوم.

استغرق إنزال القوات منتصف النهار، لتشتد الرياح وتتحول إلى عاصفة فأمر خير الدين الرجال بحماية أنفسهم، بينما السفن الإسبانية التي تفلتت من المراسي، تتلاعب بها الرياح، بعضها يجنح ويتكسر على الصخور، الجنود فزعون، السفن المتأخرة تتراجع إلى الوراء هرباً من التحطم على الشاطئ الصخري، الجنود يسبحون نحو السفن محاولين الفرار؛ فإذا بالأمواج تلفظهم إلى الشاطئ، يسرع (بلانكو) إلى خير الدين.

- يا ريس بعض جنودنا يقتلون الجنود الإسبان.

- لا.. أوقف القتال نهائياً.

أسرع خير الدين بالتزول إلى الرجال، الذين انهالوا قتلاً في الأسرى، واصل صراخه في الرجال:

- لا تقتلوهم، أريدكم.. أريدكم.. أريدكم أسرى.

انتقل الأمر من جانب إلى آخر، أحصى (بلانكو) أربعمائة أسير وتجاوز القتل ثلاثة آلاف، لم يتوقع هذا الكم من الأسرى، فأمر خير الدين بإنشاء زنانات إضافية وتقسيم نوبات الحراسة على اللوندات، إعداد مطبخ لإطعام الأسرى، في خلال يومين استتب الأمر، فطلب التحدث إلى أرفع القواد مقاماً، جاءوا بالقائد مكبلاً بالأغلال؛ فأمر خير الدين بفك وثاقه، عينا القائد زائغتان، والعرق في قميصه، تقدم خير الدين نحوه، حذق في عينيه.

- أأست ترى أن على القادة دائماً أن يحافظوا على كلمتهم؟

- بلا شك.

- في موقعة تلمسان استسلم المقاتلون المسلمون، فلماذا قتلهم الأسبان؟

- لم يقتلهم الإسبان بل قتلهم العرب.

- بأوامر من قائدكم دي مارتين.

-.....

خن الجميع ومن بينهم القائد أن خير الدين سيأمر بقتله انتقاماً لأخيه عروج.

- وعدتكم بالحياة وهأنذا حيٌّ ترزق، سيقى أمرٌ أقرؤه في عينيك.. الحرية، ما سيقتدى رجالك به لن يكون إلا تعويضاً بسيطاً لمن فقدتهم.. مع كل هذا فإن كل ثرواتكم لن تعيد الحياة لأحد.

- أنتم أقوياء متصرون.

- كتمم أقوياء ومتصرين في تلمسان، وفي إسبانيا لم تحرموا المشاق بينكم وبين عبد الله بن محمد بل عذبتم الأسرى، لا يزال صراخ الأبرياء والعزل من السلاح في إسبانيا يصلني هنا، لا تزال الكلاب تنهش الأجساد، والسيات تضرب الظهر العارية، والأحذية الحديدية الساخنة تحرق الأقدام، ألا تشم معي رائحة اللحم المحترق؟.. أنا أستطيع فعل أكثر من ذلك لكن..

فرحت الجزائر بهزيمة الإسبان، المقاهي والحانات تعج بالجنود
يرقصون ويتغنون ولا تزال العاصفة تزار وتزوم، ينكسر الموج على
الصخور، الأمطار تغمر الطرقات، حبيبة ترضع صغيرتها نور.

- كنت أحلم أن يكون عروجي معي هنا.

وضعت الصغيرة في وسط الفراش، انجذبت نحو زوجها، نظرت
إلى وجهه:

- من قال لك إنه حزين.

- أنا الحزين.

يتحدث حسن:

- لا تحزن يا أبي، أنا سأحارب معك.

يضحك خير الدين ويعطي ابنه سيفاً خشبياً ليقاتله، قبض قلب
حبيبة.

(٢١)

بين الرجال كان (بلانكو) واقفًا يتلقى التهاني؛ فتساءل خير الدين
عن سر ذلك؛ فرد الرئيس بيري:

- سيتزوج من جميلة.



جميلة، ذلك الحلم الممتد بين عروج و(يسي)، ترسو أخيرًا في بر
(بلانكو)، يغادر (بلانكو) الرجال إلى دارها، تلك الدار المتاخمة للقلعة،
كثيرًا ما زارها، يضرب على عوده، يشدو بموشحاته، تردد كثيرًا أن
يخبرها بحبه، ذلك الحب الذي نما سهوًا، كان يرى (يسي) عاشقًا لها
وعيناها تتلألآن عشقًا، صغيرها محمد يحب عروجا، فماذا كان عليه أن
يقول؟ لاذ بالصمت وحيدًا، يتأمل صورة ابنته، يطفئ الشموع وينام
للصبح.

على ضوء النهار، رأي حالات سوداء أسفل عينيها، الدموع
رسمت على جبينها خطين متعرجين، الشحوب يسكن وجهها، قرع
الباب منذ لحظات قبل أن يطل وجهها عليه بآيات الحزن، ألفت بنفسها
بين ساعديه باكية..

- (يسي) وعروج، يا (بلانكو).

نسي في رحلة البحث عن (ماري) رائحة النساء، نسي أجسادهن
الطرية، نسي نظراتهن التي تتأرجح بين نعم ولا، سجن أشياء كثيرة،
تفتحت على استحياء في الشهور الماضية والآن تشرق كزهرات دوار
الشمس، حين تتجه الشمس، عرفت خطاه الطريق إلى دارها، رويدًا
رويدًا ذاب الحزن، تحلّى بالصبر، لاعب الصغير، الذي شبَّ الآن عن
الطوق، انضم معه إلى صفوف الرجال، ها هو يرى الصغار يخرجون من
طور الطفولة إلى الصبا، رآها تصرخ في حمد:

- أنا لا أراك، أين تذهب..؟

- مع رفاقي يا أمي..

رآه يلاعب الصبية بالعصي منقسمين إلى فريقين، فريق القشتاليين
وفريق بارباروسا، يتصايحون، يتعاركون ويتقللون من شارع لآخر،
يرافقها (بلانكو) إلى الدار.

- أحبك

نظرت في عينيه طويلاً دون أن نجيب، اغرورقت عيناه بالدموع،
انزلق العود من يده، غادر الدار حزينا، هام في الشوارع، جلس وقتاً
طويلاً يتأمل الأمواج وهي تتكسر، يحلم بأمواج تحطفه من هنا وتذهب
به إلى قشتالة وبلنسية ومالقة، الموج يرجع به إلى بيته وزوجته، تتمسح
في عشب صدره، صغيرته تشاركهما الفراش، حتى يللملها النوم في
غلالة رقيقة، فيحملها لفراشها الصغير، يزفر حزناً، يرجع قبل بزوغ
الفجر، أمام بيته شخص جالس، يقترب في حذر، ينقر الكتف، يأتيه
صوتها:

- نسيت عودك يا (بلانكو) ..

أفلتت عائدة إلى بيتها، تقاوم الناس.

تجنب لقاءها كلما دخلت القلعة، فلاحظ خير الدين الأمر فسأله:

- ما الأمر يا (بلانكو)؟

لاذ بالصمت فترة وجيزة، ثم قال:

- لا شيء، يا ريس.

ربما نسي خير الدين في تحضير الجيش لمحاربة الإسبان، وربما نسي
من شدة فرحه بابنته الرضيعة، ربما نسي وهو يتابع مخازن الغلال، ربما
نسي والسفن تعود بعشرات الهاربين، ربما نسي وهو يطوف في ورش
السفن، يتابع إنشاء سفينة الشابوك، التي انتشرت في أسطوله، تتميز

بشراعَيْن رئيسين وطولها أربعون مترًا، أما العرض فثمانية أمتار، تزن ما يقرب من مائتي طن، وتحمل ما يقرب من ثلاثين مدفعًا وثلاثمائة لوند، تساعد في الهجوم الخفيف والسريع على السفن الإسبانية والإيطالية والبرتغالية؛ فأزق بها الجنوب الأوروبي.

يفيق (بلانكو) من شروده متسائلًا: "ربما هي أيضًا نسيت ما قاله، وربما أيضًا تناسيت". يضرب أوتار العود يعاوده الشroud، كانت على بعد أمتار من البيت وقد عذمت أن تذهب إليه، لم تنسَ الأمر قط ولكنها لم تتوقعه، فارق السن بينهما يَبْنُ، تساءلت: هل تحتاج الآن إلى الحب؟ هل تنتظر أن تحب يومًا؟ تأرجحت التساؤلات في رأسها والعمر لا يتوقف، محمد سيذهب إلى القتال، اعتاد الوضع الجديد، في الليالي الأولى لموت عروج كان يبكي حتى أثارها البكاء، كانت تنهال ضربًا عليه حتى تسقط منهارة إلى جواره، نأما ليلتها باكين، لم يعد يسأل، ولم يعد يقعد في البيت، فرح بالرحيل إلى الجزائر، فرح بالبيت الجديد، وحيدة، شيء تكسر لا يصلحه الزمن، تتساءل: ماذا لو مات محمد؟ ماذا لو ماتت هي؟ مع من سيعيش أيُّ منهما؟ فأيقنت أنها تحتاج إلى (بلانكو)، تحتاج لزرع صغير ينبت بين يديها، تحتاج لزوج ومحمد يحتاج لإخوة، هذا ما أقرت به بعد طول سهر، تناولت شالها من فوق المشجب، سارت في ضوء القمر إلى داره، ها هو ذا (بلانكو) شاردٌ في عالم بعيد، تضرب وترًا برفق، يذوب في الصمت كقطعة سكر، تقعد بجواره، يضرب وترًا آخر، تشارك الأصابع في العزف على العود، تهمس:

- أنسيت الطريق إلى داري؟

وجهها تكسوه فضة القمر، فتتلاًلاً، صوته كأنه سيل رقيق من نهر
الجِّي.

- أنتظرك.

اتكأت على كتفه لتقف، تسير أمامه إلى نهاية الطريق، يسير إلى
القلعة، طاولة العشاء طويلة على جانبيها كثير من الرجال، تتسابق
الأيدي إلى الطعام، يشاركونهم بدعوة من خير الدين ثم يعزف ويغني
كان لم يُغنَّ من قبل.

والآن أيضًا يغني وعشرات الرجال، رأى خير الدين ألقى العشق في
عيني (بلانكو) والآن يضوي العشق كالشرر المتطاير من ارتطام
حجرين صليدين، يدوي صوت الدفوف، تخرج جميلة من القلعة، على
الجانبين اصطف الكثير، يلقون الزهور عليها، يتقدم (بلانكو)، يقبل يد
جميلة، تتبختر في ثوبها، عن يسارها يقف الرئيس خير الدين، يقدمها
لزوجها قائلاً:

- مبروك، يا (بلانكو).

على ضوء المشاعل يتراقص الجميع، رائحة الشواء تملأ المكان،
تنساب الدقائق كما ينساب الماء بين الأصابع، هما داخل الدار،

توسّطها طاولة الطعام مزينة بالفاكهة، الجو معبق برائحة عطرة، أضواء
ناعسة، يدفع باب حجرة النوم، "أخيراً أنا ها هنا".

- لي يد غير مكتملة، يا جميلة!

- لي حياة غير مكتملة، يا (بلانكو)!

(٢٢)

أصدر الأب كليمنت السابع قرارًا بإلقاء القبض على مارتن لوثر، لكن مارتن نجح في الهرب إلى قلعة فارتبورج، انتشر المذهب البروتستانتي؛ فوجه البابا كليمنت رسالة إلى شارل الخامس:

"الإمبراطور / شارل الخامس (حامي الكاثوليكية)

أصبح المذهب البروتستانتي أشد خطرًا على الكاثوليكية من الموريسكيين والبارباروسا ورياء اليهود وسبَّ المسيح؛ فأصدر أمرًا إلى محاكم التفتيش أن تحقق مع كل من يتبع هذا المذهب الجديد.

البابا/ كليمنت السابع"

طوى شارل الرسالة، يجرع قليلًا من الخمر؛ مفكرًا في الأمر لم يعرف كم من الوقت مضى، حفيف ثوب زوجته دونيا (إيزابيلا)، استبدل الوجوم بابتسامة وأسرع لاستقبالها.

- مولاي، ماذا أزعج عينيك الجمليتين؟

- لم أجدك جوارى.

يمد ساعديه لاحتضانها، يقبلها بشوق، احتضن وجهها براحتيه.

- الهموم يا عزيزي.

يضع كفيه على كتفيها.

- كيف حال صغيري؟

- بخير، يا مولاي.

أنهت جملتها بخفوت الإذعان، رغم أنها ترى في عيون الأخريات نظرات الحسد والغيط، كأنهن يقلن بغمزاتهن: "ها هي ذي زوجة الإمبراطور"، تود أن تأتي الأخريات والليل يلف القصر بمعطفه الأسود الثقيل، شارل مُنْهَك القُوى، سرعان ما يغفو تاركًا زوجته وجبة خفيفة للأرق، نادرًا ما يكف عن صراخه منذ نبأ غرق جزء من الأرمادا في الجزائر، دفع مبالغ طائلة لإنقاذ الأسرى، وتشبيده سفنًا جديدة، تحس (إيزابيلا) بحالته المزاجية، تنتظره في مخدعها، بقلب رائق النسبات، سرعان ما يتكدر بسحب داكنة من الهموم، فتلملم رداءها وتغفو.

(٢٣)

- بعد كل هذا الجهد.. لا شيء..

المشاعل تلقي أضواءها على كل ركن، الوجوه تتصبب عرقاً، يكرر
خير الدين:

- لا شيء.. لا شيء يا رجال..

عيون الرجال تفتش في كل مكان، في كل حجرة، الوقت يمر
بسرعة.

قبل الغروب غادروا السفينة في قوارب صغيرة، حتى شاطئ
بلنسية، تسلموا إلى أقرب قرية، كان زياد في انتظارهم، يسرون خلفه من
شارع إلى آخر، أشار زياد.

- هذا هو الدير.

- أوافق أنت، يا زياد؟

- نعم.

الدير ضخيم البنيان أشبه بقلعة حصينة، أسواره عالية، قتل الرجال حراس الدير، على سلاسل من الحبال تسلقوا الأسوار، ثم ألقوا بها على الجانب الآخر، فزع الرهبان لافتحام رجال شاهري أسلحتهم، تجمعوا حسباً أشار (بلانكو).

- أين الموريسكيون؟

- هذا دير للعبادة.

- سنعرف.

قالها خير الدين، ثم انتشر رجاله في غرف الدير يفتشونها، الأثاث فاخر، كراسي هزازة، سجاجيد فارسية ثمينة، صور نادرة، مكاتب كبيرة، أرض الغرف من خشب المغني المصقول المدهون بالشمع، شذا عطور لفت انتباه خير الدين؛ فسأل أحدهم؛ فأجاب:

- هذه الروائح تنبعث من شمع يوقد دائماً أمام صُور الرهبان.

اقرب أحد الرجال ليشم الشموع، نظر إلى الرهبان.

- هذا الشمع قد خُلِطَ به ماء الورد.

هزَّ كبير الرهبان رأسه تصديقاً لكلام الرجل؛ فواصل الرجال البحث دون جدوى، عادوا إلى خير الدين آسفين، الذي أوشك على مغادرة الدير حزناً لقتل الحراس الأبرياء؛ فإذا بصوت يستوقفه.

- يا ريس خضير، أسمح لي ببعض الوقت؟

حدق خير الدين في ابنه حسن، لأول مرة يراه كبيرًا كأنه شبَّ عن الطوق في غفوة من الزمن، هزَّ رأسه بالموافقة، فحص حسن أرضية الحجرات، لاحظ خير الدين قلق الرهبان، زعق في رجاله:

- ارفعوا الأبسطة.

انهمك الرجال في رفع الأبسطة، طلب حسن من الرجال دلاء مياه.

- اسكبوا الماء في كل الحجرات، بسرعة، الوقت يحاصرنا.

تمر الدقائق ببطء، الرهبان ينظرون إلى بعضهم البعض بقلق، حتى جاء صوت أحد الرجال.

- يا ريس.

أمر خير الدين رجلين:

- أوثقوا الرهبان بالحبال.

أسرع إلى مصدر الصوت، حجرة مكتب، حسن يسكب دلوًا وراء الآخر، الأرض تشرب الماء، صاح حسن

- هنا الباب.

بحذر، ساعد (بلانكو) خير الدين في محاولة فتح الباب، جأر أحد الرجال وهو بجوار مكتب رئيس الرهبان:

- انظر، يا ريس.

رفع الجميع رؤوسهم، حلقة صغيرة وضعت إلى جوار المكتب،
أدارها الرجل على مهل، انفتح الباب ببطء، تنبعث أناتٌ خافتة، على
ضوء المشاعل رأى خير الدين السلم، شهر سيفه وهبط بحذر، انتهى
السلم بحجرة مربعة كبيرة، يتوسطها عمود من رخام به حلقة حديدية
ضخمة، رُبطَ بها سلاسل، مُقَيَّدَ بها رجال ونساء، شاحبو الوجوه، توجّه
خير الدين إلى حجرات آلات التعذيب، أجساد ممزقة، الأرض مبللة
بدماء تسيل ببطء، ودماء جفت على الجدران، زعق (بلانكو):

- أخرجوا الجميع.

التفت إليه خير الدين.

- (بلانكو)، سنخرج من نحمله معنا، البعض يزفر أنفاسه
الأخيرة.

- يا حسن، أحضر الرهبان

في إحدى الحجرات، رجال عرايا بأجساد هزيلة، ألقى كل رجل
من رجاله على أحد العراة قميصه، قبل أن يفتح خير الدين إحدى
الحجرات، انبعث منها ضحك هستيري على ضوء المشعل رأى امرأة
شبه عارية، تضحك بلا توقف زائغة العينين، شعناء الشعر، تطل من
النافذة وترجع بسرعة إلى الجدار المقابل وتطلق ضحكاتها، قال أحد
الرجال:

- أصابها الجنون، يا ريس.

تقدم (بلانكو) صوبهما، على ضوء المشاعل رأى الوجه نصفه
مضيء ونصفه مظلم، انسابت الدموع من عينيه، التفت خير الدين:

- ما ييكيك، يا (بلانكو)؟

- إنها (ماري).. (ماري)، يا خضير.

دفعوا الباب بأكتافهم، ضربها الريس؛ ففقدت وعيها.

أقدام تهبط الدرج، حسن يقود أمامه الرهبان، أمسك خير الدين
شمعة بيده، تحدث أحد الرهبان:

- لا تحمل الشمعة المقدسة بيدك الملوثة بالدماء.

- أظن أنكم سبحتم بأجسادكم في دماء هؤلاء الأبرياء - حدث
رجاله - استبدلوا بالرهبان المساجين.

أشار (بلانكو).

- نضعهم هنا، يا ريس.

- ما هذا، يا (بلانكو)؟

- إنها السيدة الجميلة!

السيدة الجميلة، تابوت على صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة
الاستعداد لعناق من ينام معها، برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة.

يطرحون الرهبان في أحضان السيدات الجميلات، ثم يطبقون أبواب التوايت بسكاكينه وخناجره، الرهبان يقاومون ويصرخون، يضيع صراخهم هباءً، قاد خير الدين الجميع إلى الخارج، فتح باب الدير على مصراعيه.

- حسن، اذهب بسرعة إلى الشاطئ وارجل بالمرائب إلى السفينة، ثم أحضر عددًا من القوارب.

يتسللون على مهل من مكان إلى آخر، صوت البحر يصلهم على مهل، يتبادلون في أثناء السير حَمَل (ماري) على أكتافهم، المياه تبلل أقدامهم.

- من يُجِد السباحة فليسبح حتى المراكب، يا (بلانكو)، ستبقى معي لحراسة الباقيين.

دقائق ووصل إلى الشاطئ ثلاثة قوارب أخرى حملت الهاربين من رجال ونساء، سبح حسن وخير الدين وثلاثة رجال بالقرب من القوارب، بينما القوارب الأخرى تلتقط السابحين من المياه، يصلون إلى السفينة، يحضرون الأغطية والثياب الجافة، خير الدين ينزل درجتين إلى قمرة، التفت قائلاً:

- حسن، أنتظر.

يهتز القنديل على هدهدة الموج للسفينة، دلف حسن إلى حجرة الرئيس، رmqه خير الدين بنظرة متفحصة.

- كبرت، يا حسن.

-.....

- أتمنى من الله ألا أفقدك يوماً.

يغفو خير الدين في مقعده، نقرات على كتفه.

- ريس خضير.. ريس خضير.. الفجر أوشك على الطلوع.

يفرك عينيه، يتأمل ولده حسن، ثم يرد:

- أخرجوا الموريسكيين إلى سطح السفينة، إنهم لم يتعرضوا لضوء الشمس منذ زمن طويل.

بالتدريج اعتاد الموريسكيون على ضوء الشمس المشرقة على مهل، البحارة يوزعون عليهم الطعام، المجدفون يبدأون الغناء.

- يا ريس سفينة فرنسية.

- ارفعوا رايتنا.

السفينة الفرنسية تستدير بعيدة عنهم، يصلهم صراخ ركايبها:

- بارباروسا.. بارباروسا.. بارباروسا.

سأل بحار:

- ماذا تعني بارباروسا؟

فأجاب حسن:

- كلمة إيطالية تعني: صاحب اللحية الحمراء.

لم يبرح (بلانكو) مكانه على سطح السفينة، بين الهارين، يحتضن (ماري)، يطعمها من صحنه الخشبي، تفتح فمها بالكاد.

وميض خاطف من الماضي، وهي في حجر زوجته تطعمها وتغني لها، وضوء العصاري يتسلل من خلف النوافذ إلى صحن الدار، تنبعث نسمات هواء رطبة تخفف من حرارة الجو، ترمقه (ماري) بنظرة ضبابية المعنى، يقبلها ويمسح على شعرها، تبتسم ابتسامة باهتة ثم تنظر إلى الموج وتشرد، تنتفض مذعورة، تلتفت يمينًا ويسارًا، ترتجف كهرة مسّها الخوف، تتشبث بأحضانها، تحدّق في يد البحار، الذي يقدم قدح الماء، يمسح (بلانكو) شعرها، ترتشف قليلًا من الماء، تبتسم للبحار، تنطفئ الابتسامة، يغمرها الذعر من جديد، تختبئ في حضن (بلانكو)، الدموع تنساب بلا نحيب، يصعد خير الدين إلى السطح.

- (بلانكو)، اهبط بها إلى قمري.

أبت (ماري) التحرك من مكانها، جفف خير الدين دموع (بلانكو)، ثم قبل رأسه، تساءل رجل من الموريسكيين:

- متى سنصل إلى الشاطئ، يا ريس؟

(٢٤)

أعاد شارل الخامس التفكير في مملكته من جديد، فلا يزال إلى الآن
إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، التي تضم إسبانيا وبلجيكا وهولندا
وألمانيا والنمسا وإيطاليا، ينظر إلى الخريطة المنبسطة أمامه، على الطاولة
محدداً مملكته باللون الأحمر، الامتداد العثماني بلونٍ أصفر والساحل
الأفريقي باللون الأسود وفرنسا باللون الأزرق.

- مولاي، البابا كليمنت السابع.

قالها الحاجب، تقدّم الأب كليمنت مؤدياً التحية للإمبراطور،
الغارق في التحديق إلى الخريطة.

- انظر أيها الأب إلى الخريطة جيداً، هذه هي حدودنا، هنا يتربص
بنا فرنسوا الأول ملك فرنسا، هنا تكمن القوات التركية وتتوغل في
أوروبا، جاءتنا أخبار بأن السلطان سليم الأول يستعد لغزو رودس،
هناك يعيش فرسان القديس يوحنا، أما في الساحل الإفريقي، لا نسيطر

إلا على تونس ومدينة وهران بالجزائر، أشد ما يزعجنا هذا المدعو
بارباروسا، كل ما أطلبه منك الآن تهدئة الأجواء الداخلية، إظهار نوع
من اللين والتسامح نحو الموريسكيين، عليك أن تقود محاكم التفتيش إلى
الاعتدال.

الأب كليمنت نحيف الجسد، ضيق العينين، شديد التمسك برأيه،
صوته خافت، هادئ الطباع، رفع شارل بصره إلى الأب كليمنت، الذي
أبدى ملاحظته:

- لا تنس، يا سيدي، التيار البروتستانتي.

يقاطعه شارل:

- في هذا الجانب تقوم محاكم التفتيش بدورها، فهي لا تتورع عن
تعذيب المناهضين للكاثوليكية المقدسة... ما يشغلني الآن هو السلطان
سليم الأول، إذا تهدمت قوته سيضعف بارباروسا وكذلك لن نجد
فرنسا حامياً لها.

(٢٥)

في الثالث الأخير من ليل إحدى الجمع، مات سليم الأول، زاره
الطاعون، فاضطر إلى أن يمنحه جسده مملكة رحبة يسكنها، تكاتف
الوزراء على إخفاء موت السلطان لحين وصول سليمان إلى إستانبول.

في جامع السلطان، رفع سليمان يده مكبراً للصلاة الجنائزية على
والده، خلفه الوزراء وكبار رجال الدولة والقادة، يفرغ من الصلاة،
يُحْمَلُ الجثمانُ إلى مشواه الأخير في ركب ثقيل الخطوات، يلفه حزن
أخرس.

حين وصله الرسول، توجَّس شراً رهيباً، تلاعب الحدس برأسه،
كل شيء إلا موت والده ابن أربع وخمسين سنة، أحس بالأمر وفرسه
يخطو إلى قلب إستانبول، شيء في رأسه يخبره بوفاة والده، الذي حكم
الدولة العثمانية ما يربو على تسعة أعوام، غزا إيران ومصر والشام،
أصبح خليفة للمسلمين وخادم الحرمين، يعرف سليمان تماماً أن التمرد

سيطفو على السطح وعليه - بأعوامه الستة والعشرين - مواجهة هذا التمرد، صوت سليم يتردد في رأسه: "كن متأنياً في جميع شئونك، لا تتعجل، فكّر بعمق، إذا اتخذت قراراً لا تراجع عنه أبداً".

يلتفت سليمان إلى وزرائه.

- ابنوا مسجداً عظيماً، وابنوا عمارة لإطعام الفقراء صدقة على والدي.

(٢٦)

التمرد يطفو على السطح، حتى القبائل في الجزائر ثارت على خير الدين رافضة الجنود الأتراك، يخرج من قلعته، مئات الشائرين أمامه، يقودهم أحمد بن القاضي، زعق خير الدين، من فوق منبر أحد المساجد:

- لم آتِ إلى هذه الأرض سفكًا للدماء، جنتها مجاهدًا، سأترك لكم الجزائر، التي جنتها وهي لا تملك إلا مدفعًا واحدًا، (يشير بيده إلى أسوار القلعة من خلفه)، والآن كما ترون بها أربعمئة مدفع، أدعو الله أن تحافظوا على البلاد ولنر كيف تصونونها.

في الليلة السابقة، كان قرار خير الدين بالرحيل عائدًا إلى جزيرة جيجل أمرًا محسومًا، أخلى قصره، حمل أمواله وأشياءه على متن تسع سفن.

والآن يضع في يد ابن القاضي مفاتيح القلعة.

صرخت حبيبة:

- الرحمة يا خضير، الرحمة، هل تعشق الرحيل؟ ... من ميدلي إلى
جربة إلى جيجل إلى الجزائر والآن إلى أين...؟

- جيجل.

- وعليّ الآن حزم الأمتعة وملء الصناديق بالثياب والمتاع
وكتبك... لا أنسى كتبك، الجوّاري والعبيد يهْدمُ التعب، أنا أصابني
التعب.

قَبْلَ جِيبِنِهَا.

- كان الله في عونك...

غادر الحجرة؛ فحُطِّمَ بعض الأشياء، تفتح النافذة، تراه يسير على
مهل، في خارج القلعة رجال الجزائر يقودهم أحمد بن القاضي، يشورون
عليه صائحين:

"...اخرج أنت والأتراك... الجزائر لأهلها، غادرها يا
بارباروسا... اخرج... اخرج..."

يختلي خير الدين بنفسه، ينظر إلى خريطة على وجه مكتبه يُمرّرُ
إصبعه على شاطئ الجزائر، ودبيب الحنين إلى أرضها يقطر في صدره،
يزفر في أسي:

"لا عليك يا خير الدين، الكل يطمع في السلطان والمال... حكامنا
يتصارعون فيما بينهم ويستغيثون بالإسبان ليعزل أحدهم الآخر،

العثمانيون يتجهون في كل صوب... الشام... مصر... يتصارعون مع
الصفويين... والآن مات سليم... مات قبل أن ألقاه... سيعتلي سليمان
عرش الدولة العثمانية، بينما أعود أنا إلى جيغل... من لك يا أندلس".

حنون صوتهما، يكنس تراب الهَمَّ.

- مالك؟

كادت تسأله هل سيبقيان في جيغل أم سيرحلان مرة أخرى، تؤثر
الصمت كما أخفت آلام ركبتها عنه، تبتلع سؤاها:

- كف عن القتال ولتبق في.....

يقاطعها:

- والأندلس؟

.....-

- الأندلس ليس لها غيري وليس لي غيرها، (تجلس على الأرض وتضع
رأسها في حجره)، من أجل أبريائها مات إلياس ومثلوا بجثة عروج
واتخذوا من شاله شارة، أطلقوا عليها شارة بارباروسا، عندهم هناك،
من أجل أبريائها قتلوا إسحاق، أسألي: بحر الروم كم غريقي فيه من
الموريسكيين! أسألي الأراضي التي سرقوها باسم الدين، أسألي عيون
الناجين منهم: لم كل هذا الحزن؟ أسألي (ماري): ماذا فعلوا بها؟



ترسو السفن في جيغل ليرى خير الدين ورجاله القحط يللمس
أهلها؛ فخرج بأسطوله ليهاجم السواحل الأوروبية ويرجع بتسع سفن
محملة بالقمح، صعد إلى حجرته، استلقى على فراشه، تحدثت لحيية
المنهمكة في إصدار الأوامر إلى الجواري والعبيد.

- آن لي أن أستريح من الحروب.

أسس قاعدة حربية جديدة في جيغل، أنشأ دارًا للسفن، أول سفينة
خرجت من هذه الدار كانت من نوع باشتارده، تحتوي على سبعة
وعشرين مقعدًا، خرج بها خير الدين إلى البحر يقود أسطولاً، ليرجع
بسفن أخرى محملة بالقمح، ترسل حيية أحد العبيد إلى زوجها المنهمك
في العمل بورشة السفن الجديدة، ينحني العبد هامساً لسيدة:

- يا ريس خضير، مولاتي تريدك لأمر مهم.

اندهش خير الدين: "أي أمر هذا؟"، ترك أمر متابعة العاملين
بالورشة لمصطفى بن إسحاق وأسرع إلى قصره قلقاً، ألقي يكسو وجهها.
- شخص يريد مقابلتك.

يدلف حيث أشارت حيية، امرأة بدينة تتوسط حجرة الضيافة،
تسمّر مكانه من المفاجأة.

- جو... جومانة.

أسرع إليها يضمها إلى صدره، يقبل يديها ووجهها، تأمله بعينيه.

- كبرت، يا خضير.

- أنتِ كما أنتِ.

- مات ألبرتو، بِعْتُ الحانة، لا أدري لماذا خرجت أبحث عنك؟
الأخبار تصلني مع البحارة يومًا بعد يوم... علمت بموت إسحاق
وعروج، هَدَّني الحزن يا خضير، ضاعت الصحة، ضعف البصر.

- ستبقين معنا، سترجع للغناء.

- لن أغني بعد ألبرتو.

- معنا هنا عازف ماهر.

- من؟

- ذلك الأسير الذي جاء يومًا إلى حانتيك بصحبة عروج.

أبت جومانة البقاء في قصر خير الدين؛ فأرسل معها عبدًا ليستأجر
لها منزلًا قريبًا من القصر، تأملت مسكنها الجديد، صالة واسعة،
توسطها طاولة خشبية، في أحد الجوانب باب حجرة أقل في المساحة،
بها فراش، بجواره صندوق خشبي، تستلقي على الفراش، تحملق في
السقف، تتساقط قطع الذكريات، كما يتساقط القش من السقف.

ألبرتو طريح الفراش، تستبدل ثيابه، يتكى عليها لينام على الأرض
حتى تستبدل ملاءة السرير، ثم يتكى عليها ليمتدد مرة أخرى فوق
فراشه، تُقَبِّل جبينه، تهبط الدرج، ترمي قوارير الخمر، تمسح المناضد،

تجفف الأكواب، جاءتها تلك الفتاة الجميلة لتعمل نادلة؛ فوافقت جومانة مبتهجة، عملت ساندرا بنشاط في ترتيب الحانة، شاركت جومانة الغناء، ازداد عدد رواد الحانة، يتحدثون مع ساندرا، العيون تطل على النهدين الممثلين، القوام المشوق، الساقين الشائختين، الأرداف المترقصة، خلت الحانة قبل الصبح بقليل، تلمح جومانة شاباً يصعد إلى الطابق العلوي، حُنت أنه صعد لرؤية ألبرتو؛ فلماذا بساندرا تصعد خلفه، انهمكت جومانة في العمل، بعد وقت يسير، هبطت ساندرا وأمسكت يد جومانة.

- أعطاني ثلاث قطع ذهبية، أنتِ قطعة وأنا قطعتين.

أحضرت ساندرا صديقة لها ثم ثانية وثالثة، استبدلت بلوحة الحانة لوحة جديدة مكتوباً عليها: "جنة العصافير"، حتى جاء ذلك الرجل ضخّم الجثة، يجلس من منتصف النهار إلى منتصف الليل، يصطحب إحدى الفتيات إلى الطابق العلوي، يهبط على صراخ ساندرا حين يضايقها أحد الرواد، ينظرون إليه، هابطاً بسرّوالة الداخلي، يلکم الرجل لكلمات متتالية حتى تخور قواه؛ فيحمله ويلقي به خارج الحانة، مات ألبرتو، حمله روميو ذلك الضخّم خارج الحجرة، اصطحب جومانة من يدها.

- عفواً، يا سيدتي، نحتاج إلى الغرفة.

هبط بها إلى الحظيرة المصاحبة للحانة، ثم أردف:

- ستبقين هنا، حتى أدبر لك مكاناً.

جاءت ساندرابشاب جومانة.

- المكان هنا جيد التهوية... هيا يا روميو.

علمت جومانة فيما بعد أن الفتيات يطلقن عليه روميو، فهنّ لا يعرفن له اسماً، ارتدت جومانة فستاناً، سارت خلف التابوت تذرف دمعاً على ألبرتو، ضعف بصرها قليلاً، تركت الحانة لساندرا، تأتيها بالطعام، أحياناً ترسل إحدى الفتيات، استيقظت ليلاً على وقع أقدام على ضوء المصباح في وسط الحجرة، فتاة تتعري من ثيابها، تستلقي على القش، رجل يسألها:

- ألا تستيقظ هذه العجوز؟

- لا تقلق.

واصلت جومانة نومها باكية، تستيقظ على وكز روميو.

- جومانة... جومانة.

- ماذا تريد؟

- في الخارج رجل طاعن في السن، سأتي به مقابل قطعة ذهبية.

- ماذا؟

- قطعتين

صفعته بقوة، زجر غاضبًا، يرفع يده ليضربها، يتماسك.

- كان يمكنك قول لا....

خرج صافقًا الباب، تخرج من مسكنها لترى ساندرا، جمعت ثياب
جومانة في صرة.

- عفواً سيدتي، سيصطحبك روميو إلى الميناء، فهناك سفينة
ستحملك إلى مكان.

نظرت جومانة حولها، العربات تجرها الجياد، الناس تسير هنا
وهناك، الشمس تسكب ذهبها على الجزيرة، كل شيء يسير في
صيرورته.

- أحتاج لبعض مالي.

أخرجت صرة مال من جيبتها.

- ثمن حاجتك، صرة من الذهب.

يصطحبها روميو إلى المرفأ، يتسم لها.

- إذا أردت البقاء هنا؛ فعليك بالعمل معنا.

هزّت رأسها نفياً، بسط يده مصافحاً، يضع الصرة بين يديها.

- عفواً سيدتي، أنت مدينة لي.

قبل أن تسأله، يصفعها على وجهها، يردف:

- لا أحمل لك حقداً في صدري، يمكنك زيارتنا وقتما تشائين.
اقترب البعض، نكست جومانة رأسها وواصلت السير إلى
السفينة.

أخبرت الريان:

- أريد الذهاب إلى بارباروسا.
- لن أذهب إلى هناك ولكن حتماً سنقابل سفينة تحملك إليه.
من سفينة إلى أخرى، حتى جاءت إلى هنا، يرتفع غطيظها شيئاً
فشيئاً وصوت بارباروسا يناديها:
- الماما جومانة.

يتطاير قوله أمام عينيها كفرشات زاهية: "الماما جومانة".
في كل مكان ينادونها: "الماما جومانة".



(٢٧)

جميلة تمشط شعر (ماري)، الجالسة بين ساقها المنفرجتين، ثم تجدله في جديلة طويلة، بينما تلعب (ماري) بدُمَيَّة من القماش، تلتفت إلى أبيها مبتسمة، يبادلها الابتسام بابتسامة، فتكشف عن كتفيها وتتحسس نهدِها، تضربها جميلة.

- قلت ألف مرة: لا.

تهز كتفها غضبًا، يقترب (بلانكو) يحتضن ابنته، يقبل وجهها، تبسم (ماري).

- تعال في الداخل، اطرده هذه المرأة، أنا أجمل منها... اتركها هنا.

تنتهي حبيبة من تجديد الشعر.

- سادخل أنا معك.

قالتها جميلة، تسحب (ماري) يدها بقوة.

- هو سآتي معي...

- لن يأتي معك.

تنفخ في ضجر.

- أليس رجلاً؟ أنا أريد رجلاً.

يرد (بلانكو):

- اذهبي معها، سآتي بعد قليل.

- ستأتي؟

يهز رأسه بالإيجاب.

- إياك أن تفعل مثل محمد وتخرج.

- سآتي.

يضع في الباب ورق التبغ ومن أنبويه الطويل، يجذب نفساً وراء آخر حتى يشتعل التبغ، نفساً وراء آخر مراقباً خيوط الدخان، "يا ربي ماذا فعلوا بها؟". تخرج إليه جميلة.

- نامت.

يدلف إلى حجرة ابنته، يوثق إحدى ساقها في عمود من أعمدة الفراش، يقبل جبينها ويخرج؛ ليرى محمداً مرتدياً ثيابه فيسأله:

- إلى أين...؟

- سأذهب مع مصطفى وحسن إلى الحانة.

تتدخل جميلة في الحديث.

- ألسنت صغيراً على الحانة؟

- تجاوزت الخامسة عشرة، يا أمي.

- لا تتأخر.

يهز رأسه بالإيجاب، سكت البيت، فكت قيد شعرها، تحررت من جلبابها الزاهي، لتطل أنوثتها من وراء قميص شفيف، تحضر زجاجة زيت الزيتون، تضعها في يد (بلانكو)، يقلب الزجاج في راحة يده، مسترجعاً ليلة بنائه بها، على ضوء الشموع رسمها جالسة وهي عارية تتوارى خلف دثار، ينسدل من فوق إحدى كتفيها، لا يكادُ يستر أحد النهدين، بينما يتجمع أسفل البطن ونصف الفخذين.

- تعبت يا (بلانكو).

برفق جرّ الدثار، بينما تتمدد على الفراش، أخرج الزجاج من جيبه، بلل أصابعه بالزيت، يمس ساقها بخفة.

- دهن السيقان يكون للمحظيات.

- أنت زوجتي ومحظيتي.

استسلمت لأصابعه وواصلت كلامها:

- لماذا زيت الزيتون؟

- لا أعرف برّء، قديماً كانوا يمسحون به المرضى وهم في نزعهم
الأخير؛ أملاً في حياة أبدية.

يمسح باقي جسدها وهو يتمدد بجوارها:

- الآن عرفتُ السر.

مستلذة بلمسه لجسدها؛ فتغمض عينيها.

- همم مم.

- إنه سر الحياة، جاءت به حمالة نبي الله نوح معلنة نهاية الطوفان
وأقسم الله به في القرآن.

- والتين والزيتون.

منحته قطرات دافئة؛ فتوهج العشق.

دب اليأس في قلب جميلة، ارتدت جلبابها، أفاق من شروده؛
فأمسك بذيل جلبابها، جلست بجواره، قبّل يدها.

- سامعيني.

- ابتك شغلتك عني.

- (ماري)، جسد بلا روح، الروح هناك في شوارع وأزقة
الأندلس... والروح خرجت ولن تعود أبداً.

اختتقت جلته الأخيرة بالدموع، ثم أجهش في البكاء، ربت عليه
وضمته إلى صدرها، منذ رآته لم يبك، يوارى الحزن في قلبه، يدفنه تحت
رمال الحياة، ليواصل السير من جديد، كلما ألمَّ به الحزن، أخرج صورة
(ماري) وتأملها، أو يضرب بأصابعه الثلاث على أوتار عوده الذي
أمسى متهاكاً....

(٢٨)

يسير محمد في شارع مرصوف، يعرف تمامًا، بعد قليل ستدلف مع
(بلانكو) إلى حجرتيهما، بينما يجرع كؤوس الخمر، يصطحب غانية من
الحانة إلى مكان بعيد، يأتي حرثها، يسير من شارع إلى آخر، لم يعرف
طعم النساء إلا بعد مجيء (بلانكو) بابتته، كانت رائحتها عفنة، شعرها
أشعث، ترتدي جلبابًا واحدًا، ممزقًا، أمرته جميلة بدخول حبرته
وإغلاق الباب عليه، أحضرت طستًا وثيابًا نظيفة، انهمكت باللوفة
والصابون تدلك الجسد الجالس في قلب الطست، أمست (ماري)
مشرقة الوجه، رغم نحول جسدها ونظراتها المذعورة دائيًا، من الثياب
القديمة صنعت جميلة لها دُمَيَّة من القماش تلهو بها، حول طاولة الطعام،
ترمقه (ماري) بنظرات غريبة، تعض على شفتها السفلى، تغمز بعينيها،
تكشف عن صدرها وفخذيها، يخفق صدره، يتفصّد عرقًا، تقف
صارخة:

- ألا تفهم؟

حملت فيها مندهشًا، توقّف (بلانكو) عن مضغ الطعام، في لحظة خلعت (ماري) ثوبها، شهقت جميلة، أسرعت لسترها، صرخت فيها:
- دعيني... يا... تعال... دعك منها... ابتعدي عني.

يساعدها (بلانكو) في جرّ (ماري) للدخل، يغادر محمد الحجرة ملفوفًا بخجله، يتنفس هواء الشارع، زفرات متتالية تثلج صدره، يتساءل عن حسن ومصطفى؛ فلا يعرف أين هما؟ يدلف إلى حانة، سخونة الهواء وصخب الرجال وشجارهم يلقي به إلى الخارج، تقطع امرأة عليه الطريق.

- أتبحث عن شيء؟

هز رأسه بالنفي، تأمل صدرها العاري وجسدها يفوح منه عطر آخاذ.

- اتبعني.

سار خلفها، من باب خلفي للحانة دخلا، صعدا الدرج إلى الطابق العلوي ثم دلفا لإحدى الحجرات، تحت أضواء خافتة.
- لا تزال صغيرًا.

قالتها وهي تستلقي على الفراش، تعلّم على يدها كيف يأتي حرث النساء، استلذ بأنفاسها الساخنة وتأوهات المتلاحقة، قسوة الساعدين

على الظهر، الأصابع تتخلل الشعر لامتلاك الرأس، منذ تلك الليلة بدأ البحث عن النساء في الحانات، يرجع إلى البيت مع باكورة الصباح، يستيقظ في منتصف النهار، يساعد (بلانكو) في تنقية التبغ، ووضعه في أكياس صغيرة، وتنظيف الباب وتسليك ساقه، التي نجح (بلانكو) في تقصيرها حتى يستطيع الرجل إشعال التبغ لنفسه، ينفخ في الساق ليتأكد من نظافتها، وذلك حين يرتطم الهواء بيده من الناحية الأخرى، يغادر محمد الدار مع أول الليل، يلتقي مع حسن، واللوند مُلتفُّون حوله فلا يزال يثرثر عن ذلك الدير وكيف كشف حجرات التعذيب؟ كأنه يحكيها أول مرة؛ فيلاحظ حسن شرود صديقه محمد، يقبض على ساعده.

- أتحب أن تأتي معنا...؟

-.....

- أبي يعد بعض السفن لتهرب الموريسكيين.

- سأتي معك.

- سيأتي معنا مصطفى أيضاً.

ما زالت ملامح عروج في رءوس الثلاثة، لم يشعر محمد بغربة وهو معهم، ليلة زفاف أمه جلس يبكي وحيداً؛ فجاء إليه مصطفى ليخبره:

- احمد الله أن أمك على قيد الحياة، أمّا أنا فيتيم الأب والأم

معها دائماً، حسنٌ لم يوصد باب أية قلعة ذهبوا إليها، تدربت أيديهم على المحاربة بالسيف والعمل على المدفع وفي ورش السفن، والآن يقود كل واحد سفينة في أسطول الرئيس خير الدين، الآن يجد حسن حرجاً في الحديث إلى محمد فاللونادات وآخرون يتهامون أن (ماري) تفك قيودها كلما استطاعت، وتهرب من نافذة حجرتها وعند الشاطئ تجلس بفستانها، وحين تسمع وَقَعَ أقدام تقترب أو صوت رجل ثمل، تخلع فستانها وتقطع عليه الطريق؛ فيشرب الرجل من عسلها، بينما تخمش صدره وتعض كتفه، قد يضربها أحدهم وربما يستسلم لسعارها حتى تهدأ وتتفجر في بكاء. كلما فزع (بلانكو) ولم يجدها يخرج باحساً عنها، ليراها مركوبة لرجل؛ فيتوارى، حتى يختفي الرجل؛ فيقترب من ابنته الغارقة في بكائها ويعود بها، في لحظة الوصول إلى البيت تصنع جميلة النوم، كأنها لا تدري بما يجري، حتى لا ترى نظرة انكسار في عيني (بلانكو).

(٢٩)

أصدر سليمان القانوني فرماناً بمنصب الصدر الأعظم، فاز به إبراهيم العيتابي باشا من أرجح وزرائه عقلاً وأكثرهم كياسة، عاونه كثيراً في إخماد التمرد في إيران ومصر والشام.

- مولاي، الأسطول معد لغزو رودس.

- فرسان القديس يوحنا يقطعون طرق الحجاج ويهاجمون خطوط المواصلات البحرية العثمانية.

- هل تسكت أوروبا؟

- بكل تأكيد يا إبراهيم باشا، أولاً: شارل وفرانسوا في حالة حرب... نحن وقّعنا عقد الصلح مع البندقية... تطور أسطولنا البحري.

لم يصدق من في بحر الروم أن السلطان سليمان القانوني سيُدهم جزيرة رودس، أمست الشائعات حقيقة عندما أرسل السلطان طلب

تعزيزات من بارباروسا؛ فأرسل بعض السفن بقيادة مصطفى بن
إسحاق، الذي سأل عمه:

- لماذا لا تقود الأسطول؟

- عندئذ من سيكون القائد؟

تحركت السفن بقيادة سليمان إلى رودس، استطاع دحر فرسان
القديس يوحنا، الذين فروا إلى مالطة تحت حماية شارل، الذي صُدم
بالهزيمة.

(٣٠)

قرأ شارل تقارير محاكم التفتيش، بتوقيع من المحقق العام أن المسلمين لا يعانون أي اضطهاد، وأن المحاكم لم تخطئ في قراراتها؛ فوافق شارل على تنصير كل مسلم بقي على دينه وإخراج كل من أبى النصرانية، ومن لم يخرج في الفترة الممنوحة؛ سيعاقب بالرق مدى الحياة وتحويل المساجد إلى كنائس. فزع الموريسكيون من القرارات المتتالية؛ فأرسل زياد إلى خير الدين بسرعة تهريب أكبر عدد منهم إلى جيجل، انتشر الخبر من شفة إلى أخرى، فأصاب المسلمين الهلع.

توالى المحظورات من جديد، خمن البعض ربما ردًا على غزو سليمان لرودرس، وربما لانضمام جزء من قوات بارباروسا إلى القوات العثمانية لإعلان عن تضامن القوتين، حطم زياد قنديل خيمته بضربة سيف واحدة.

- نجح شارل في خداعنا... إذا بقينا في أرضنا خسرنا ديننا... وإذا تمسكنا بديننا يتزعزعون أرضنا.

لم يكن الثوار في الجبال هم فقط الذين اخترقوا المحظورات، بل العامة أيضًا من الناس، فبعد تحريم التخاطب باللغة العربية نجح العامة في خلق لغة الأخيادو، يكتبون القشتالية بأحرف عربية؛ فأرسل زياد بعض رجاله لتعليم الأخيادو في بعض القرى؛ فنجح عدد من المسلمين في كتابة سيرة النبي محمد وقصص الأنبياء والمدائح النبوية وبعض كتب الفقه والحديث، واشتهر بين المسلمين كاتب أطلقوا عليه "فتى أبيالو"، والشاعر محمد ريدان، الذي نظم العديد من الأغاني والقصائد الدينية؛ فأصبح مطارداً من محاكم التفتيش؛ فأرسل زياد إلى خير الدين بضرورة تهريب ريدان، انتاب رجال شارل نوبة السعار ضد كل ما هو إسلامي؛ فهدموا المساجد وحولت إلى كنائس، تزايد الأمر سوءاً مع المحظورات المتلاحقة:

"على كل مسلم يبقى على دينه أن يحمل شارة زرقاء في قبعته".

"أن يسجد المسلمون في الشوارع متى مرَّ كبير الأخبار".

وجدت محاكم التفتيش بعض المخالفات، فعمدت إلى إثبات تهديدها بحرق اثنين في قلب غرناطة في احتفال ديني؛ قاد زياد شرارة ثورة جديدة، اندلعت في جميع الأندلس؛ فخرج شارل الخامس بنفسه لإخمادها ونجح في ذلك ما عدا بلنسية، التي تقع على الشاطئ وتضم حشدًا كبيرًا من المسلمين. وصل خير الدين إلى بلنسية بشماني سفن لنقل المشردين من الموريسكيين وخاصة ريدان، الذي لم يحمل معه إلا بعض الكتب ودموعاً احتبست في عينيه من أثر فراق الأندلس.



استقرت الأمور في جيجل، من وقت لآخر تخرج السفن لمهاجمة السفن الأوروبية، وفي غضون شهر العودة من بلنسية، وصل إلى جيجل وفد من علماء الجزائر لمقابلة خير الدين، أنصت لهم، ثم أجاب:

- لن أذهب إلى الجزائر

تقدم أحد العلماء بلفافة من الشال، كشفها عند أقدام خير الدين.

- هذا دليل ولائنا.

تأمل خير الدين الرأس المقطوع.

- رأس أحمد بن القاضي.

- الجزائر، ياريس خضير، تفتح ذراعيها لك.

يعرف خير الدين وقع هذا الخبر على رأس حبيبة وابنته نور التي تربك أمها أكثر مما تساعدها، مكث بضع ليالٍ لإقناعها بمرافقته.

- ماذا لو ثاروا عليك مرة أخرى؟

- جزيرة جيجل ازدحمت بالموريسكيين، مع قلة الموارد، نحن نحتاج إلى مكان أرحب، يسع الجميع، فليس أمامي إلا الجزائر.

تعود السفن مرة أخرى إلى الجزائر، آلاف الجماهير ترحب بقدم خير الدين ورجاله، السفن تملأ المرفأ، أصدر خير الدين قراراته لاستقرار الأمن بمطاردة العصاة بقيادة حسن ومصطفى ومحمد، أشد ما أزعجه عزوف (بلانكو) عن ركوب البحر.

- زوجتي جميلة أو شكت على الوضع... ثم إنني مللت الترحال،
سأبقى في الجزائر إلى أن أموت.

- ماذا ستفعل؟

- أفتح مقهى.

- مقهى!!

يهز رأسه بالإيجاب.

- أتجارته مربحة؟

- نعم يا ريس، يدخن فيه الرجال، يشربون المشروبات الساخنة،
ولن أبيع الخمر.

- من أين لك بالتبغ؟

- من بعض السفن العائدة من الأرض الجديدة، فشارل فتح
المكسيك وبيرو، السفن تتجه إلى الأرض الجديدة.

- بشرط أن تكون بجوار بيت جومانة.

- أعرف كم تحبها، يا ريس!

يتأمل خير الدين سطور السنوات على وجهه (بلانكو)، الذي ظل
طوال رحلة العودة إلى الجزائر جالساً أمام قمرة حارساً لابته، التي
ملأت فضاء الرحلة بنحيبها وصراخها المستيري وتوسلاتها إليه أن
يدعها تخرج:

- أخاف الظلام... الفئران... الفئران.

كلما رَقَّ قلبه، تذكر ذلك المشهد المرشوق في صدره، صوته
المستمع باللذة لدرجة الغنج وهي تحت وطأة رجل، فيبتلع ريقه
ويرسل دموعه مستورة بالظلام، في الميناء جرها بحبل من حبال السفن
إلى بيته الجديد، صرخ في جملة:

- أوثقها جيداً.

تفرغ خير الدين لنمو أسطوله؛ فشيّد ترسانة جديدة لصناعة
السفن، شيد سوراً على الشاطئ، أطلق عليه كاسر الأمواج، وزع المدافع
في أبراج تطل على البحر، أصبحت الجزائر مرفأً لجميع الرّيسة، يحتفي
بهم خير الدين في قلعته، التي دعم تحصيناتها.



تخنّ الرجال أن خير الدين اكتفى بحكم الجزائر وإنقاذ
الموريسكيين وأقلع عن قتال الإسبان، حتى فاجأهم وهم يحتفلون
بالبنت الثانية لـ (بلانكو)، ويجلس أمامه على الطاولة ما يربو على أربعين
رجل.

- آن الوقت للثأر من قتلة عروج.

توقف حسن والآخرين عن الطعام، أردف والده:

- سنفتح تلمسان.

تصايح الرجال فرحًا، أخيرًا سيتحرك الأسطول بسفنه الجديدة،
الشخص الوحيد الذي أصابه الحزن هي حبيبة، التي أشاحت بيدها.

- افعل ما تشاء يا خضير، حافظ على ابنك.

انطلق بأسطول مُكوّن من ثمانٍ وعشرين قطعة إلى مستغانم، فاجأ
الإسبان بمدافع خفيفة، تُحمل على عجلات تسير على الرمال، سار بها
إلى قلعة القلاع، حاصرها عشرين يومًا دكَّها بدانات المدافع، نجح في
الاستيلاء عليها ومنها اتجه إلى تلمسان.

- هنا مات عروج، في الداخل القائد دون مارتن، أريده حيًا.

توالى الدانات على القلعة، عشرات يندفعون صوبها غير مباينين
بالجحيم الخارج من قلبها، خارت قوى الجنود الإسبان ووهنت،
استسلم دي مارتن، أخيرًا رآه خير الدين، رآه مكبلًا بالأغلال خارجًا
من قلعته وبصره إلى الأرض، حرارة الشمس تُخرج العرق من الأجساد،
عشرات من القتلى هنا وهناك، المصابون يتكثون على أصدقائهم الأسرى
المقيدين بالحبال، حلق خير الدين في عيني دي مارتن، أمسك بتلابيه.

- أتعرف من أنا، يا دي مارتن؟

- بارباروسا.

- أتعرف ماذا فعلت بأخي؟

- إنها الحرب؟

- أنت قطعت رأسه وأرسلتها إلى قرطبة، سأقطع رأسك وأرسلها لشارل... رأس برأس.

ترك ثياب دي مارتن، وأردف:

- لن أقطع رأسك، سأبيعك كالعبيد؛ لتنتهي قصتك، لتصبح عبداً.

ينحني دون مارتن.

- عازٌّ أن أباغ.

- وعار عليك أن تقتل الأسرى وتمثل بأجسادهم.

- سأرسل لشارل أن يفتديني بما تشاء.

- ورأس عروج كم ستدفعون فيها؟

- ما تشاء.

- وأنا لا أريد سوى رأسك.

بضربة سيف واحدة تدحرج رأس دي مارتن على الأرض.

- أرسلوه إلى الإمبراطور شارل، وأخبروه أننا نحترم الرجال ولا نمثل بجثثهم، وأن سيفي يشتاقي لرءوس أخرى.

ترجع السفن مكللة بالنصر، تُفتَحُ زنازين القلعة للأسرى الجدد، يتابع خير الدين من شرفته الرجال يحتفلون بالنصر، الموسيقى تصدح،

المشاعل متناثرة في ساحة القلعة، الشراء هنا وهناك، صغار يلهون في كل صوب، الرجال يتراقصون والنساء يتراقصن، يُقبَّل صغيرته نور، بفستانها الزاهي وشعرها المجدول في جديلة طويلة، يسأل الجارية:

- أين مولاتك حبيبة؟

- مستلقية في حجرتها.

- انتبهي للصغيرة.

يهبط الدرج خارجًا إلى ساحة القلعة، يرحب بالرئيس أيدن، ينضم إليهما الرئيس صالح، يلتفون حول خروف مشوي، وتلك الوجبة الجديدة، التي أعددتها جميلة، احتفالًا بعودة ولدها محمد سالمًا، فمنذ مغادرة السفن إلى تلمسان وقلبها يجتر الماضي، (يسي) وعروج، البحر والأندلس، أشد ما تحشاه أن يلتقى محمد مصير (يسي)، ظلت تدعو في الليل وأطراف النهار، حتى جاءت البشرى بالنصر، أسرع إلى القلعة تزف البشرى إلى حبيبة، الممددة في فراشها، فقالت فور دخولها عليها:

- عاد محمد

- أوفي بنذك... ماذا ستعدين للرجال؟

- الكامل، أو كما تسمونه الثريد.

تنهمك في إعداد أول طبق أمام الجواري، ليعرفن طريقته ومقاديره، دلفت به إلى حبيبة، التي تذوقته.

- جميل.

تغمض عينيها.

- به... لحم... توابل... بيض... زيتون... أتمنى أن يرزقك الله
بالولد هذه المرة؟ ألسنت حاملاً؟

- ستكون آخر مرة، شمت الحمل والولادة.



يفرغ الرجال من الطعام، يتحدث خير الدين لضيفه:

- ما الجديد يا ريس أيذن؟

- الآلاف من الموريسكيين، سيدخلون الجزائر مع الصباح.

مازح صديقه:

- ضارب الكفار لا يأتي خالي اليدين.

- إياك أن تقول كالإسبان: ضارب الشيطان.

الوجوه تصغي لقصة الريس أيذن، الذي بدأ في تمثيل القصة:

- امتلأت الأربع عشرة سفينة بالموريسكيين، تحركنا قادمين إلى

هنا، فإذا بالقائد الإسباني بورتورندو يطاردنا بأسطوله، فكرتُ قليلاً...

السفن محملة بالبشر أكثرهم من النساء والأطفال والغجائز والمرضى،

ليس أمامي إلا حل وحيد، إنزاهم على الشاطئ... لا تتخلوا نحيبهم

المستمر خوفًا من قرار شارل بشيِّ الهارين على نار خفيفة حتى الموت... أقسمتُ لهم بأغلظ الأيمان أنني سأعود لنقلهم، نجحت في تطويق الأسطول الأسباني وفزنا بسبع سفن، (تصايح الحاضرون فرحًا)، الأدهى مات بورتونندو، رجعنا إلى الشاطئ نحمل الهارين، ظل الموريسكيون يكونون من الفرحة، كل السفن ترسل بكاءها، حتى الملاحون بكوا.

قيل الفجر هدا الصخب، تمددت الأجساد، انقضى السمر، أشار خير الدين لـ (بلانكو) بإغلاق المقهى على الحاضرين من رجاله.

- الآن إليكم المشكلة ... الأسرى.

تحدث الرئيس صالح:

- كم عددهم، يا ريس خير الدين؟

- ما يقرب من ثلاثين ألفًا.

- يا الله.

- بخلاف الهارين من الأندلس.

- الهاربون يعيشون معنا، يزرعون ويعملون، شهورًا ويكونون

أياديّ منتجة ومنهم من ينضم إلى صفوفنا.

اقترح البعض بإجراء التفاوض مع الإسبان، استأذن خير الدين من

الرجال؛ فالإرهاق بات واضحًا عليه.

- سأترك لكم الأمر حتى الصباح، طابت ليلتكم.

- أسمعت، يا ريس خضير؟

توقف عن سيره.

- ماذا، يا ريس أيدن؟

أفسح الرجال وسط المقهى للريس أيدن، الذي بدأ التمثيل بيديه وجسده وملامح وجهه.

- هناك... هناك في البلاد البعيدة، التي يقال لها، (ضارباً رأسه بيده)... ماذا يقال لها... آه: إسبانيا... ليس إسبانيا بل كل السواحل الأوروبية بما فيها فرنسا... يغنون لك.

- ماذا؟... يغنون لي.

شرع أيدن في الغناء

- بارباروسا بارباروسا

أنت صاحب كل شر

ما كان من ألم أو عمل

مؤذٍ وجهنمي مدمر

إلا والسبب فيه هذا الفرحان الذي

لا نظير له في العالم

بارباروسا بارباروسا

صاح بالضحك، مسح أيدن دموع عينيه، وأردف:

- تصدق يا ريس... إذا حدثت سرقة أو فساد عندهم، قالوا:
(التفت إلى الرجال)

فأجاب الرجال:

- بارباروسا بارباروسا

أنت صاحب كل شر

قبل الفجر فرغت جميلة من إعداد وجبة تشد من عزم الرئيس خير الدين، وتجدد شوقه إلى حبيبة، التي قرأت في عينها شوقاً إليه؛ فطلبت من الجواري إحضار مقدار من الجزر والجوز الأخضر والقرنفل والزنجبيل وأمرتهن بغلي المزيج، حتى يتكثف، ثم يرقد ثم قسمته إلى قطع في حجم الجوزة، همست:

- يأكل خضير منه قطعة واحدة؛ فهو ينشط الهضم ويزيد الشوق عند الرجال.

قدمت حبيبة "الأشنان" الجميلة، التي مسحت به يدها للتخلص من رائحة الدسم.

- تتعلمين بسرعة، يا حبيبة.

- ماذا أفعل غير ذلك؟

- في المرة القادمة يمكنك إضافة المسك والكافور للأشنان،
سيكون أفضل.

هبطت الدرج في حذر؛ خوفاً على حملها، تتحسس الخطى على
ضوء القناديل المعلقة على الجدران.



(٣١)

"...لم يصدق أحد من أهل تونس أن أبا عبد الله حسن، اعتلى العرش؛ فالجميع يفزعون من ذكر اسمه ولو همساً، يتردد في أرجاء البلاد أنه قتل أربعة وأربعين أخاً له، لم ينبج إلا رشيد، الذي فرّ إلى إستانبول، ثم باع أبو عبد الله الجواري الموجودات في القصر، ثم أسس حرساً من أربعمائة شاب في عمر ابنه وأعلن ولاءه للإسبان، أشد ما أثار زوجته عشقه للغلمان..."

هذا ما حملته العيون إلى خير الدين، الذي التفت إلى ابنه حسن:
- الكل يلقي بنفسه في أحضان إسبانيا، أحارب شارل بالسيف والمدافع؛ فيسرع إليه الحكام بالولاء والطاعة، كأن الدماء والأرواح تزهق بلا داع.

يقاطعه حسن:

- الرئيس صالح والرئيس طرغد، أسرهما أندريا دوريا في جنوة، ثم اتجه إلى مرفأ شرشل.

- ننقذ أسرانا أولاً، ثم نلتفت إلى تونس.

فكر خير الدين قليلاً، ثم التفت إلى حسن:

- هل تظن أن أندريا سيقع بين أيدينا؟

- إذا خرجنا إليه في البحر الآن.

امتلات السفن بالعديد من الرجال، يتقدمهم خير الدين وعن يمينه الرئيس أيدن وعن يساره حسن ومحمد البلانكوي ومصطفى.

عندما توجه أندريا إلى ابن عمه نيكول دوريا، الذي عمل في حرس البابا، ووفر لأندريا حياة مرتزق في خدمة آل مونتيفلترو، لم يهدأ أندريا؛ فقاد القوات الجنوبية لإخماد ثورة كورسيكا، ثم انضم للحزب المناهض للفرنسيين في جنوة، تجاوز الأربعين دون أن يدري؛ فعينه شارل الخامس قائداً للأرمادا.

- لا أريد منك، يا أندريا، إلا رأس بارباروسا.

انحنى تحية للإمبراطور.

- إنه لص بحر ليس إلا.

لم يتوقع أندريا كل هذا الحشد من السفن، رايات بارباروسا ترفرف، خفاقة على الصواري، الذعر يسري كدبيب النمل بين رجاله،

يتهايمسون: "كل هؤلاء". التقى الأسطولان، يتصايح رجال خير الدين، يقفزون إلى سفن أعدائهم، صدروهم عارية، شاهر السيف، المدافع مسلطة على السفن البعيدة، يتساقط القتلى من هنا وهناك، يتراجع أندريا إلى عرض البحر، يشير خير الدين لمحمد بالاقتراب من سفينته، يقفز خير الدين إلى السفينة التي يقودها محمد.

- ارجع إلى الميناء، سأطارد هذا القائد حتى يلحق بصديقه دي مارتن.

انقسم أسطول بارباروسا إلى نصفين، عاد محمد وحسن مع الآخرين إلى الشاطئ، بينما تقدم خير الدين مع الرئيس أيدن إلى عرض البحر، الرجال ينظرون من فوق الصواري في كل صوب، اختفى أندريا بعدد قليل من السفن.

- اختفى، يا رئيس.

قالها أحد الرجال، يضرب خير الدين دفة السفينة.

- ما أقرب ميناء لنا؟

أجابه الرئيس أيدن:

- ميناء مرسيليا:

- سندخل الميناء، ونبقى هناك.

علم الفرنسيون باقتراب أسطول بارباروسا؛ فتباعدت السفن، بل رحل معظمها عن الميناء. تزود خير الدين ورجاله من المرفأ والتقطوا أنفاسهم ثم واصلوا إحارهم إلى جنوة.

فرع أهل جنوة من هذا الهجوم المباغت، المدافع تدك المدينة قبل أن
ترسو السفن، اقتربت القوارب من الميناء، النيران تلتهم بعض السفن،
سأل الرئيس أيدن:

- أين الأسيران...؟

الخوف يملأ عيني الجندي.

- لا تقتلني، يا ريس.

اصطحب الجندي الرئيس أيدن وخير الدين إلى أسوار السجن،
حاول الحراس الاشتباك مع فصيلة الجنود المتقدمة بقيادة أيدن، نجح
أيدن بالإمساك برئيسهم.

- أنا الرئيس أيدن، أتعرفني...؟ وهذا الرئيس خضير... آه... أعني
بار... با... روسا... ستذهب معنا لإخراج الأسيرين أم ستترك رأسك
على سور السجن؟

الدقائق تمر قلقلة لقلق خير الدين، يخرج الرئيس أيدن وخلفه
الأسيران، يعانق خير الدين الرئيس صالح، الذي تحدث:

- لن أنسى لك جميل صنعك، يا خضير.

- هذا حق البحر علينا، يا ريس صالح.

- هذا ريس جديد لن يقل أهمية عن حسن ابنك... اسمه طرغد.

يصافح طرغد خير الدين.

- أشكرك، يا ريس.

- لا تزال صغير السن، يا طرغد.

صاح الريس أيدن:

- سبعة عشر عامًا.

- هيا بنا، قبل أن يصل جنود شارل إلى هنا.

انتقلت الفصيلة بكامل عتادها إلى السفينة، انسحب الأسطول،
والرجال تصايحوا فرحًا لتحرير الأسيرين.

بالفعل وصل رجال شارل إلى ميناء جنوة وسفن بارباروسا تختفي
عن العيون، كان طرغد ينظر إلى اليايسة التي تصغر رويدًا رويدًا، وفي
رأسه تكبر ذكرياته شيئًا فشيئًا.



ها هو ذا بارباروسا أمام عينيهِ، صافحه منذ قليل.

لعب مع الصغار في الحارة ممثلًا دور بارباروسا شاهرًا سيفًا
خشبيًا، تناديه أمه للطعام، أحيانًا يذهب، وأحيانًا يرفض، يصنع مراكب
من الورق؛ فتملأ أمه طستًا بالماء، يثرثر ويثرثر، يضرب الماء بيديه؛ فتهتز
المراكب، يخبرها أن رجال بارباروسا انتصروا، سفنه ترسو على شواطئ
الأندلس، ينقذ الموريسكيين، يحلم بركوب البحر مثل أبيه.

أبوه الذي قاوم الفقر والضعف قدر المستطاع، سمع أن سفينة
سترحل إلى الأرض الجديدة، حمل حلمه في صدره - حلم امتلاك
مساحة من الأرض، يزرعها أبناءه التسعة، يتوسطها بيت من طابقين،
الأول للترحيب بالضيوف والخزيرين بجواره حظيرة للماشية وعشة
للدواجن - وافقت الأم على اصطحاب زوجها، تمددت الأسرة على
سطح السفينة، تنام العيون على حلم الثراء... حلم الذهب الساكن في
جبال الأرض الجديدة، استيقظوا في الصباح، السفينة تلعب بها الرياح،
فزع الركاب، الربان وطاقمه سرقوا ما غلا سعره وخف وزنه من
الأمانات، التي اشترط الربان أن تكون في قمرة خشية السرقة ثم
غادروا السفينة، المياه في كل صوب، السفينة تسير كيفما تشاء الرياح،
يلوحون بأيديهم لسفينة أخرى على مرمى البصر، تقترب سفينة فرسان
القديس يوحنا، يصرخون فزعاً، الفرسان يقتلون الرجال، يرى طرغد
أباه يسقط قتيلًا، الفرسان يقيدون النساء والصغار في جبال، يزج
كليمنت بهم في باطن السفينة، تسلل طرغد إلى أعلى الصاري، يصيح
أحد الفرسان مشيرًا إلى سفينة تقترب من بعيد:

- بارباروسا.

يسرعون في نقل الأسرى إلى سفنهم تمهيدًا لبيعهم، يقع بعض
الأسرى في البحر فلا يباليون بهم، ترحل السفن بصيدها، تقترب سفينة
بارباروسا، يتفقد الرئيس صالح السفينة، يسمع صراخ الصغير، يشير
أحد رجاله:

- إنه هناك، أعلى الصاري.

- اصعد إليه قبل أن يسقط.

يحكي طرغد للريس صالح ما جرى، يربت صالح على كتف الصغير.

- كم عمرك...؟

- ثماني سنوات.

- أين بارباروسا؟

- ستراه يومًا، نحن نرفع راية بارباروسا لأنها مرهوبة الجانب.

يرجع طرغد إلى جزيرته؛ ليعيش مع عمه، الذي يزوره الريس صالح كل عام، وهذا العام أصّر طرغد على الرحيل مع الريس صالح، حالمًا بالانتقام من فرسان القديس يوحنا.

يغمض عينيه، تتهاوى أحلامه على هدهدة الأمواج.

(٣٢)

هشم شارل كأسه غاضبًا، يحدق في أندريا:

- أرسلتك للقضاء على متمرّد، تُهزم وتنسحب غلّفًا وراءك قتل وأسرى، سيأتي أهل الأسرى يطلبون أن تفتدي رجالهم...

- مولاي، لم يتوقع أي قائد وأنا منهم حجم أسطولهم، كنتُ أعتقد أن بارياروسا مجرد قرصان، إننا نحتاج إلى تعزيزات.

- أهذا رأيك...؟

- نعم، يا سيدي.

يمد شارل يده في الهواء، يضع الخادم في يده كأسًا، يصب الخمر ثم يتراجع إلى الخلف، يجرع شارل الكأس دفعة واحدة.

- أتعرف من الآن في زنزانة مظلمة في أحد سجونى؟ إنه... فرانسوا... فرانسوا الأول... ملك فرنسا... بينما هذا... البار باروسا... حر طليق...

سكت أندريا مطرقاً، يخطو شارل إلى مخدعه، وأحاسيس الحزن لما جرى في مرفأ شرشل وأحاسيس الزهو لانتصاره على عدوه الأول فرانسوا يمتزجان ببعضهما البعض. يحدث نفسه: "فرانسوا الأسير... ماذا سأرى في عينيك"، زوجته (إيزابيلا) ابنة عمه وأخت ملك البرتغال كليمنت الثالث تنتظره في ثوب تفتتح منه أنوثتها، التي انهمك شارل في نعيمها، تلاّلات ثم توهجت ثم استراح من شوط العشق، الظلام مسكوب حوله.

- أتعرفين، يا (إيزابيلا)، كاد فرانسوا أن يكسب المعركة، التي دارت بيني وبينه في بافيا، لولا تهوره وتسرع، جاءني الفرصة على طبق من ذهب، لم يستطع رد فلول جنودي المتلاحقة.

أصابها تمسح على رأسه، وأنفاسها تلفح جانب وجهه.

- من يقف أمام الإمبراطور شارل حامي الكاثوليكية.



عادت فلول الجيش الفرنسي إلى وطنها تحمل نبأين، كلاهما أسوأ من الآخر: نبأ الهزيمة... ونبأ أسر الملك، شهقت الأم حزناً على أسر ابنها: "الملك فرانسوا حبيس زنزانة... من يستطيع مواجهة شارل؟ من يستطيع؟"، انهارت على مقعد....

- اتركوني بعض الوقت.

امتدت عبارة بعض الوقت لأيام، حُثِّن البعض: ربما أصاب أم
فرانسوا الخرس لهزيمة ابنها، التزمت حجرتها في انتظار عودة الرسول
من إستانبول، استيقظت على قرع الباب.

- الرسول هنا، يا مولاتي.

بسّطت الرسالة:

"من خليفة المسلمين وخادم الحرمين السلطان سليمان القانوني:

إن سيفنا مُعلّق وجوادنا مُسَرَّج..."

طوت الرسالة وغفت تلك الليلة، والرسالة فوق صدرها.

(٣٣)

ماتت (ماري). وجدت جميلة حجرتها خالية والجبال ممزقة،
ضربت صدرها، أسرع إلى المقهى، في منتصف الطريق قابلت
(بلانكو)، همست له:

- (ماري) هربت.

- أين كنت؟

- في زيارة حبيبة.

- عودي إلى البيت.

قلبه يحدته، أنها هناك... على الشاطئ، هل سيحدث ما حدث في
جيجل؟ بشعلة واحدة يتقل من مكان لآخر بطول الشاطئ، على ضوء
الفجر الباهت، رأى جسدها ممدداً فوق الصخور، الوجه لوثته الدماء.

- ماااااري

.... "ماتت (ماري).... ماتت ابنة (بلانكو).... ماتت ابنة شيخ
الأندلس.... ماتت (ماري) المجذوبة.... ماتت (ماري) التي اغتصبها
الراهب.... " في الحانات تكاثرت الأسئلة وتناثرت كقطع زجاج حادة
الحواف: "من قتل (ماري)؟... هل قتلها (بلانكو) ليتخلص من
عارها؟... كان قتلها في جيغل... قتلها جميلة ليعود لها (بلانكو)،
ويتقدم الرجال لبناتها في المستقبل؟... جميلة كانت في القلعة... قتلها
محمد؟... محمد كان في المقهى مع الرجال... من قتل (ماري)؟ "

عاد السؤال يطن في الرؤوس من جديد بين جذران الحانات، مع
اصطكاك أقداح الشراب، مع الشئام المتلاحقة من أفواه البحارة، مع
فرقة الأصابع اعتراضاً على قول الآخر، مع أيديهم المتشابكة، لكن
السؤال ظل بلا إجابة.

ينخرط محمد في بكاء شديد، الدموع لم تتوقف، النجيب الذي ينبع
من الداخل لا نهائي، ظل محددًا إلى البحر، حتى الظهر، السفن تسير على
مهل، يخطو خير الدين صوبه، يعلم محمد تمامًا أن الرئيس جاء لوداعه،
الحزن يكسو اللقاء، ظل محمد في جلسته، والسفينة ترحل بالرئيس خير
الدين إلى إستانبول؛ لمقابلة السلطان سليمان القانوني.

(٣٤)

موج وراء موج، موج في كل جانب، على مرمى البصر تمتزج زرقاة
البحر بزرقاة السماء، وخلف الزرقاة بحر من الذكريات القرية والبعيدة،
يمتزجان كالماء بالملح في رأس خير الدين.

سأل والده يومًا:

- ممَّ يتكون البحر.

- الماء والملح.

- ولماذا الماء والملح؟

- الله خلق من الماء كل شيء حي.

- والملح

فكر يعقوب قليلاً:

- الملح تقدمه للضيف مع الخبز، ونثره في وجه العدو، (مسح على رأس خير الدين)، احفظ الملح الأبيض لليوم الأسود، والبحر اسمه الملح، ألم تسمع البحارة يقولون السفن تطفو على الملح؟!

تدهن حبيبة ساقها لتخفف آلام المفاصل، من الشرفة يراقب خير الدين، محملاً وطرغد يدربان الموريسكيين على السلاح، بينما مصطفى يتفاوض مع الإسبان حول دية الأسرى، صوت حسن من الساحة الخارجية للقصر:

- رسول من إستانبول.

رسول من إستانبول، ردها خير الدين لنفسه مرة وراء أخرى، منذ سنوات نسي عددها، أرسل (بلانكو) إلى إستانبول، استقبله السلطان سليم الأول، ثم أرسل سفينة حربية محملة بالمدافع والرجال، فخن خير الدين أن الأمر سيتوقف على إرسال المزيد من السفن أو الرجال للذود عن الساحل الشمالي الإفريقي أو لوقف سيطرة الأسبان، وربما لإنقاذ الموريسكيين، فإذا بالرسول يقدم رسالة لخير الدين:

"من خليفة المسلمين سليمان القانوني إلى القبودان خير الدين بن يعقوب بن يوسف، رغبتى توجيه عمل ضد إسبانيا، ضع مكانك رجلاً جيداً وعاقلاً وأسرع إلينا، إذا لم تجد من تتوكل فيه المقدر، أعلمنا..."

فطلب خير الدين من (بلانكو) وجيلة، انتقاء الهدايا وطريقة عرضها على خليفة المسلمين.

منذ أيام قلائل، كانت عشرات الأيدي تلوح مودعة له.
لوند يرده عن ذكرياته، مشيرًا إلى طيور النورس التي تحلق بالقرب
من الشاطئ.

- الشاطئ، يا ريس.

في الميناء، كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا العيتابي يرحب بخير
الدين.

- شرف كبير لنا أن نقابل مجاهدًا مثلك، يا خير الدين.

- بل شرف لنا أن أقابلكم لأشكركم على إمدادكم لنا بالرجال
والعتاد.

- هذا واجبنا، سترافق سُفْنًا من الأسطول العثماني إلى تركيا،
يبتظر مولانا خليفة المسلمين سليم القانوني، لولا اتجاهاه لإخضاع تمرد
الشيعة بإيران لذهبت معك.

- أستقد أن حاكم الدولة الصفوية طهماسب بن إسماعيل.

- أنت تتابع الأحداث جيدًا.

- لست أفضل ممن يعيشها.

قضى الرجلان الليلة في السهر والسمر والاستمتاع، مع بواكير
الصباح افترقا.



في إستانبول مُملت الجمال بالذهب والأحجار الكريمة، الأقمشة
الحريرية والقطن. خلف الجمال سارت حسناوات بالهدايا من إفريقيا:
أسود ونمور في أقفاصهم وأصناف من الحيوانات، ثم خير الدين على
صهوة جواده.

اصطف أهالي إستانبول على الجانبين؛ لمشاهدة خير الدين...
الصيحات تطايرت فوق الرؤوس...

"إنه هناك... انظر... هذا بارباروسا... رأيت يا صغيري....
قاهر الإسبان... سيد البحار... محرر الجزائر..."

يطل قصر الخليفة على الركب القادم، يفتح باب القصر على
مصراعيه، أسراب الحمام الأبيض تنطلق ترحيبًا بالزائر، قرع الطبول،
الأبواق تعلن الترحيب والقدوم، تفتح الأبواب، الجنود يصطفون على
جانبى الطريق، من شرفة القصر يتابع سليمان الزائر، استبشر سليمان
بقدوم خير الدين خيرًا، يتقدم رجل من الخليفة.

- رسالة، يا مولاي.

يفك ختم الرسالة.

"مولاي، لقد وضعنا أيدينا على رجل البحر الحقيقي، لا تتردد في
منحه لقب باشا.

الصدر الأعظم / إبراهيم باشا"

أشرف خير الدين على الأسطول العثماني، قدّم فكرة حمل المدافع الخفيفة على عجلات؛ ليسهل تحريكها على الشاطئ، تحدث للسلطان:

- في حصار القسطنطينية كان المدفع يزن تسعة عشر طنًا ويحتاج إلى مائتي رجل وستين ثورًا ولا يمكن إطلاقه سوى سبع مرات في اليوم الواحد، ثم تطورت المدفعية، (يشير إلى أحد الرسوم)، لمدفع أقل حجمًا يعتمد على عجلتين كبيرتين في التنقل، حتى يمكن استعماله في أرض المعركة، ويمرّ بواسطة الحيوانات، للمدفع ذيل يرتكز به على الأرض، لمنع الارتجاج أما هذا المدفع فهو أقل حجمًا، له شراع يساعدنا في سرعة الحركة والدوران ولا يحتاج إلا رجل مدفعية واحدًا.

- تقصد: طوبجياً واحداً.

- نعم يا مولاي، ويسهل إضافته إلى السفن لخفة وزنه، فلا يمثل حملاً ثقيلاً على السفينة.

قدم سليمان مشروباً أسود اللون مر الطعام بعض الشيء استطعمه خير الدين.

- ما هذا المشروب، يا مولانا؟

- القهوة، جاءت إلينا من الحبشة عن طريق جزيرة العرب.

لاحظتها تذكر البايب، الذي أحضره (بلانكو) من البحارة العائدين من الأرض الجديدة، نسيها بعض الشيء، لاحظها تتشر بين الرجال ولم

يعلق، ظل سؤال حبيس في صدر خير الدين، سليمان على أبواب الأربعين عامًا ولم يتزوج، كان يود سؤاله لماذا...؟ مثلما سأل (يسي) عروجا منذ زمن، عروج يخشى البحر والنساء؛ فماذا يخشى سليمان؟ وجد من الكياسة ابتلاع السؤال، أعجبه الحُمام المشيد من الرخام والمزين بزخارف أخاذه، فقال أحد الرجال المصاحبين له:

- هناك أيضاً حمامات للعامة على نفس الطراز والنوع.

رافق خير الدين الخليفة إلى صلاة الجمعة، عند مرور ركب السلطان، ينحني العامة تحية له، حين دلف الخليفة إلى المسجد مع ضيفه لزم المصلون الصمت.

بعد العشاء أرسل سليمان إلى ضيفه رسولاً ليصطحبه إلى جناح الخليفة، حين دخل خير الدين قاعة الحفل، قام الخليفة ثم الجميع.

- مرحباً بك يا بارباروسا... تعال هنا بجواري.

صفق الخليفة لتواصل الموسيقى عزفها، فتهايل الراقصات على الإيقاع الموسيقي، توزع الجاريات الفاخرة على الجالسين، تشدو مغنية بصوت عذب، سأل سليمان ضيفه:

- أتعرف التركية؟

- حفظكم الله، يا مولاي، أعرف من اللغات سبعاً.

- ما شاء الله... ما شاء الله... إن أعظم ملوك أوروبا يجيد لغتين أو ثلاثاً على الأكثر.

يتابع الرقص والغناء، التقطت أذنا خير الدين همس رجلين:

- ها هي ذي وردة الربيع.

- يا الله، آية من آيات الجمال.

- أجمل محظيات الخليفة... يقولون: إنها حامل.

- أظن ذلك.

أشار الخليفة بانتهاء الحفل، اصطحب ضيفه إلى حجرة خاصة، على ضوء القناديل المدلاة من السقف، شاهد خير الدين خريطة لحوض البحر المتوسط، تأملها على مهل، ثم نقر بأصبعه مرددًا:

- تونس...

- أحسنت يا خير الدين، هنا امتداد القوات التركية، دخلت بلجراد، توقفت هنا.

....-

- انسحبتُ بالقوات لسبيين: أولهما: اقتراب الشتاء، والآخر قلة المؤن... أنت تحكم الجزائر... لا تزال تونس تحت حكم الإسبان.

أمعن خير الدين التفكير.

- يا مولاي، أمر الإسبان سهل، لكن الحكام، والبدو ولاؤهم

مشبوه.

- الجبان دائماً ولاؤه مكذا.

- والخائن لا ولاء له.

- اقطع رقة الخائن بلا تردد، ستبقى معنا لتعد الأسطول المناسب.

قبل أن يغادر خير الدين الميناء في أسطول مكون من ثمانين سفينة
وثمانية آلاف جندي، بشهر أو شهرين، أنجبت ورد الربيع ذكرًا فأسماه
الخليفة مصطفى، قدّم خير الدين هدية للمولود، ضحك سليمان:

- سيكون هذا الرضيع - إن شاء الله - وريثًا للعرش، (ثم همس)،
سنعقد اتفاقًا مع فرنسا لتخفف الضغط عنك.

أقيمت الاحتفالات بالمولود في أرجاء إستانبول، علّقت الرايات،
امتدت الأبسطة بالطعام، عزّفت الموسيقى، شدا المغنون، تراقصت
الجواري.

في رحلة العودة احتل الأرق قلب خير الدين، خشية أن تتجه
الأرصاد إلى الجزائر لاحتلالها.

"تري هل يستطيع حسن الدفاع عنها؟"

- هنالك العديد من الرجال: الرئيس صالح، الرئيس طرغد الرئيس
(بلانكو)، محمد، حسن، مصطفى.

يتسلل حلم إليه.

ضباب كثيف والأمواج عالية تنكسر على حواجز السفن، يشير
بيديه للتقدم صوب الأندلس، لكن الأساطيل تشتت وتفرق، كل
أسطول في اتجاه، الضباب الكثيف يحجب السفن.

- الأرمادا، ياريس

يقاثل مع رجاله، الأرمادا تتقهقر وتختفي خلف الضباب، على
شاطئ بلنسية عشرات الآلاف، يحشد الجميع على السفينة، تتحرك ببطء
من ثقل الحمل، يضع الباقي في القوارب، فلا يجد له مكاناً، ينظر يساراً
ويميناً، الشاطئ خالٍ إلا من عجوز، تربت على كتفه.

- مير إلى الماء

.....-

- لا تخش البحر، فهو يعرفك.

.....-

يخطو فوق الماء خطوة وراء أخرى؛ فيرى نفسه في قلب برميل
خشبي في سفينة بمجاديف في سفينة بشرع، ثم يقود أسطولاً إلى
الجزائر.

توجه خير الدين بأسطوله إلى تاجورة، تطايرت الأنباء في كل
صوب، فزع أبو عبد الله الحسن حاكم تونس بالأمر؛ فأرسل إلى شارل:

"مولاي شارل الخامس"

تونس يغزوها بارباروسا والأتراك، لا يزال ولائي خالصًا
لعرشكم المعظم....".

ثم جمع نساءه وأولاده وكنوزه وهرب إلى عرب الداخل، نزل خير
الدين تونس والتقى علماءها المتبرمين.

- الحسن وقّع معاهدة مع الإسبان وكان الوسيط، مراد بك.

رد خير الدين:

- الحكام العرب والإسبان.

لم ينسَ خير الدين ما فعله محمد الخامس والد أبي عبد الله الحسن،
حين وافق على نزول آل بارباروسا في جزيرة جربة وطعمه الشديد،
توالت أقوال علماء تونس عن بذخ وترف والي تونس وعشقه للغلمان،
أنهى خير الدين الكلام:

ستبقى تونس للذين لم يدنسوا أيديهم بيد غريبة.

(٣٥)

تعلم حسن من خير الدين الكثير، يحلم أن يكون يوماً مثل أبيه، لا
يزال يتذكر هتاف الموريسكيين:
"يعيش بارباروسا...".

آلاف الأيدي تلوح من بعيد، السفن تطلق داناتها تحية، لمرو
القائد، حتى المدافع في قلاعها في الموانئ كافة، تطلق تحياتها، الرئيس
أيدن يجرع الخمر ضاحكاً:

- إذا تشاجر زوجان في أوروبا ولم يعرفا سر الشجار؛ لصاح
أحدهما بارباروسا...

في تلك الليلة، التي كشف حسن سر حجرات التعذيب في الدير؛
حين أبصر المعذبين، تأمل سحناتهم على ضوء المشاعل، كادت الدموع
تنفطر من عينيه، رغب أن يضم والده إليه.

يخطو إلى بيت الماما جومانة، يراها جالسة على الدرج، تنفق للدجاج، يتجمع حولها، تدس يدها في جراب من القماش، تخرج القليل من الحبوب وتشهره أمامها، يصيح الديك، تأتي الدجاجات الشاردات يلتقطن الحب، ترهف السمع للخطوات القادمة.

تُظَلِّلُ براحة يدها على عينيها لترى القادم.

- أنا حسن خير الدين.

- تعال... تعال هنا... تعال يا ابن الغالي، ابن الغالي.

يجلس بجوارها على الدرجات الثلاث المؤدية إلى دارها، تواصل نقنتها للدجاج.

- أين خضير؟

- في تونس.

ابتلعت سؤالها عن سر حضوره؛ فهي تعرف لماذا يأتي...؟ بعد قليل ستأتي أرماء، أكبر بنات (بلانكو) الخمس، تحمل سبتاً فيه بعض الأطعمة اللذيذة التي تعلمتها من أمها. أول مرة رآها حسن كانت آتية إلى الماما، تحمل في السبت طبقين من حلوى الصمصا، سلبت لُبَّه بعينين في لون موج البحر، وشعر أصفر ناعم، وقد ممشوق ونهدين يعلنان عن وجودهما بخجل، نفس الخجل الذي ورَد وجتيها، سأل:

- من أنت...؟

- ما شأنك أنت؟

رمقها بنظرة تحدّ، ثم التفت إلى الماما متسائلاً:

- من حقّي أن أعرف من يأتي إلى الماما.

- الماما تخصني أكثر منك، اذهب لأبيك أو أغلق عليك قلعتك.

نسيت الماما ما دار بينهما، مع غروب الشمس كانا يضحكان معاً؛
يقتسمان طبق الصمصا، أصابه الأرق ليلتها، كلما أغمض عينيه، تراءت
له أرمائدا.

- الصمصا لذيدة الطعم

- بالطبع لذيدة؛ لأنني طهوتها بنفسي.

الدهشة من تصرفها تطل على وجهه؛ فأردفت:

- أحبيت التأكد أنها مضبوطة... بصراحة عند عودتي إلى البيت
ستكون قد نفدت... بصراحة، أنت أكلت نصيبي.

مع كل كلمة، كان يتأمل وجهها.

- توقّف عن البحلقة هكذا، وأكمل أكلتك.

- ماذا أنجبت أمك هذه المرة؟

- أمي توقفت عن الإنجاب منذ زمن.

- لم؟

....-

تحركت إلى الباب الخارجي، التفتت:

- أرسل سلامي إلى الماما...

تأرجحت الكلمة في رأسه من اليمين إلى الشمال وبالعكس، حتى أيقظته حبيبة، أغلق جفونه حتى تأكد أنه في فراشه، سأله أمه:

- مالك والماما؟

- الماما؟

- نعم دخلت لإيقاظك، سمعت غمغمتك، فجلست بجوارك حتى فهمت ما تقول.

- ماذا كنت أقول...؟

تغمض عينيها؛ لتقلده في نومه.

- أرسل سلامي إلى... أتحب الماما جومانة؟

راوغها، وراوغ مصطفى ومحمداً، ليأتي إلى الماما، في طريقه إلى بيتها يمر على بيت (بلانكو) كعابر سبيل، من خلف النافذة تراه، تدور سعيدة، تستبدل ثيابها، تهبط الدرج إلى الطابق الأرضي، اختلقت الكثير من الأعداء للذهاب إلى بيت الماما، في الأيام الأخيرة كانت تكتفي بإخبار أمها.

- سأذهب إلى الماما جومانة.

هذه المرة، أبدت جميلة ملاحظتها.

- هل تبتك العجوز جومانة؛ لتخفف العبء عني؟

ترددت في الذهاب، تحركت صوب الباب، استوقفتها أمها:

- أرمأندا، قلبي يحدثني أن أمرًا هناك، بالفعل لا أعرفه الآن،
لكنتي أحب أن أعرفه منك قبل أن يخبرني به أحد، أعلم تمامًا أنك
ستحافظين على سمعة أيبك وشرفه.

- بالطبع.

- لا مجال للشك في ذلك، لأنك ابنتي....

- اذهبي.

كان عيونًا تراقبها، كان هناك من يتبعها، خفق قلبها، تفصّد جبينها
عرقًا، تعثرت في خطواتها مرات، رآته - كالمعتاد - جالسًا بجوار الماما
منتظرًا قدومها، ألقت التحية عليهما، لاحظ حسن اصفرار وجهها،
تساءل عما بها، لاذت بالصمت، اتكأت الماما على ذراع حسن:

- تعاليا إلى الداخل. أمعك تبغ، يا أرمأندا؟

تذكرت أنها في صباح اليوم، تسللت إلى البدروم، لتسرق قليلًا من
التبغ، دست أرمأندا يدها في جيبتها لتخرج لفافة تبغ، تتناولها الماما،
تدلف إلى الداخل لترص التبغ في الحجر وتشد نفسًا عميقًا، أسرعت
أرمأندا في حديثها:

- أمي ارتابت اليوم في الأمر.
- قبل أن يجيب تحركت أرماندا.
- الماما، أراك غداً.
- لم أدخن بعد.
- غادرت أرماندا المكان بلا تردد، جاءت الماما من الداخل.
- للحب رائحة، يا حسن.
- جذب نفساً من الباب.
- أتمنى أن تبقى الرائحة في صدرك.
- شدت طرف الباب من فمه.
- بل أخرجها أنت؛ ليشمها كل الناس.
- شد الباب من يدها، جذب نفساً عميقاً، نفث دخانها على مهل....

(٣٦)

خير الدين مستلقٍ على فراشه، يفكر في حبيبة وحسن ونور ابنته،
فإذا بدوي انفجار، اندفع الرئيس أيدن إلى الغرفة:

- شارل يتقدم صوب تونس بأسطول لم نعرف له مثيلاً.

يرتدي خير الدين ثيابه على عجل.

- من معه من القواد؟

- شارل يقود الأسطول ومعه أندريا دوريا، وفي الجيش أيضًا ألمان
وإيطاليون.

- أهلاً بفرسان القديس.

بدأ جيش شارل بالهجوم مع قصف مدفعي، فزع أهل تونس؛
فغادرها البعض وبقي البعض الآخر، انفرجت أسارير مولاي الحسن،
الذي أسرع إلى شارل، وانحنى أمامه، تساءل شارل:

- هل معك قوات، يا حسن!

- قوتي مسلحة بالأقواس والنبال والخنجر والرماح الطويلة.

- أندريا، زوّده بألف وستائة خيال وحمولة ثمانية آلاف جمل من

الأرزاق.

انتشر ما جرى بين شارل ومولاي الحسن؛ فأعلن الأهالي تمردهم

على خير الدين، حصّن خير الدين القلعة بالمباريس.

- يا ريس أيدن؛ كلما حانت لك الفرصة هاجم.

ثم أرسل طلباً للمدد من الجزائر. نجح أيدن في الهجوم ثلاث

مرات متتالية.

- يا ريس خضير، علينا الانسحاب

- يوماً أو يومين، ستسحب القوات الإسبانية لقلعة الماء وارتفاع

الحرارة، عندئذ نستعد للانسحاب.

اندفع أحد الرجال:

- فرنك جعفر أطلق سراح الأسرى.

تساءل خير الدين:

- من هذا، يا ريس أيدن؟

- المكلف بحراسة الأسرى.

- علينا الانسحاب الآن براً إلى بون، ولكن هناك أمر يجب أن يتم بمهارة وسرية وسرعة.

- المخلصون كثيرون.

- أتمنى ألا يكونوا مثل فرنك.

- لكل جواد كبوة.

انهمك الأرقاء المسيحيون في تحطيم أغلالهم وفتحوا الأبواب لجيش شارل....

تناثرت الجثث في الشوارع والحارات، تعرضت تونس للنهب والسلب، يسير الجنود من شارع إلى آخر ومن حي إلى آخر يهدمون المدارس والمساجد، يمزقون الكتب ثم يحرقونها....

"أين أنت، يا خائن يا منسحب، أيها الباربا...؟... عد بربك يا باربا...!"

وصل المولى الحسن، رأى أكوام جثث... واشتم رائحة خراب، نظر ليده المباركة، وانفجر ضحكاً باسطاً ساعديه:

- خذيني في أحضانك، يا تونس.

يتبعه حرسه الخاص، بينما تنسحب القوات الإسبانية إلى القلعة لتتمركز فيها، استعداد شارل لمغادرة شواطئ تونس، حذق في وجه أندريا:

- هكذا تكون الحرب... أين هذا البارباروسا؟ لن يخرج عن قتيل
تلعقه الكلاب أو أسير يشم رائحة الذل... أطلقوا الدانات احتفالاً
بالنصر... أسمع يا أندريا... النصر... النصر.

نجح خير الدين بالخروج بقواته كاملة، وأحرق رجاله سفنه
والترسانة التونسية، وبقي في بون في انتظار المدد من الجزائر. وصلت
خمس عشرة قاذرة بقيادة حسن؛ لتحمل خير الدين وباقي الرجال.
سمع بارباروسا طلقات النصر، نظر إلى ولده حسن الغارق في حزن
داكن الملامح.

- إن الجيوش خلقت لتهزم وتتصر، ولكن ما يقتل الجيوش
ويبيدها... الخيانة.

- النهاية لم تأت بعد.

هاجم خير الدين نابولي ثم سيرلونجا على بعد اثني عشر ميلاً من
جهة الشمال الغربي ثم توجه إلى فوندي.

في فوندي، كانت جوليا جنز وجاكوادنا زوج الكونت فوندي
تستحم، فسمعت صراخ زوجها:

- يجب ألا يدخل المدينة.

التفت صوب وصيفتها؛ فخرجت تستطلع الخبر، ثوانٍ وعادات،
شاحبة الوجه، جافة الحلق، توقفت عن ترطيب ذراعيها الناعمتين
بالماء، تلاقت العيون، فقالت الوصيفة:

- يقولون.... يقولون يا سيدتي إن القرصان... يقترب بأسطوله
من المدينة.

انتفضت جوليا واقفة:

- ماذا...؟

غادرت حوض الاستحمام، وارتدت روبها على عجل ثم اتجهت
صوب الباب، استوقفها قول الوصيعة:

- ثيابك، يا سيدتي.

- هل سينتظر بارباروسا ارتدائي الثياب، ثم يضرب المدينة؟

أصبح القصر فوضى، تسللت جوليا من الأبواب الخلفية، تبحث
عن جواد؛ لتخرج به من المدينة، الإسطبل خالٍ من الجياد، لمحت فارسًا
يعد جواده، اتجهت صوبه، التفت على صوتها الخافت.

- أوه، سيدتي جوليا.

- أريد الخروج من المدينة، قبل أن تغمرها الدانات.

تأمل نهديها المتواريين خلف الثوب الخفيف، الذي التصق بجسدها
من البلل.

- وماذا أكسب أنا؟

- الذهب.

- هل سيستظر بارباروسا أن تحضري الذهب...؟
- ليس معي شيء الآن.
- بل معك
- حددت في وجهه، أفزعها الصراخ المتواصل من كل صوب.
- سفن بارباروسا تقترب.
- في خفة ورشاقة قفزت على الجواد، ركب الفارس خلفها.
- أعرف طريقًا مختصرًا
- صوت أول طلقة من طلقات المدافع أفزعها.
- لنسرع.
- نهب الجواد مسافة طوال النهار، توقف الفارس بالجواد في قلب الغابة.
- آن لنا أن نستريح.
- أخاف أن يلحق بنا رجال بارباروسا.
- بضع دقائق، يلتقط الجواد أنفاسه ثم نواصل السير.
- قفزت إلى الأرض، مسح الفارس على رقبة جواده.
- استرح، خذ أجرك من الطعام.

ثم انجه إلى جوليا الجالسة فوق حجر، قعد القرفصاء أمامها.

- أسمح سيدتي بأن أنال أجري؟

- ستصل بي حيث أشاء.

أوما برأسه، أزاح ثوبها لتتلاّأ أنوثتها، وشعرها الأصفر المسدل
حتى الخصر، يواري نهديا، يزيح الفارس خصلات الشعر على مهل
متأملاً بزوغ نهديا أمام عينيه، قبل شفيتها الصغيرتين؛ فأفسحت جوليا
مكاناً لرجولته...

صَفَرٌ لجواده وانطلق إلى مدينة والد جوليا، استقبلها فرسان أبيها،
وضع أحدهم رداءه؛ ليواري عريها الفاضح، همست لرئيسهم؛ فانطلق
سهم واستقر، تماماً، بين فخذي الفارس.



(٣٧)

إذا كانت وردة الربيع آية من آيات الجمال؛ فإن المحظية الجديدة
روكسلانا هي الجمال بكل آياته، سلبت لب الخليفة سليمان؛ فأنجبت بتًا
ثم أخرى، عاشت إستانبول فرحة عارمة لزواج سليمان من روكسلانا
منذ أعوام، وها هي ذي تضع مولودها الثالث، يدلف سليمان إلى
مخدعها، يقبل صغيرها، نظر في عيني زوجته.

- سنسميه: سليمان، على اسم والدي.

ابتسمت.

في الجناح الآخر من القصر ذاته، تلقت وردة الربيع الخبر بجزع،
وهي تراقب من النافذة ابنها مصطفى يتدرب على يد أحد الفرسان.

- أنجبت روكسلانا ولدًا... هل ستسكت عند هذا الحد، أم
ستطمع في العرش لرضيعها؟

التفتت إلى وصيفتها، التي أجابت:

- لا يعلمُ الغيب إلا الله، يا مولاتي.

انجهت وردة الربيع إلى مكتبها، ودوّنت بضعة سطور ثم غمست الريشة في المحبرة؛ لتستكمل الرسالة، نفخت نفخًا خفيفًا حتى جف الحبر، لَفَّت الرسالة.

- سيأتي الصدر الأعظم إبراهيم باشا لتهتة السلطان، أعطو الرسالة، لا أريد أن يعرف أحد بأنني على صلة به.

عاودت وردة الربيع النظر من شرفتها، متأملة صغيرها.

في الجناح الثاني للقصر وبعد مغادرة الخليفة مخدع روكسلانا، مالت على شقها الأيمن تتأمل صغيرها المغمض العينين، همست:

- يجب أن تحكم هذه البلاد.

(٣٨)

يتلأأ قصر شارل بالأضواء، الضحكات تتناثر في الهواء، الكئوس
ترتطم ببعضها البعض، الموسيقى تتسلل من النوافذ؛ معلنة البهجة في
أرجاء المملكة الرومانية المقدسة؛ لانتصار شارل وعودة تونس إلى
سيطرته، النساء والرجال يتراقصون، البابا كليمنت السابع وأندريا
يباركان شارل، وهم يتسامرون، يدلف أحد الضباط، يتوجه إلى شارل
ثم يهمس بنياً ما، يشير للبابا وأندريا أن يتبعاه.

في حجرة مكتب الإمبراطور، يفصح الضابط:

- سيدي، أبو الأبالسة قلب جزر بالير رأساً على عقب، استولى على
ميناء ماهون في ميوزكا، ودكّ مدينة فوندي بمدفعه، ثم خرج من جبل
طارق وجاء إلى خليج قادس وضرب ميناء فارو في جنوب البرتغال
و....

يصرخ شارل:

- كفى... كفى... ألا يتوقف؟

تحدث البابا:

- نجح هذا الثعلب في سرقة نشوتنا بالنصر.

- هذه رسالة....

- اقرأ.

- يقول لك إنه لا يزال....

- ما العمل، أيها البابا؟

أمعن كليمنت في التفكير، ثم أجاب:

- العصبة المقدسة.

- ماذا...؟

- هذا عدو لدود، وعليك يا مولاي من الآن إعداد أسطول

ضخم، وسأقوم بجولاتي في جنوة والبندقية، سأذهب بنفسي إلى خوان الثالث ملك البرتغال، وسأقنع الجميع بالانضمام إلينا، سأرسل لك قوة من الفاتيكان بهذا الحشد من العصبة المقدسة، لن يقوى أحد على وجه الأرض على مواجهتنا.

تجول البابا في أنحاء أوروبا؛ محمّسًا النبلاء والملوك في إسبانيا وألمانيا وفرسان القديس يوحنا وغيرهم، بالانضمام إلى العصبة المقدسة، نجح

شارل بإقناع القائد هرنان كورتس فاتح المكسيك بأن يقع تحت قيادة
أندريا دوريا، حين تساءل هرنان عن سر ذلك، أجابه شارل:
- إنه أعلم به منك.

فوافق هرنان على مضمض، بينما انتاب أندريا قلق؛ فتحدث لأحد
ضباطه:

- أحس أنني متورط في هذه المعركة.

- لماذا يا سيدي...؟

- أسطولنا، وإن كان كبيرًا، فهو خليط من أجناس مختلفة لا يفهم
أحدهم مع الآخر، حتى سفنه منها الشراعية وأخرى بمجاديف، لكن
ما لنا بد.

(٣٩)

لم يُصدّق بارباروسا مقتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا في ظروف غامضة. قد تبدو ظروف مقتل إبراهيم باشا غامضة إلا على اثنتين، هما: وردة الربيع وروكسيلانا. فكلما قضى الخليفة وطراً من زوجته روكسيلانا؛ قطرت في قلبه قطرة مكيدة.

... مولاي، يقولون: إن شخصاً يأتي مُلثماً إلى وردة الربيع...

... مولاي يقولون: إنه الصدر الأعظم.

... ألاحظت اختفائه من مجلس اليوم؟

... كُلف رستم بك بمراقبته...

... قال رستم: في ليلة أمس تسلل الصدر الأعظم إلى مخدع وردة

الربيع، فلم يخرج إلا مع الفجر...

بالفعل دخل الصدر الأعظم مخدع سيده وردة الربيع الزوجة الأولى للخليفة؛ فقد عهدت إليه منذ زمن بعيد برعاية مصطفى وتثقيفه

وتدريه، وذلك دون أن يشعر به أحد، توجست ورده الريع شرًا من
روكسيلانا، إذ قالت يومًا لإبراهيم باشا:

- رأيت إحدى وصيفاتي رستم باشا يخرج من جناحها.

- رستم معروف بالمكيدة.

- إذا يجب التخلص منه.

- مولاتي، هو ذيل الثعبان والرأس روكسيلانا والبيضة سليم.

- سليم لا يزال صغيرًا.

- إذا قضى عليه، انتهى الشر.

- سياقي شر آخر لا نعرف مصدره، أصبح لسليمان العديد من
الأبناء من محظياته.

- إذا، نقضي على روكسيلانا.

- سيصبح الأمر مكشوفًا.

- عدنا إلى أول الأمر... رستم.

- حسنًا، دبّر أمرك.

المقولة ذاتها قالتها روكسيلانا لرستم:

- أعدك يا رستم، إذا قمت بهذا الأمر؛ أن أزوجك ابنتي الكبرى.

انحنى رستم لمولاته روكسيلانا:

- سيأتيك الخبر قبل أن تتزين السماء بهلالٍ جديد.

قبل أن يولد الهلال الجديد بيومين أو ثلاثة، انتشر خبر مقتل إبراهيم باشا، نام سليمان قرير العين لبراءته من دماء إبراهيم، لكن هاجسًا في صدره أن ثمة مكيدة وراء موته، جذب الغطاء على جسده، تساءل: هل خائنه وردة الربيع؟

ترث قليلًا في الإجابة على نفسه، تبدو له صورة روكسيلاناثم وردة الربيع، تتداخل الصورتان، يدفع الغطاء قلقًا، يطلب إحدى محظياته، يقضي منها وطرا، يتخلله التعب، يهمس لنفسه:

- القضاء والقدر نصّراني، دون أن تتلوث يدي بدمائه...

راح في سبات عميق.

(٤٠)

يطأ خير الدين شواطئ الأندلس مرة أخرى، تسبقه بضعة قوارب
لتأمين نزوله إلى الشاطئ، والتخلص من سرية قشتالية، يسير إلى إحدى
الحيام، يستقبله وجه مألوف لديه يمد يده مصافحاً:

- طبت مساءً، يا ريس ماركو.

- طبت مساءً، يا ريس بارباروسا.

التفت بارباروسا يميناً ويساراً باحثاً عن زياد، ثم تأمل الوجوه،
حزن يظلل محياها، العيون بها كثير من الكلام المتواري خلف ستائر
شفافة من الدموع.

- أين الريس زياد؟

تقدم أحد الرجال الواقفين خلف ماركو بكوب، قائلاً:

- شراب دافئ، يا ريس.

أوما برأسه عمتاً، تحدث ماركو ذو العمر الذي يتراوح بين منتصف العقد الثالث وآخره.

- هيأ، يا رجال، أسرعوا.

فهم خير الدين أن ماركو ينبغي الانفراد به، دقائق وأصبح الاثنان منفردين، تحرك ماركو من خلف طاولة صغيرة.

- ربما تعرفني، على الأقل شكلاً، لكن الجميع هنا يعرفك، يا ريس، جيداً.

أخرج ورقة طويلة من صندوق في أحد الأركان.

- في هذه المرة ستكون، يا ريس، قد أنقذت سبعين ألفاً من الموريسكيين الفارين بدينهم.... كان زياد - رحمه الله - يُدَوِّن أعداد الهاربين في كل مرة.

مات زياد أيضاً، أصبح ماركو أحد رجاله قائداً للشوار في الجبال، يدبر أمر الهاربين وأمر الرجال الذين يعيشون معه، يقتاتون نفس الحلم الذي يتوارى خلف ضباب الأيام، ذلك الضباب، تزداد قتامته يوماً وراء يوم.

لم يعرف أحد كيف مات زياد أو أين؟ لكنهم أيقنوا أنه مات، اختلفت الروايات: زياد وهو راجع إلى الجبال خرجت عليه سرية من قشتاليين تبلغ الخمسة عشر فارساً بالقرب من نهر شنبيل، رأوه مدججاً

بالسلاح من رأسه إلى أخمص قدميه، مغلقاً خوذته شاهراً رمحاً، حتى الجواد غارقاً في رداء من الصلب؛ فاشتبك معهم في معركة، بوثة واحدة كان في وسطهم، كان يقاتلهم بلا تردد أو تراجع كأنه يشناق للموت، كُسر رمحه؛ فاستل خنجره، واستطاع قتل أغلب السرية؛ فجاءت أخرى، تراجع مدافعاً عن نفسه؛ فسقط في النهر؛ فابتلعه على الفور - ربما لأنه كان مدججاً بالسلاح - فغاص بسهولة إلى القاع.

لم يحك ماركو عن المشادة الكلامية التي جرت بين زياد وبعض قواد الثورة الياثسين من الجدوى والوجود والعدم، دفع زياد كل شيء أمامه وصرخ:

- سأموت هكذا دفاعاً عما أومن به، إن لم أظفر بقبر يستر رفاقي فلن أعدم سماء تغطيه.

ثم خرج إلى الشوارع، ولم يره إنسان أو يسمع به بعد ذلك قط.

صافح خير الدين ماركو، ارتحل بسفيته عن شاطئ الأندلس، صوت مصطفى يتشله من حزنه:

- أصبحنا في مأمن من الأسطول الإسباني.

- "كبر الصغار"، ردها خير الدين بينه وبين نفسه، ابنه حسن ثم مصطفى وأخيراً نور، كانت حبيبة تساعد في ارتداء الثياب؛ فقالت مبتسمة:

- ابتك أصبحت عروسًا.

تأمل حبيبة، ردد قولها في رأسه:

- أنت في عيني أجمل عروس.

رغم شدة مرضها، كانت هناك أشياء تختصه بها، مساعدته في ارتداء الثياب، إعداد الغداء، ترتيب ثيابه، لا تدخل الجوارى إلى مخدع الرئيس خير الدين أثناء وجوده، لا تجرؤ واحدة منهن على الاقتراب من صوان الرئيس، يوزعن المباخر النحاسية في أرجاء المكان، في الآونة الأخيرة تتكى حبيبة على عصاها ثم تواريها عن ناظره. مصادفة رأى العصا، أمسكها بيده، خطأ صوبها، قبل جبينها، ارتجفت جفونها وهي تستيقظ.

- أحبك.

ابتسمت، غادر الفراش تاركًا العصا بجوارها.

أفاق من شروده على خطوات مصطفى مبتعدًا.

- لماذا لم تزوج إلى الآن؟

التفت مصطفى إلى خير الدين.

- أحب البحر.

تحرك إلى قمرته، تاركًا مصطفى يتأمل زرقة البحر، كانت سفينة الرئيس خالية من المهاجرين، بينما تتبعه سفيتان محملتان بالموريسكيين،

ترتسم على زرقة البحر صور من رأس مصطفى، في كل صورة تشرق
نور بوجهها المشرق... صورة تسير في جواره إلى دار (بلانكو) يباركان
للخالة جميلة بمولودتها السادسة.... صورة وهما في حديقة وارفة
الظلال... صورة وهي تحفظ القرآن مع إحدى الجوارى... صورة وهو
وحيد يفكر في إخبارها بحبه.

للمرء أن ينجو من البحر والدانات والسيوف التي تثبت الهواء على
الحناجر، لكن لا مفر من عيين تترصدان القلب الأعزل.

(٤١)

- نعم، كنت أحاول حماية ولدي.

حذق سليمان في وردة الربيع، أشار لها بالانصراف، للممت غيظها
وخرجت يتبعها حفيف ثوبها، من الآن أصبحت الحرب بينها وبين
روكسيلانا بدون موارد، اليوم فقط قررت مواجهة السلطان، انحنى
أمامه، "واريت" الكلام، ثم ألقت قولها المتفجر في وجهه:

- موت إبراهيم باشا، سهم في صدر الدولة.

ألقي ما في يده.

- أنا الدولة... أنا الدولة.

انجه صوبها، قبض على ساعدها، مردفًا:

- أنا من فتح رودس... هناك في المجر انتصاري سجله العالم...

موقعه موهاكس... دخولي بودا، فتحت العالم حتى أسوار فيينا...

تحالفت مع فرنسا، حتى البحر، هناك البارباروسا، يعلم الإسبان كيف تكون ملاحظه.

- أنت الأمة وأنت أيضًا الزوج الذي دست روكسيلانا في رأسه
ظنونها؛ لتتهم سيدتها بذلك، في قصر زوجي واحتاج إلى حماية ولدي
من الدسائس.

- إن زوجتي مثلك.

- وتطمع في العرش لصغيرها سليم.

- العرش من حق ولدك.

- والظن بي من حقك.

- لم أظن.

- لم تتأكد، لأنك لو تأكدت لقتلتني أيضًا.

- أنا بريء من دم إبراهيم.

- أتمنى ألا تتلوث يدك بدم آخر.

- أحتاجين لإبراهيم؟

- نعم، كنت أحاول حماية ولدي.

توقفت ورده الربيع في أحد ممرات القصر؛ لترى ابتسامة صفراء
على وجه الصدر الأعظم الجديد رستم باشا، حدجته بنظرة نارية،
فانحنى:

- مولاتي.

واصلت سيرها إلى جناحها الخاص، يودعها بعينه حتى تتواري،
يوصل سيره إلى جناح روكسيلانا، فأنحنى:

- مولاتي.

- مرحبًا، يا رستم بك.

- ماتت كل الشكوك، وانتهى أمر إبراهيم باشا.

- أنا عند وعدي

انحنى منصرفًا، استدارت روكسيلانا، انجذبت لحجرة ابنتها
الكبرى؛ فرأتها جالسة على طرف فراشها، تبللت وجتها بالدموع،
التفتت إلى أمها.

- تزوجيتي لرجل يقارب سن أبي.

- لا ضير.

- لا أحبه.

- لا شيء اسمه الحب، اسمعي جيدًا، زواجك من رستم باشا
سيكون حماية لنا، سيفعل كل ما أطلبه منه، لتصبحي أخت
السلطان سليم، أم أرفض رستم باشا، ليتولى مصطفى بن وردة الريع
الحكم ونعيش ذليلات في جناح الحریم وربما يقتلنا مصطفى.

- لن يقتل أخ أخاه.

- قابيل قتل هابيل، وجدك السلطان سليم الأول قتل إخوته لينفرد بالحكم.

اقتربت من ابنتها، تجفف دموعها بأناملها.

- إنني أفعل ذلك من أجلكم جميعًا، أعرف أنك تضحين بذاتك، لكن اعلمي أنك تضعين بزواجك مجددًا لك ولنا.

اعتدلت روكسيلانا، قبّلت رأس ابنتها.

- سأخبر رستم باشا بموافقتك.

نظرت الابنة إلى والدتها؛ لترى في عينيها وخلجاتها آية الإصرار والعناد؛ فنكست رأسها وهزتها بالموافقة....

(٤٢)

"آن لك، يا مصطفى، أن تتحدث".

قالها مصطفى وهو يراقب نور، تسير عن بعد صوب بيت الريس صالح، تسرع الخطى من شمس منتصف النهار، تحتمي ببعض الأشجار المتناثرة على طول الطريق، أوشك مصطفى على العبور إليها، يلتفت يمينًا ويسارًا، تصطدم نظراته بالريس طرغد، يأتي من الجانب المقابل، تسبقه إلى داخل بيت الريس صالح، تسمر مصطفى في مكانه مرددًا.

- طرغد!!

اختبأ خلف شجرة منتظرًا خروج أحد من البيت، تتلاعب به الهواجس... ربما مصادفة... ربما لزيارة الريس صالح المريض، مضى الوقت ثقيلًا، يخرج طرغد، يلتفت في كل صوب، يشير إلى نور بالخروج، تسرع الخطى عائدة إلى قصر أبيها، تلتفت صوب طرغد، تلوح له، يتسم ويدعها يديه، تتراقص في سيرها، ساد السكون

المكان، سار مصطفى متوارياً عن الأعين، يدلف إلى الحانة، محمد يفرغ من كأسه.

- تعال، يا ريس مصطفى.

ينخطو مصطفى نحوه.

- تشرب خمرأ في وضح النهار؟

- في وضح النهار، في الليل لا يهم.

- لماذا تشرب؟

قال مصطفى، وهو يجلس:

- لأنسى.

يصب كأسين من القارورة.

- ماذا تنسى...؟

جرع محمد الكأس دفعة واحدة، توقف عن الحركة بضع ثواني، هز كتفيه:

- نسيت، ماذا أنسى؟

ينفجر الاثنان في الضحك، توقف محمد بعد برهة، بينما واصل مصطفى الضحك بصورة لفتت الأنظار إليه، ضحك حتى دمعت عيناه؛ فسأله محمد:

- ما بك؟

- لا شيء... لا شيء.

يمر الوقت بقدمين ثقيلتين، يدفع محمد ثمن المشروبات، ينادي على
النادل:

- احمله إلى إحدى الغرف حتى يفيق، وحذار أن يمسه أحد بسوء
إنه الرئيس مصطفى ابن الرئيس إسحاق.

هز الرجل رأسه بالموافقة، نادى على رجلين، ليحملا مصطفى إلى
الطابق العلوي، اطمأن محمد على مصطفى، خطا إلى البيت، الصالة
خاوية، يدلف إلى حجرته، يلقي بجسده على الفراش في الحجرة
المجاورة، كانت جميلة تسترق السمع.

- عاد محمد.

دفعت الغطاء عن جسدها العاري، تستخرج من سحارتها جلباباً
فضفاضاً، تلملم شعرها، ثم تعود إلى الفراش.

- استيقظ، يا (بلانكو).

بعد وصلة من الشوق، قادها (بلانكو) منذ قليل، كانت تتدلل:

- البنات، يا رجل.

- نعم.

- ربما يفتح الباب.

- أو صدته.

- ربما يأتي محمد.

- لن يأتي.

لم تدر، وهو يحتل أطرافها، ويداعب أنوثتها، أن الشوق يتدفق من
كيانها إلى هذا الحد، هدأت جذوته؛ فأشعل البايب، سعل عدة مرات،
وضعت رأسها على صدره، تداعب شعيرات اختلط فيها البياض
بالسواد، شخيرته يخرج خافتاً، تأملته، ها هو ذا أبو البنات، كان يحلم
بالولد؛ كلما أنجبت بنتاً بكّت، يذلّف عليها، يربت على ظهرها:

- في المرة القادمة.

وفي كل مرة تلدُ بنتاً، حتى قال لها:

- كل بتين بولد، لنحسب كم ولدًا لدينا؟

ضحك، مهما تتناقل عليه الهموم، يضحك، دائماً يضحك. بعد
صلاة العشاء، يدخل البايب مع محمد.

- تفضل، يا ريس محمد.

ثم يحضر العود، يداعب أوتاره، تلتف البنات حوله، يغني لهن،
أحياناً يشاركهن محمد الجلسة، وأحياناً يخرج، تعد جميلة العشاء، على

العشاء: يضحك، وهو يرسم الصغيرات: يضحك، امتلأت جدران البيت بالصور، أكبرها في المساحة صورة (ماري)، تحتل جداراً كاملاً، ظل أياماً ينظر إليها ويبكي، يدخن ويبكي، لاذ بصمت طويل؛ حتى صرخت أرماندا صرخة الميلاد، لحظتها ابتسم، ازدادت ابتسامته مع ميلاد كل بنت؛ فإذا تأخرت جميلة عن الإنجاب عامين أو أكثر، وكزها في كتفها.

- ألا تشتاقي للبنات؟

تتعطر، تدلف تحت الغطاء، يشم عطرها.

- والله، أنتِ اشتقتِ للبنات.

تتكور بطنها، وتقسم مع آلام المخاض ألا تنجب مرة أخرى، تحنث في يمينها وتصوم من الأيام ثلاثة، كادت في المرة الأخيرة أن تلفظ أنفاسها؛ فاحتال (بلانكو) بالعزل على الإنجاب، سأله يوماً:

- علّمني الرسم.

- لا أعرف.

على ظلال السراج أجلسها على وركيها أمامه، نزع عنها ثيابها، شبك الساعدين ليواري نهديا، قعد على الأرض، يدخن البابيب، يحدق إليها في جلستها هذه فوق الفراش، مع باكورة الصباح، فرغ من رسمها، قبلته قائلة:

- أحبك.

لم تقبله قبل الآن!!

نسيت طوال هذه السنوات أن تقولها ولو مرة واحدة، فكان حب
(يسي) يتوارى خلف ستائر الأيام، يلقي بغلالة على حياتها ولا يغادر
مكانه إلى هذه اللحظة، تحبه، تحبه بكل خلجاتها، تزوجت وهي تحبه،
أنجبت مرة وراء أخرى وهي تحبه، تعاشر زوجها وهي تحبه، أمسى حبه
كضوء شمعة يرقص على هواء السنين، يخذعها أحياناً ويختفي؛ فتظن أن
الأمر انتهى، فإذا به ينبعث مرة أخرى، خافتاً ولا يموت، سمح لأشياء
كثيرة تنمو بجواره، البنات... البيت... محمد... (بلانكو).



استيقظ (بلانكو) من غفوته، ابتسمت.

- ساعد لك الحمام.

مسح وجهه بأصابعه.

- اقعدني، أريدك في أمر مهم، الرئيس خير الدين طلب أرماندا

لابنه.

حاولت إدراك الأمر، عرفت الآن لماذا طلبه الرئيس خير الدين،

أرسل مع أحد الجنود في طلبه، حين وصل إلى القصر، اصططحته جارية
إلى الطابق العلوي، طرق الباب، صوت حبيبة:

- ادخل، يا (بلانكو).

- سيدتي

- أنسيتنا يا رجل؟ جميلة أحسن منك، بين الحين والحين تأتي لزيارتي، أما أنت، سرقك الرسم والعود منا، ألا تزال تعزف، يا (بلانكو)؟

لم يجد ما يقوله، قدماء تسمرتا في مكانيهما، يد تدفعه إلى الداخل، يلتفت ليري خير الدين.

- عفوا، يا ريس، الحزن كاد يقتلني.

بلوم، قالت حبيبة:

- آه من شدة حزنك، أكرمك الله بكل أولئك البنات، وتحزن.

ضحك خير الدين.

- لا تنكري يا حبيبة أنهن جميلات، ليت عندي أكثر من ولد كي أزوجهن بناتك.

أشارت حبيبة بيدها، وهي جالسة على فراشها:

- يكفيني أرماندا الحسن.

ابتلع (بلانكو) ريقه بصعوبة.

- لك ما تشائين، يا سيدتي، ولكن.

- دع أمر حبيبة والبنت لي، أردت أن أخبرك فقط.
هذا ما قالته حبيبة، قبل خروج الرجلين من حجرتهما، يهبطان
الدرج، تحدث خير الدين:
- ولدي يجب ابتك، استشر أهل بيتك، أظن زيارتك لنا الآن
أصبحت واجبة.
يدخلان حجرة المكتب، يعد (بلانكو) الباب، يدخان على مهل.



خرج (بلانكو) من الحمام إلى حجرته.
- ألا تزالين تفكرين، يا جميلة؟
- لا أوافق على هذا الزواج.
ارتسمت الدهشة على وجه (بلانكو)، أردفت جميلة:
- أخشى أن يموت، مثل إسحاق أو عروج.
- لا تخشي شيئاً، الموت والحياة بيد الله.
فتح الباب فوجد أرمندا تنصت لحديثهما، يشدها من أذنها:
- هذه من خصالك السيئة، أملك تريدك.
يضرب أرمادها بقسوة، تتأوه من الألم، يغادر الدار، تتأمل جميلة...
ابتتها.

- كبرت.

- سمعت.

تهز رأسها بالإيجاب، حدثت جميلة إلى وجه ابنتها، جفونها مُنسدلةٌ
على عينيها، خداها يكسوها احمرار الخجل، تبتسم جميلة:
- تحينه... والله لم يبعد الأمر عن بيت الماما.
تضحك أرماندا.

في بيت الماما كان حسن جالسًا في انتظارها، تسير الماما بجسدها،
الذي يزداد نحولًا يومًا وراء يوم، تخط بعصاها الأرض، رافعة رأسها
لأعلى.

- ألم تأت....؟

-.....

- قلت لك لن تأتي، صدقني، جميلة لن تخرجها من البيت حتى
تتزوج.

- كأنني أوصدت باب العشق على رقبتني.

تجلس بجواره على الدرج أمام بيتها، يتقنق للدجاج، تضحك.

- والله، لو رآك أبوك؛ لأشبعك ضربًا.

يواصل النققة، وتواصل الماما حديثها:

- إياك، يا ابن خضير، بعد زواجك نسياني.
- سأتي بك إلى قصري.
- تزوج غير مُصدقة:
- لن توافق عروسك.
- ستوافق... صدقيني، ستوافق.
- سأتي بشرط.
- ما هو...؟
- آخذ دجاجتي معي، وتنقنق لها كل يوم.
- ضحك وأيقن قلبه أن حدس الماما في محله، لن تأتي أرمندا اليوم،
لن تأتي.

(٤٣)

- نور... نور.

تسرع نور بأعوامها الثانية عشر إلى والدها خير الدين، مليية
النداء، أردف:

- أين حبيبة...؟

- في حجرتها.

- وأخوك حسن.

- ينتظرك في الطابق الأرضي.

تأمل عينها الجديدتين، فلم تعد تلك الصغيرة النائمة في فراشها
تمتص إبهامها، أو تلك الحايبة على أطرافها، تسبقها ضحكاتها الفرحية
بقدومه إلى البيت، أو تلك الصغيرة التي تقفز الدرج، تصرخ هنا
وهناك، تملأ البيت صخبًا، وتشاغب الملاحين والعبيد، أو تلك الصبية

التي فاجأته يوماً بامتنائها صهوة الجواد، والجري به في كل صوب.
بضعة أيام وتغادر هذا البيت إلى بيت جديد؛ لتصبح عروساً، لم يصدق
طلب طرغد ليد ابنته، فثراء طرغد يعرفه الجميع وكذا شجاعته ونبل
خلقه، بيد أن خير الدين لم يتوقع هذا الأمر، حدّق في طرغد جيّداً حتى
ظن الرجل أنه رفض؛ فراجع خطوتين إلى الخلف، استوقفه خير الدين
قائلاً:

- أتعرف يا طرغد؟... ماذا يدور في رأسي؟

- لا.

- إلى هذا الحد كبرت صغيرتي.

انفجرت أسارير طرغد، فتح خير الدين ذراعيه ليعانقه.

- أنا لا أمانع أبداً، ولكن سنترك لها ولوالدتها الأمر.

انزاح هم كبير عن كاهلي طرغد، جاءت الأيام بما يرجوه ويأمل.

حين سألت حبيبة ابنتها توردت وجتنا الصغيرة خجلاً وتراقصت
الفرحة في عينيها؛ فأنابت حبيبة زوجها بما دار بينها وبين ابنتها.

- أبي، لم تحدّق فيّ هكذا؟!

- لا أصدق أنك ستغادرين هذا البيت قريباً.

يغادر حجرته هابطاً الدرج إلى الطابق الأرضي، في حجرة مكتبه
المكتظة بالكتب والأوراق، والشمعدانات والنماذج المختلفة والمتعددة

للسفن والمدافع وضوء الشمس، ينسكب من النافذة؛ فيكسو وجوه الرجال الذين في انتظاره، حيّاهم بسرعة وجلس خلف مكتبه، محدّقاً إلى الوجوه.

- بالطبع تعرفون لم نحن هنا.

تحدّث الرئيس أيدن:

- لا بُدَّ أنها معركة بحرية كبيرة.

- بالضبط، فالأخبار تأتينا من الغرب أن شارل والبابا كليمنت السابع، يعدان حملةً للقضاء علينا تحت شعار العصبة المقدسة.

تدخل طرغد.

- لهذا أرسل الخليفة مدداً لنا.

- ليس بالمدد الكافي، ولكن لا بأس، يشرفني حضور سيدي عليّ، عالم الجغرافيا والرياضيات، سيراقتنا في هذه المعركة، التفتت الوجوه حيث أشار خير الدين، انهمك الرجال في تحليل الموقف ومكان المعركة؛ فالاتجاه إلى إسبانيا أمر غير معقول وقدم العصبة المقدسة إلى الجزائر يعني هزيمة مؤكدة بعد تشييد القلاع وسور كاسر الأمواج، بسط سيدي على خريطة بمساحة وجه المكتب ووضع نماذج صغيرة للسفن، أعاد خير الدين توزيع أسطوله على الخريطة.

- سأكون في المركز مع ولدي حسن ومحمد البلاتكوي، هنا في الجناح الأيمن: الرئيس صالح، والأيسر: سيدي عليّ، هنا في الاحتياط:

الريس طرغد ومعه مصطفى ومراد وصادق، أما الريس سنان وشعبان وجعفر فقواد أساطيل خفيفة في الجناحين، هكذا، (حرك بعض السفن)، في هذا الوضع سيكون تشكيلنا في المعركة.

تحرك الأسطول بعد ثلاثة أيام من ميناء الجزائر، وقلوب النساء تخفق بشدة، مئآت النساء يودعن الرجال من الأتراك والموريسكيين والعرب والجزائريين، تذرف حبيبة دموعًا لفراق خير الدين، تلتفت لابتها؛ فترى وجنتها اخضلتا بالدموع؛ فتجففها بيدها، ضاحكة:

- ترى لفراق طرغد، أم لفراق أبيك؟

- إن كنتِ تبكين فراق أبي، فأنا أبكي فراقهم جميعًا أبي... وأخي

و...

- وحبيبك طرغد... كنت سأرفض زواجك من طرغد حتى لا تعاني ما أعانيه، أتعرفين أي ألم يسكن صدرك حين يغيب زوجك؟ أية هواجس تلعب برأسك. والانتظار الممدود بطول الأيام والشهور... سيعود أم سيعود جثةً أو سيأتي خبرٌ بموته ومن كثرة الهواجس والظنون لم أجد بُدًا من الانهباك في العمل من طلعة الشمس حتى غروبها، وجاء اليوم الذي خرج فيه حسن أخوك معه ليزداد سكين الألم والأرق غوصًا في قلبي، كأن القلب اعتاده، حتى بعد عودتهم سيظل السكين مرشوقًا في القلب.... صديقي لو قلت لك: إنني فكرت ألف مرة أن أجري حاسرة الرأس، ألقي بنفسي بين ساعدي خير الدين وأغمر وجهه

بالقبات وأرقص معه على امتداد الطريق من المرفأ إلى القلعة. أتعرفين حين أقبل يد والدك أشم منه عطرًا خاصًا به، جعلني أعشق لشم يده، عبر تشممين فيه رجولته، صبره، خليط لا يمكن صنعه مرة أخرى، رأيت عشرات المرات حزينًا أضمه إلى صدري كصغير، أبتهل ألف مرة أن يترك الملاحة والبحر ويعيش معي هنا، مثلما فعل (بلانكو) الأندلسي، وكان دعائي يأتي بالعكس، ينطلق ليغيب أيامًا أو شهورًا. آه يا نور... لا عليك... لا منجى من القدر... تعالي... السفن غابت عن أعيننا.

كما غابت السفن عن الشاطئ، غاب الشاطئ، الوجهة هذه المرة خليج أكتيوم، تحدث خير الدين لابنه:

- هنا منذ قرون بعيدة، دارت معركة أكتيوم بين أنطونيو وكليوباترا ضد أوكتافيوس.... اسمع، يا حسن، سوف نستتر في أحضان هذا الخليج.

- موقع استراتيجي، يا ريس، سيعجز أندريا عن اختراق المضيق.

تحدث مصطفى:

- نحن نسيطر بحرًا، والأتراك برًا.

علي ضوء الشمعدانات والمشاعل تجمع الرجال حول خريطة كبيرة، لا يلتفت خير الدين إلى صاحب الصوت، يُحدِّق إلى الخريطة، ويرد على الاقتراحات:

- نقوم بمناورة في الساحل.

- لا، ستفقد المدافع بعيدة المدى تفوقها.

- ننتظر دخول العدو إلى شرم بريفيزا حيث يتم تدميره بمدافع

القلعة، بمساندة جنود البر.

- الحرب البحرية تكون في البحار المفتوحة، وفي حالة إصابة

إحدى السفن فإن السفن حاملة جنود البر، الذين لم يألفوا البحر

سيرمون بأنفسهم في البحر دون نظام، ناشدين البر وتاركين السفينة

بدون طاقم... فيم يفكر أندريا الآن؟

تحدث الرئيس صالح:

- أعتقد أن أندريا سوف ينسحب من موقعه إلى خارج بريفيزا، في

محاولة لخداعنا.

يردف الرئيس أيدن:

.. - لن نقوم بهذه المحاولة إلا اعتقادًا منه أننا سنطمع في مطارده،

على أمل أن اليونان أصبحت جزءًا من أراضي الدولة العثمانية، وبهذا

ينجح في خروجنا من المضيق الذي نتحصن به.

تأملهم خير الدين وتمهل قليلاً، قبل أن يتكلم:

- له ما يشاء، يا رجال.

تصلبت ملامح الوجوه من قول خير الدين، الذي أردف:

- اذهبوا الآن، فأماننا يومٌ شاق، وربما يومان.

استلقى على فراشه، وخطوات الرجال تغادر السفينة، منتظرًا الصباح.



تواردت الأخبار بأن أندريا دوريا على رأس الأرمادا، فيتي كاييلي يقود الأسطول البندقي، وماركو جيرماني يقود الأسطول البابوي.

- أسطول غير متجانس، يا حسن.

- نتميز أيضاً بقدرة سفننا على المناورة، ومدى مدافعنا البعيدة والخفيفة.

بدأت الأرمادا بالخروج إلى البحر؛ فأمر خير الدين السفن بمطاردتها مع الحفاظ على مسافة ثابتة، مكث محققاً في أسطول أندريا، التفت:

- بحسبة بسيطة، يا حسن، ستعرف أن سفنهم ثقيلة الحركة على عكسنا.

- الأخف والأسرع: يفوز.

أفواه صامته وهدير يوشك على الانطلاق، وهواء يداعب الأشرعة، يردد خير الدين:

- اسبق عدوك بخطوة.

إشارة الهجوم لاحت للسفن، في شكل هلال، طوّق خير الدين
سفن أندريا وأمطرها بالمدافع، والانقضاض على الأسطول، سفينة وراء
أخرى.... النيران تشتعل.... القتل يتساقطون.... السفن تغرق....
وزاد الطين بلة أن الرياح الشمالية، التي أبحر فيها أندريا قد انقلب؛
ليعرض سفنه لمخاطر جمة، وأصبح الموقف في غضون خمس ساعات لا
مفر منه، انسحب أندريا متخذًا طريقًا إلى كورنو، ووضع شارل على
إحدى السفن، شارل ينظر في كل صوب، مشات من الجنود تصارع
الأمواج، سفن تغوص مخلفة خلفها فجوات كبيرة، دقائق وتمتلى
الفجوات بالماء ليعود السطح ساكنًا، كأن شيئًا لم يحدث، الصراخ يملأ
أذنيه، شارل يلقي بتاجه في البحر.

عاد البحر صافيًا رائقًا أمام عيني خير الدين، طلقات النصر تملأ
المكان، ينتقل خير الدين من سفينة إلى أخرى، يهنئ رجاله بالنصر،
يصفرون.... يغنون.... يتراقصون.... يريقون الخمر.... تنهادر
السفن في سيرها، يتوقف خير الدين عند الرئيس أيدن:

- ما موقفنا؟

- خسرنا القليل، ربحتا مائة وثلاثين سفينة، أنقذنا ألفاً وثمانمائة
مجدف.

- لو كانوا بين أيديهم الآن؛ لقتلوهم نكاية بنا.

أصبح الشاطئ على مرمى البصر، من أعلى السور الكاسر للأمواج،
مئات البشر يلوحون برايات النصر، تدخل السفن إلى المرفأ، يهبط
الرجال خلفهم، الأسرى مقيدون، امتلأ المرفأ بالسفن، حبيبة لا تصدق
عينها، تحدث جميلة وبناتها:

- من يصدق، يا جميلة، أن الرئيس خير الدين خرج مع إخوته في
يوم من جزيرة ميدلي بسفيتين، انظري أمامك كل هذه السفن، وكل
هؤلاء الرجال تحت إمرة خير الدين.

- سيدتي؛ بارباروسا حاكم الجزائر.

يثر أهالي الجزائر الورد على المقاتلين، يهتفون بالحياة له.

يدلف إلى قلعته، تنكئ جميلة على يد حبيبة:

- حمدًا لله على سلامتك، يا خضير.

يقبل يدها.

- بارك الله فيك، يا مولاتي.

علا صغير الرجال، خير الدين يحمل حبيبة بين ساعديه إلى داخل
القلعة.



في الليل احتفى (بلانكو) بالرئيسة في حجرة مكتب خير الدين،
فوزع عليهم البايب ولفافف التبغ، تسرب الدخان من النافذة، يطارده
ظلمة الليل، يأتيهم صوت النادي وهو يغادر القلعة، معلنا خبرين:

الأول: زواج حسن بن الرئيس خير الدين وأرماند ابنة (بلانكو)،
والثاني: زواج الرئيس طرغد من نور. وكما ازدانت الجزائر بالرايات
والبيارق، ازدانت أيضًا إستانبول إثر وصول رسول يحمل نبأ النصر
للخليفة؛ ليعرف أن الخليفة في مدينة يامبول في بلغاريا، ومن هناك
أرسل رسولًا، إلى الصدر الأعظم رستم باشا بتزيين المدينة وإقامة صلاة
الشكر في جميع مساجدها، وفي مقدمتها مسجد آيا صوفيا.

المرأة الوحيدة التي لم تنسجم مع هذه الأفراح هي وردة الربيع،
فمنذ مقتل إبراهيم والوحدة تتابها بهواجسها، فكلما اتابها هاجس
غادرت حجرتها وبحثت عن مصطفى، فلا يهدأ لها بال حتى تعرف
مكانه وتطمئن عليه، بينما روكسيلانا يهيم بها السلطان عشقًا، وتتفنن في
ملء فراشه بمحظيات جديدات.

- ألا تغارين...؟

- بلى، يا مولاي، ولكنني واثقة من حبك لي، كما تتيق أنت تمامًا أنه
لن يعتلي عرش جسدي وعرش قلبي سواك.

بين وقت وآخر يأتي إليها؛ فتمايل وتراقص على الأنغام، وتبسط
فراشًا من الضعف والوهن والاستمتاع والموانسة به؛ ليزهو بنفسه ملكًا
عليها.

سألها رستم مرة:

- ألا تخشين أن تختطفه امرأة منك؟

(٤٤)

أصبح الجميع في حالة من الذعر والخوف، الكل يخشى الاقتراب من الإمبراطور شارل. منذ رجع وهو سجين حجرتة لا يفكر في أي شيء؛ فأخبار الهزيمة انتشرت في جنوب البلاد وشمالها، في شرقها وغربها.

صامت أحراس الكنائس عن دقائق النصر، تاجه غاص هناك في قلب البحر، أبغض مكان لديه: (بروزه)، ذلك المكان الذي لاقى فيه الهزيمة، وأبغض اسم لديه: خير الدين.... خير الدين بارياروسا، أمست الكأس لا تفارق يده، يجرع ويجرع، يصطحب امرأة إلى مخدعه ويجرع، يتأملها في الصباح ويجرع ويرحل عنها ويجرع، يجلس على العرش متأملاً المساحة الشاغرة أمامه ويجرع، الكأس خاوية ويجرع، النوافذ تعكس ضوءاً خافتاً لكل شيء حوله، صدى ورنين، زجاجات الخمر تتهشم واحدة إثر أخرى، البابا كليمنت السابع أبى الحضور إليه.

- لن آتي، إلا حينما ترسل إليّ بأنباء النصر.

ردد شارل لنفسه:

- من لم يمت بالسيف، مات بغيره.

فأرسل في البحث عن شخص يمكنه دخول الجزائر بلا ريب،
ويصل إلى القلعة؛ فكان روميو التركي، أحضروه ليلاً إلى شارل.

- أغلقوا الباب...

(جأر في حُرَّاسه، ثم أردف):

- دكتور روميو، أصغ لي، ستحمل رسالتي إلى بارباروسا؛ بأنني
أجعله حاكماً مستقلاً على المغرب وشمال إفريقيا؛ بشرط أن يقطع علاقته
بتركيّا.

قرأ بارباروسا الرسالة مرتين، التفت إلى الرسول قائلاً:

- سترحل الآن إلى إستانبول.

فزع الدكتور روميو من هذا الأمر؛ فجرّه الجنود إلى الخارج، دخل
مصطفى حجرة مكتب خير الدين، الجالس خلف المكتب مفكراً،
تحدث خير الدين:

- شارل يريدني عميلاً له.

- ألا تكفيه تونس؟

- ماذا تفهم من هذه المحاولة؟

- تَحْبُطُ اليائس.

- بَمَ سترد على الرفض؟

صمت مصطفى قليلاً، ثم أجاب:

- الحرب.

يزفر خير الدين:

- الحروب تلازميني كظلي.

- أنت لها ياريس

- أراك متعجلاً في أمرك، اذهب ولكن لا تجعل الخمر تُغَيِّب عقلك.

تراجع مصطفى عن وقفته وغادر الحجرة، يراه خير الدين من النافذة يسير جوار البلاנקوي، يعرف إلى أين سيتجهان، إلى تلك الحانة، التي أرسلت في ليلة عرس نور وطرغد إلى خير الدين، طلب الحضور، انسحب خير الدين من الباب الخلفي، استقل مركباً إلى إحدى بوابات السور ودلف منها إلى الداخل، سار خلف الرجل حتى الحانة، وجه صاحبها تشابكت عليه خيوط الخوف، كثير من الأشياء محطمة، شاهد مصطفى جالساً والخمر ذهبت بعقله، الدموع تنساب.

- تزوجت؟

هز خير الدين رأسه بالإيجاب، ألقى برأسه على صدر عمه وانفجر
باكياً، يربت خير الدين على ظهره، أوماً لصاحب الحانة بإحضار
جندين لحمل مصطفى إلى القارب، ثم أخرج كيساً من الأموال منح
الرَّجُل إِيَّاهُ عوضاً عما هشمه مصطفى، من نفس الباب رجع إلى القلعة،
في الصباح كأن شيئاً لم يكن، هبط مصطفى لمكتب عمه.



احتسى محمد ومصطفى الخمر، وتراقصا مع النساء، الصخب يملأ
الحانة، بل كل الحانات إلى هذه اللحظة ترتوي من نشوة النصر، خرج
الاثنان إلى الشاطئ، تحدث محمد:

- هلي للأمر نهاية...؟

- أي أمر تقصد؟

- أي أمر؟

- النهار له نهاية.

- الليل له نهاية.

- الحب له نهاية.

- لا.

- الحب ينتهي؛ عندما ينتهي العمر.

- والعمر، كالسائر في صحراء مترامية الأطراف، أمام عينيه سراب
يأمل في الوصول إليه، ربما يصل.

- وربما لا....

- وربما يتوقف عن السير وراء السراب؛ ليسير نحو واحة قريبة
منه.

- ما واحتك؟

- الحرب... سنقاتل الأسبان؛ لنحيا وسنحلم.

- بم سنحلم؟

- سنحلم بالاندلس.

- لم يعد في يد الزمن - على الأرجح - أي شيء.

خلف مكتبه يغمس الريشة في المحبرة، مدوناً...

"تلك وصية خير الدين بن يعقوب بن يوسف

ثمانمائة عبد من العبيد للسلطان سليمان القانوني، مائة عبد للصدر
الأعظم رستم باشا، ثلاثون ألف ليرة ذهبية لبناء جامع وقبر في
بشكتاش بإستانبول. عشرة آلاف ليرة لابن أخي مصطفى بن إسحاق.
ألف جارية وألف عبد وسرايا في إستانبول لولدي حسن و.....
و.....".

منح المئات من رجاله نقودًا وأملاكًا، ولم ينسَ الماما و(بلانكو)
الأندلسي وبناته.

مسح خير الدين وجهه براحتيه، فرك عينيه، فكر قليلاً ثم حدث
نفسه:

- ولم لا!

يغمس الريشة في المحبرة، يكتب السطور الأولى بيد واهنة، في
الركن يجلس (بلانكو)، يضع التبغ بيد واهنة في البايب، على مهل يسعل
وينفث الدخان، يغمض الرئيس خير الدين عينيه، ويقول:

سأكتب سيرتي....

تتصاعد خيوط الدخان، تنصهر دموع الشمعدان واحدة وراء
أخرى.

يعم الحجرة ظلام دامس.



تمت مصطفى سليمان

٢ مايو ٢٠٠٥م، ٢ أغسطس ٢٠٠٨م